جمال الغيطاني

كتاب التجليات

السفر الثالث



دار المستقبل العربي



جمال الغيطاني



السفر الثالث



دار المستقبل العربي

تصميم الغلاف
للفنان : بهجت عثمان

الطبعة الأولى ١٩٨٦

دار المستقبل العربي
٤١ شارع بيروت . مصر الجديدة
ت ٦٦٥٩٠٠ القاهرة

« إن يشأ يذهبكم ويأتِ بخلق جديد »

قرآن كريم

بسم الله الرحمن الرحيم

* * إنه مفتتحى * *

أما وقد بحت بقبس من مكتتمى ، فانى على شفا المكاشفة بجل ماأخفيته ، اذ جاء الإذن عند هذا التقييد ، فسبحان من فسر لى دلالات أسمائى ، وبين لى من سأكونه ، وفى أى حيز ستتم الكينونة ، البدء والتمام ، النقص والأفول ، لن أدارى أبدا ماأمرت بفضه والتصريح به ، حتى الدقائق التى سترجف قلبى أو تنبه غوافل فؤادى ، من صريح عبارة أو غامض إشارة أو ثنايا لحظة مارقة ، ومالا أعرف كنهه .

سأفضى ، سأصرح ، إلا إذا ورد التنبيه بخلاف ذلك ، ما أنا إلا غريب ، والغريب عابر غير مقيم ، هذا الكون منفاى ودار هجرتى ياصحبى ، مقامى لم يعد به منذ أمد سحيق ، أوفيت مدتى فأنا عتيق ، سعيى وعر ، محلى ناء ، ماجئت إلا امتثالا لأمر ، لم يكن بوسعى إلا الإذعان بعد تكاثف غيوم حظى وسوء بختى ، إنما أنا غريب ، مستوحش من الإلف ، والألفة فى غير الوطن وحشة : وماهذه الدنيا بديارى .

جىء بى إليها فأنا وديعة ، ويوما لابد أن ترد ، وكثرت أسفارى فأنا راحل ، وطال خروجى .. فأنا مهاجر ، زهدت فلم أملك ، وجفت ضلوعى المضاجع فأنا أرق .

لم تلهنى تجارة ولابيع ، فأنا زاهد ، ظاهرى مغبوط .. أما داخلى فمشوش ، عندى شغل قلب ، ذو ارتقاب لما سيحل بى عند كل خطوة ، أصير إلى شخص أجهله ، وهذا لب اغترابى وعين افتراق عنى ، ذلك أننى شغلت أعز موضع ، إذ كنت من الحافين ، المهومين ، المحيطين باللوح المحفوظ ، واللوح أمره جلل ، لايمكن إدراكه بالمخيلة ، أو تعيينه بوصف ، فمن الاستحالات وصف مقامى القريب منه ، فظلال المعانى المجردة لاتقال ، لو قيلت لدخلت فى المحسوس فالعبارات من المواد ، عندئذ تنتفى صفات المعانى .

المحاولة عسيرة ، إذن .. فلأقصر خشية العجز والتطويل ، اللوح ياصحب ليس بوسع كائن النظر فيه ، أنفاس الخلائق محصاة، معدودة به ، كذا الأسماء والأفعال ، والإنس ، والطير ، والجماد ، والمجرات ، والسدم ، ومواضع لاتدرك بالحواس ، وماشجرة الكون التى أطلع عليها من هو أصلى فى هذه الدنيا إلا طرح من طروحاته ، وما الديوان ذاته إلا تفصيل من مجمله ، ذلك أن الديوان اختص بالعالم الأرضى ، أما اللوح فوسعه ماكان ، وماسيكون وماهو كائن ، مبسوط لمن بيده الأمر ، من يبدأ ويعيد وينهى ، من ينشر ويطوى ، من يبدل الحال ، له الدوام كله ، أعاننى وأيدنى على ما ابتليت به ، عسانى بهذا الإفصاح ألا أكون قد تجاوزت ماقدر لى وماحدد ، وماقدومى إلا عقاب .

لن أفيض عن وجودى الأول النائى ، مايمكننى قوله إننى كنت قديما من أهل الجهاد ، ناشرا للبيارق ، حسبى وكفى ! الخوض هنا خطر ، لوفتحت فيه ستثور فتن فعذرا ..

أقول يابنى الأكرمين إننى قضيت حولا لايمكننى تعيين مقداره ، يطوينى زمان وما من زمان ، أقطع المراحل ولامكان ، وأنى مطلعكم على حكاية شائعة بين القوم ، من فهم باطنها أدرك مأأقول ، تنوع الحس وتضاعف السنين فى الزمن اليسير ، وجود الكثير فى القليل ، إنها حكاية الجوهرى ..

يقال إنه خرج بالعجين من بيته إلى الفرن وعليه جنابة ، فجاء إلى

الشاطىء يغتسل بماء النيل ، فرأى فى الماء مثلما يرى النائم ، كأنه فى بغداد وقد تزوج وأقام مع امرأته ست سنين وأولدها أولادا ، ثم نزل يوما ليستحم فى دجلة ، وفى الماء رد الى نفسه ، خرج من نهر النيل ، لبس ثيابه قاصدا الفرن ، أخذ الخبز وجاء إلى بيته ، أخبر أهله بما أبصره ، وبعد أشهر جاءت تلك المرأة التى رأى أنه تزوجها فى الواقعة تسأل عن داره ، فلما اجتمعت به عرفها ، وعرف الأولاد وما أنكرهم ، قيل لها : متى تزوج ؟ قالت : منذ ست سنين ، وهؤلاء أولاده منى ..

لعلى بذكر هذه الحكاية أكون قد قربت ، لكننى ، لماذا أشط ؟! لماذا أنأى ؟ لكم فى معراج المصطفى مافيه الكفاية فى هذا الباب ، أعنى بعد المسافات مع الزمن القليل ، لذا يبدو لى وقتى الذى قضيته حافا باللوح المحفوظ كمروق ظل طائر فزع على وريقة شجر خريفية ، إنى منقلب إلى من أجهل ، من لاأعرف ، من لم أكنه ، من عرف فى دنياه باسم جمال بن أحمد الغيطانى ، إنى هو وما أنا هو ! ، فالطف يامن إليه مسعاى ، إنى ممتثل ، مطيع ، لكننى مستفسر من حين الى حين ، فلماذا أعاقب على هذه الصورة ؟ لماذا أغرب عن ذاتى ؟ لماذا تسكن روحى دار غيرى ؟ لماذا عوقبت هكذا ؟ .

الأن ثمالة إنسانية لازمتنى فى طوافى باللوح المحفوظ حتى حركت عندى الخاطر : ماذا يحتوى ؟ لماذا نبقى فى منأى عنه ؟ لماذا نطوف بما نجهل ؟ بأى لغة يتم المحو والإثبات ؟ أية علامة ؟ ، أعرف المضمون فى جملته ، ماكان وماسيكون .. لكن دون التفاصيل سرابيل وعوائق .

وقع المحظور مع بدء التساؤل ، لم أكتم .. فحق على ماجزى . لم أخف فنزل بى مانزل ، لم أقمع فحاق بى ذلك ، بدأ إقصائى ، وكان الديوان المهيمن على العالم الأرضى أول محطى ، مثلت أمامه صاغرا ، لم أبصر رئيسته المباركة ، ولاعضويه النورانيين ، جرت المخاطبة عبر الحجبة ، بالصمت .. فلم أنكر ، ولم أجادل ، ولم أطلب الرفق الهيّن ، تلك أمور لامحل لها ، بان لى أول عقابى ، أن أرجع الى أصلى البشرى ، لكن ليس الى كينونتى الأولى، ليس الى زمنى .. فذاك انقضى ، تنزلت

بى عقوبة النفى ، والنفى عامة إنقطاع قسرى عن الأوطان ، ومحال التكوين ، وديار الألفة ، والإنسان فى منفاه ضعيف حتى وإن أحاطته عزوة وملة ، فالألفة فى غير الوطن استيحاش .

والعجيب أن أصلى ملاق نفس مصيرى بعد أن دنا من إدراك مايبدأ وينهى مايجمع ويفرق ، أما نفاذ عقوبتى فلتساؤلى وفضولى ، تحيرت فأبصرت ، وأبصرت فتحيرت ، وصلت فانفصلت ، عرفت المراد فضل عنى الفؤاد ، عساى ألا أتبرم ، أظهرنى فأخفانى ! أدنانى فنفانى ! ، والمعرفة لاطول لها ولا عرض ولامقر ، لافى سنن ولافى فرض ، راهبها راغبها وراغبها راهبها ، صهرت بغصة ، عوقبت بمفارقة المحل الأسمى الى الأدنى ، أما عقاب من سأحل محله ، وألبس وجوده وكينونته البشرية ، فمفارقة دنياه ومألوفاته ، تبدد ذراته ، لاتلتقى منها ذرتان أبدا . أما أنا فلم أضل الهدى ، أطلعونى على كل ما مر أصلى به ، منذ صرخته الأولى حتى تذريته ، صار موروثه ميراثى ، وسابقه عندى ، ولاحقه لاحقى ، حتى تبدده ، إنى متقبل ، راض ، أفارق مركز الديوان بعد مثولى وامتثالى .

قبل ولوجى الحياة الإنسانية كان لابد من مرورى عبر الحجب . وهنا أكشف عن لطيفة مخفية ، فهناك سبعون ألف حجاب تحول بين دنيا الحس وبين المطلق ، الذى كنت فيه ومنه ، تكتمل الكينونة بالمرور عبر هذه الحجب التى نصفها نورانى ، ونصفها الخارجى ظلمانى ، كلما اجتازت حجابا نورانيا فقدت صفة من صفات المطلق ، وكلما عبرت حجابا ظلمانيا اتصفت صفة حسية ، لذا قال بعض الكُمّل إن الطفل يولد باكيا لتذكر الروح موطنها القديم ، وعند تمام اليقظة والإفاقة ينسى الإنسان بوعيه ماكان عليه ، عدا لحظات الحنين الغامض الملغز المحير ياصحب ، إنما يسرى متمهلا ، قويا فى وهنه ، وعندى كلام يطول عن هذا الحنين سأفصله فى سفر آخر لنا من هذه التجليات المباركة .

ومذهبى فى هذا التدوين هو الاقتصار ، والاختصار جهد الطاقة .. فإن الأمر كبير ، والفروع تكاد لاتنحصر ، ليس بوسعى ذكرها أيضا ، لأن النفوس

تنكر مالاتعرفه ، وتدفع مالم تألفه ، لولا ذلك لفصّلت وعدّدت ولأخبرت .

إنى مطلعكم على نتف من ذلك .. فأول حجاب عرفته .. الفوت ، والثانى الندم ، والثالث حجاب ذكر فإنما أنت مذكر ، والرابع حجاب ، وكما نسيت اليوم تنسى ، أما أشد الحجب علىّ فحجاب العصر أن الإنسان لفى خسر ، ثم جزت حجب السبب والطلب والعطب والحزن والأسى والصفاء والرفق والصدق والعتق والتسويح والترويح والتمنى والعجز والقوة والفوت والإدراك والشهود والوجود والعدم والكد والردّ والامتداد والطوى والامتداد والجمع والانفراد والوصل والقطع والطرد والحد والانقياد والمراد والحضور والغيابة والإحاطة والتدبر والتحير والتفكر والتصدير والتغير والرعاية والهداية والرفض والبداية والنهاية . وكان آخر ماجزته حجابا وعرا هو الفوت الذى لحقنى منه أثر بليغ ، وهو أيضا حجاب من نعمره ننكسه .

هكذا تم تأهبى ، ألقى فى معارف أننى مفارق الى دنيا الحس التى عرفتها فى قديمى قبل تحولى إلى ظل فى الصورة ، وصدى للون من ألوان المنظومة ، عند هذا الحد ، ظهر عندى مهيب راسخ ، أول من أرى وأسمع ، خاطبنى بلسان شفوق ، وهذا جل مايحتاج اليه من ينزل أول محلة فى الغربة فيروده اطمئنان الى حين ، قال لى مانصه : « يايتيما قبل أن تولد ، أنت راجع ولست يراجع إلى دنيا تقطعت بك أسبابها ونسيت أعمالها ، ياولدى .. اعلم أنك ماض إلى رحيل دائم ، فمامن إقامة أبدا ، امض .. انما أنت عابر ..

أتساءل .. وهذا أول نطقى ..

أنت من ؟

لم يجبنى ، إنما استمر ..

« أعلم أن دليلك مجاهد ممن عاشوا الزمن الوعر ، سيتجلى لك عند استبهام أمرك ، وانسداد جهاتك ، وانقطاع سبلك ، سيأخذ بيدك ويقيل عثارك ، اتبعه ، جادله بالتى هى أحسن ، إن وقع الخلف معه ، فهو ممن غرسوا راياتهم فى

الحقبة .. لكن احذر أن تسميه ، لاتفصح عن هويته فيما ستدونه .

ومن أنت ؟

يغيب عنى ، مع أنى آنست منه ودا ، حتى تمنيت لو آتى من رقته بقبس تعيننى فى أوقات الجفوة ، ألقى فى معارفى أن دليلى هذا سيبدو لى عند الضرورة ، وأن أمره عند القوم عظيم ، منهم المطالب بدمه ، ومنهم الباذل دمه من أجله ، ولو ظهر فى مجال المرئيات لوقع اضطراب ، وقامت هوجات ، فسبحان من أخفى سره عن قوم ، وأطلع عليه آخرين .

عند هذا الحد إنتهيت الى منابع قوس قزح ، مجمع ألوان الطيف كلها ، قسماتها ودرجاتها وظلال كل منها على الآخر ، مالا يدرك بالنظر ، مايعجز عن احتوائه البصر ، أودع ماكان ، أتأهب لاستقبال مايكون ، حسبى ! سأطلع شيئا فشيئا على موارد صاحبى ومنابعه وماسيؤول إليه ، أرى ماعاشه وأستعيد بالمشاهدة ماأفل من عمره،ماانقضى من مدته ، أعيش ماكان ينبغى له أن يعشه، إذن.. تكتمل عندى أمور ثلاثة إقترانها وعر ، القربة والحجبة ودوام الغربة ، فنعم أجر الساعين المكدين .

إنى وجل ، إنى خائف ، ألمس بقدمى بداية قوس قزح ، عليه سيكون نزولى ومعراجى الى الدنيا ، من لب مجمع ألوان الكون يبدو لى شيخ صيغ حضوره من الأبيض الأشهب ، والأبيض الساطع والأبيض الكابى ، ودرجات أخرى لايسعنى تعيينها أو تدقيقها لضيق اللفظ والعبارة ، غير أن تباين الدرجات مكننى من رؤية ملامحه ، يتبسم ..

« صحبتك السلامة .. »

تأخذنى هيبته ، أحار .. كيف أمكن لى إدراك ابتسامته مع أنه ملثم ؟!

« كيف لاقيت بيرقنا فى الجهاد ، علامتنا وصارى سفينة حظنا ؟

يتكالب الغموض علىّ ..

« ألم تتعرف إليه .. مولانا الإمام على بن أبى طالب »

تلقى فى معارفى جملة من الشروحات تجعلنى دهشا ، أهو بذاته ؟

« نعم .. وسوف تراه مرة أخرى ، لكن قبل خروجك من هذه الدنيا ، عندما يحين ويدنو أجلك البشرى ، ستشهد احتضارا وعرا ولكن قصير الأمد ، سيقطع أمامنا ومرشدنا الحجب والمسافات ويجيئك ليساعدك على إتمام دورتك ، وإنهاء مدتك وإسبال جفنيك الى الأبد » .

يدركنى أسى إنسانى على نهايتى التى لاأدرى متى ستحين ؟ فأرثى ذاتى لحظة ميلادى ، وأبكى على رحيلى قبل بدء سفرى .

« وإنك لخائف ، والخائف مرحوم ، أبدا ، لذا أمرنى إمامنا أن أصلى بك صلاة الخوف فتأهب .. »

أولى وجهى ، أتبعه ، أقتدى بما يفعله ، يؤمنى ، أبدأ صلاتى ، خوفى مما أنا مقدم عليه ، مما أنا مسوق إليه ، خوفى أن أكون غيرى ، إكتساء ملامح من أجهله ، خوفى مفارقة اللانهائى إلى الموقوت ، المطلق إلى المقيد المعلوم إلى المبهم ، صبح الأزل إلى حيرة الطلب ، الوصل إلى التشتت ، فأى أمر أنا ملاقيه ؟ كنت آمنا لايروعني ما أجهله ، لاآسو على ماض مستحيل استعادته، لاأخشى داء يداهمنى فجأة ، لاأتوارى من حر ، ولا أتدثر من برد ، لاأعانى الحسد والبغضاء وقساوة القلوب ، وقلة الرحمة ، لاأعانى الطعن واللعن والسعى والغيبة والنميمة ، والزور والبهتان والكذب والرياء ، أحذر تشتت الشمل والبعد عن الأهل وهجرة الإخوان ، وبغض الألف ، وتشتت الأصحاب والوحدة والوحشة وتحرك أوجاع القلب ومرارة النفس وقتامة الأوقات إذ يدرك الإنسان أنه بمفرده أضعف من أن يبدل وضعا ثقيلا ، أخاف سوء المنقلب واستعصاء الغرض ، أن يمسنى لغوب ، فارحم ، وطمئن يامغير يامبدل ، يامن بيده كل شىء وإليه ينتهى كل شىء ومنه يبدأ كل شيىء .

تنتهى صلاة الخوف ، يختفى الشيخ عنى فلا أعلم من آمّنى ، فاتنى السؤال، أقف وحيدا عند بداية قوس قزح ، أخطو تجاه واقعى الجديد المحدث،

أولى الوجه الى دنيا انقطع عهدى بها ، فسبحان محيى العظام وهى رميم .

أجتاز الغمام هابطا بلين ليس فيه مشقة ، أشم المطر والقطر قبل تكونه . من غمام إلى غمام أدنو ، لم يدركنى نصب ، تحرك عندى خفى الأمل ، هل العقوبة موقوتة ، لعلى منقلب يوما من حيث جئت ، الرحمة تلفنى ، وكريم يسلمنى الى كريم ، فالغضبة ليست ماحقة وإنما ماحية ، والمحو لاينفى ، أما المحق فلا يبقى أثرا أبدا ، هذا معلوم ، أحاذر أن أخيد عن ألوان الطيف ، أجىء الى الدنيا إثر غيث غزير ، أستعيد بوعيى الآفل القديم رائحة المطر وامتزاجه بالتراب ، وبقاء قطرات منه عالقة بالأغصان ، لو أن ذلك باق لم يندثر !، أخرج من غمام مختلف ألوانه ، تتسع حدقتى إذ أرى مهبطى .

مدينة فاس ، أرض مخضرة ، وجبل ضام ، وبيوت شهباء ، وطرقات كالمعانى كل منها مؤد الى الآخر ، هذا مهبطى إذن ! تشب عندى شهوات انقطع عهدى بها ، أبدأ بتنسم المكان ، تنطبع روائحه عندى ، وهذا من خصائصى الخفية ، فكما ألمحت عند تدوين معراج أصلى — الذى سيبدأ بعد قليل — أن عندى وثيق صلة بالروائح ، فما من مكان طرقته ، ومامن امرأة صحبتها ، ومامن حدث جرى .. إلا كان ماتخلف من روائح عندى مدخلا لذكرهم ، انتبه إلى ما أنا فيه ، إنى أقف على جبل صخرى يشرف على فاس ، أرى شيخا مهيبا ، واثق الحضور ، ملامحه هرمة وخطاه شابه ..

« مرحبا بك فى الدار التى خرجت منها .. »

يبدو وكأنه يتدارك أمرا كان يجب البدء به .

« ألم يصحبك السيد ؟ »

« من ؟ »

« ألم يأت معك الى المدينة التى ولد بها ؟ »

« من ؟ »

« من ودعك عند بدء قوس قزح ، المجاهد ، صاحب اللثام ، لماذا لم

يصحبك .. أم أن الأوان لم يحن بعد ؟ »

تغشانى اللحظات الغروبية .

« من هو .. مااسمه ؟ فاتنى السؤال » .

يجيبنى معاتبا :

« أجهلت دليلك ؟، السيد أحمد البدوى، كان بودنا الاجتماع به » .

يشير فأدنو ، وأنا مأخوذ بضوء مصباح بدأ يلمع فوق بيت يتوسط الجهة الشمالية من مدينة فاس ، هذه أول خطاى ، هوّن علىّ يامن لا أول له ولا آخر ..

« ليس لك معرفة بما ستراه ، لكنك ستتلقى المعرفة لحظة وقوع عينيك على الشيىء بنفس القدر الذى كان سلفك ملما به ، فاذا كان مطلعا عليه جاز لك العلم ، واذا كان جاهلا لم يبذل الجهد لمعرفته أو لم تتح له الفرصة فلن تدركه ولن تفهمه إلا إذا أبديت المجاهدة لاكتساب ماكان ممكنا له تحصيله . اعلم أنك ستقف على مايمر به أثناء معراجه فتكون كأنك معه وأنت لاتصحبه ، أما هو فلن يقف على ماستشهده أثناء إتمامك مدته فافهم !» .

أصغى هيابا ، أتوق ، ماذا سألاقى ؟ فضولى يبدد بعضا من وجلى ، قربنى من أمور شتى فقدت منى بحكم المدة واتساع النقلة ، من ذلك قدرتى على الصحبة ، والإسرار بالنجوى ، واستعادتى لذة النكاح والنشوة والصبوة ، كذا الحنين ، واكتشافى أرضا أطؤها أول مرة ..

« إنه هو ، يبدىء ويعيد ، وهو الغفور الودود ، ذو العرش المجيد ، فعال لمايريد .. »

تلى علىّ مارقرقنى ، فاحتويت فاس العتيقة بالنظر ، نضاحة بالقديم ، سيالة العبق ، فضفاضة الأريج ، فى المركز مسجد بنته العبدة المؤمنة زينب الفهرية ، أما المدينة والمسجد فلم أسمع بهما فى زمنى الأول المندثر ، هذا كون مغاير، للبداية شدة ، خاصة إذا لم تتحدد المدة، ولم تؤطر الفترة ، سأكون من

أجهل ، وأنادى باسم من لاأعرف ، أعايش قوما على أنهم جماعتى وماهم ناسى ، أنطق بلسانهم ، أجارى وأخفى ، فلى الصبر ، ولى السكينة ، ولى الامتثال بالأمر ، هذا دركى ، وهذا حظى من انقطاعى عنى وفقدانى منزلتى ، حتى ملامحى لاخيار لى فيها ، لاعلم لى بها .

الآن لايمكنني الاستدلال على ذاتى ، ربما ظننت أننى أتبع نفسى بينما أقفو أثر غيرى ، يبسط الشيخ المهيب راحته ، يطيب خاطرى بالنظر فأهدأ ، يملس على شعرى ، يربت كتفى ، يولينى ظهره . أتبعه ، إجتاز واجتزت ، مرق ومرقت ، عبر ناتىء الصخر وعبرت ، فضاءات البيوت ، والدروب والزنقات والجدران الصماء الملساء التى تتخللها أبواب خشبية ضئيلة المساحة ، ثرية الزخرف ، يتوقف عند مبنى كبير حديث البناء ، معهد لتلقى العلم ، ألحظ الخلق الذين سأسعى بينهم ، وإن علمت أن مقامى ليس هنا ، مازلت محجوبا لاأبين ، كذا شيخى ، صعد سلما وصعدت ، مشى ومشيت ، يقترب ، أقترب ، يلج قاعة فسيحة فأتبعه ، طاولة بيضاوية حولها جمع وصحبة ، ألمح بينهما شيخا من أدلة أصلى ، كنيته العالم واسمه محمود ، أتجاوزه ببصرى الى من سأكونه ، من سأسعى بدلا منه ، بمؤخرة رأسه صلع سار ومشيب مبكر ، من عجب أننى شغلت بأمور تبدو ضئيلة ، وتغافلت عن ملمات كبرى ، غير أن مابدأت أشرع به غامض ، عسر علىّ شرحه ، صعب توصيله ، كيف أفيض وأسترسل فى شرح مالم يقع إلا عندى ، مالم يتفق إلا لى ، إذن .. لاتقارنوا ، فما من وضع يشبه وضعى ، أما الآن فلا فرار ، سد الباب وبعدت الشقة واستفحل الأمر ..

أخطو تجاهى .

إمض الى ، أقترب منى .

يأمرنى الشيخ الجليل بالنظر ، فأقترب لأجوز فى الوجود الحسى للماثل أمامى ، لى ، لمن دعى جمال ، أرتديه كما يرتدى الكساء بينما يخلع عنى ومنى كما ينتزع الرداء عن صاحبه ، أرانى فيه ويرانى نائيا عنه وكلانا واحد ، أنا هو وأنا

لست هو ، غير أننى كنت أدرك جانبا من أصل القضية ، أما هو فالأمر عنده مبهم ، مستغلق عليه بالكلية ، فمن أنا الآن ؟ من أنا من ؟

أنا هنا أم هناك ؟ أنا موجود أم معدوم ؟ أنا راحل أم مقيم ؟ أنا شيء أم لاشيء ؟

يتم انخلاعه منى فى وقت نفاذى فيه ، يرانى فيبهت وأراه فأدرك ، ألقاه وأودعه فى آن معا ، أندمج به وأنفصل ، ألقاه وأفترق ، فنعم أجر الساعين ، يبدأ نأيه ، يعبر الصالة ملبيا نداء الشيخ الجليل ، وانى راغب فى تفصيل هذا الحال ، لكن يمنعنى خوف إملالكم ، ونفور طبعكم وتعجبكم مما لاقبل لكم به ، فاعطف العنان صوب الاختصار ، غير أن أحوال أصلى فى هذه اللحظة فصلناها فى موضع آخر ، فليرجع من يشاء لمطالعة خاتمة مقام الاغتراب ، لعل فيه شفاء للغليل ، أما الآن فبينى وبينى بعد بعيد ، يصيح بى الشيخ قبل تواريه عنى ..

« سلم لى على دليلك عندما تلقاه ، بلغه السلام الجميل .. »

أقول :

« سلام ممن ؟ »

يلتفت محمود العالم الجالس بجوارى دهشا ، إذن .. صار صوتى مسموعا فلأحذر ، فلألزم السكينة ، فلأمتثل ، غاب عنى أصلى فى هذه الحياة الدنيا ، تنبيء خطاه الوداعية بهم ثقيل ، آن لى أن أواجه حضورى ، فكأنى كأنه وكأنه كأنى ، سبحان من يخرج الأشياء من أضدادها، يخرج الميت من الحى، ويخرج الحى من الميت ، يخلق من الشجر الأخضر نارا ، يخفى الامور فى أندادها .

إنى مقبل على رؤية مامضى وماسيجيء فى آن واحد ، سأتقلب فى الظاهر وأثبت ، سأدخل بلادا لم أرها وأقاليم لم أفكر يوما فى طرق بواباتها ، سأضطجع فى مواضع لم تدر بخلدى أبدا سأوزع فى أرجائها مقادير من عمرى لن أستردها أبدا سأسعى وأرتزق وأنفق وأفق ، وألقى وأنكح من لاأعرفهن الآن ، وأتوه فى ديار لم يخطر عندى أنى بالغها أبدا .

سأفض سر الحرف العربى ، أتبع أصابع أبى اذ تشير فى بطء إليه فأعرف أشكاله قبل تعلمى الدروس الأولى ، وهنا أمرى عجب ، سأرحل الى عوالم شتى وأنا مجاور لجدران الأزهر العتيقة النازة بمندثر الأزمنة ، أنكب على السطور ، لاأتبع خطة ، لايوجهنى دليل ، لايؤمنى مرشد ، تؤازرنى الشمس بمدد من ضوئها يرشد عينى فى تحولاته المتعاقبة على مهل ، حتى إذا غربت وتم الغسق ، أنتظر مجىء من يشعل فوانيس الغاز ، أتم مابدأته بينما بائع الكتب يغفو ويفيق موجها نظرى الى الطريقة المثلى للإمساك بالكتاب حتى لايبلى ، حتى إذا فرغت أعطيه ماتيسر من مليمات ، ثم أمضى الى البيت راحلا فى الوقت ذاته الى دنى شتى ، سأقرأ فى قاعات متباعدة ، هنا ، هناك ، فى الثبات والحركة ، فى أغوار الفضاء الفسيح ، فى أعماق الموج السحيق إذ يضمنى مركب الغوص لأيام معدودات ، لن يفارق يمينى كتاب أبدا ، طمأنينتى وعين أنسى ، فى إقامتى وغربتى ، لاأستثنى إلا أيام السجن ، فترة قهرى ، عندما باعدوا مابينى وبين مااعتدت ، مامن كراس سأقف عليه إلا وألزمه ، سير الأولين ، المغازى والمعاناة ، الفروق بين الفرق ، تصانيف المذاهب اللوحات ، المنمنمات ، فى الأغلب الأعم أنهل وأطرح جانبا مما آخذ ، وقد أحصل بينما ينقص منى بعض مااكتسبت ..

مامن أهل مجاهدة أو كفاح إلا مخالطهم ، أمنح جل ماأستطيع بقدر ماتمدنى الطاقة ، حتى إذا مااستشعرت مالا يلائم دخائلى ، مايتناقض مع استمرار أمرى ، أبدى الإشارة ثم أفصح عن المعنى ، عندئذ يختلف القصد ، تتباعد السبل ، غير أنى لم أبغض شيوخى قط ، كذا زملاء الجهاد حتى وإن حادت عن غاياتها الأيام ، انى أطوى ولا أنشر ، وأردد ، رحم الله من علمنى حرفا ، ومن وقف الى جوارى لحظة إطلاق سهما ، أو مصارعتى عادية رمانى بها الدهر ، أو عند فضى مغاليق عبارة ..

ومن عجب أنى سأسمى بأسماء تخالف مااختاره لى الوالد الكريم ، فمن ذلك كمال ، وخالد ، وفريد ، وابن إياس ، والجهينى ، ومحيى الدين ، وغير ذلك كثير ..

كذا سأوسم بصفات شتى ، شاطر وخائب ، مقدام وفزع ، تلميذ وقارىء وأستاذ ورسام وصانع ، موظف ومسافر ومجاهد ومتقاعس ، خطيب وصامت ، رقيق وجاف ، عالم بدقائق لاحصر لها ، جاهل بأمور جمة بعضها يسير هين ، صاحب وخصم ، قريب بعيد متباعد ، شجاع فى حرب عشتها وشاهدتها حتى أنى لم أهب الموت والردى من أجل أهلى وناسى ، جبان حريص فى حروب أخرى أشهدت جانبا منها نائية عن موطنى ، مخلص بلا حد لمن وفى وجاوب ، منقلب ، صارم على من خان الأمانة وبدد الوديعة ، مانح فى فيض ، ضان فى عسر ، لن يفوتنى شيء خلال السعى والطواف واتخاذ الوجهة الا استوعبت منه مقدارا ، من ذلك كظمى الغيظ ، وابدائى الشكوى أو كتمانها ، كذا بوحى وثورتى وغليانى وكتمى فورة أنفاسى ، وهذا أعظم ماضرنى ولحقنى ، لكننى فجأة أصرخ وأجعر عندما ينتفى الحل وتنفد الطاقة وتهن القدرة ، صليت، ركعت ، تهجدت ، قبلت أيدى مشايخ أجلاء ، وقسس ، وقمامصة ، خطبت على منابر عتيقة ، وفى خلاء فسيح ، أممت جمعا .

حدث أثناء سعيى من أجل رزقى وتكسب معاشى أن وصلت قرية صغيرة شرق النيل ، وشرقه قفر ناء فى صعيد مصر المحمية ، حان وقت صلاة الجمعة ، علم الجمع أن الشيخ به مرض ، إلتفتوا إلىّ، قالوا.. أنت من أهل العلم .. تفضل ، هكذا قمت خطيبا وركعت إماما ، اتخذت موضعا فى صفوف الكنائس ، تجولت فى معابد الأقدمين ، أطرقت رهبة وخشوعا لمن نحتوا أعمدتها وخطوا الأشكال على جدرانها ولونوا رسومها ، وتسلقت صخرا وعرا لألقى نظرة إلى بقايا طفل قدموه قربانا فى الزمن العتيق ، ولجت معابد ينتمى ناسها إلى ملل شتى ، تحدثت وأفضت وفصلت الى جموع أجهلها ، تلعثمت مرتبكا فى حضرة من أهوى ، أفضيت وناجيت وتأملت وبحت فى خلواتى ، هذا طبع غلب علىّ ، إذ أننى محسور دائما على مافات ، ماتبدد ، نازف أبدا على مافقدته ، ماذرته الأيام بلا رجعة ، حتى فى أوقات طمأنينتى ولحظات استكانتى وراحة بالى أصغى الى دبيب خفى لايبين ، أدركه بقلبى ، لاقبل لى بمنعه ، بايقافه ، بتأجيل

سريانه ، بتخفيف ماسيمليني به ، وهذا لب عجزى ، دائما لاأعرف الكنه ولا أفض السر إلا بعد الفوت ، أغفو عندما يتاح لى ، وأهمل عندما يتيسر لى الأمر ، وأدنو من حافة اليأس والجنون اذ يستعصى علىّ .. وتفصيل ذلك عظيم .

تصديت لقوى لاقبل لمخيلة بتصور عنفوانها ، وشرورها ، وقدرتها على إلحاق الضيم والأذى ، وحلت بى الهزيمة فى مواجهة لحظة غروبية ، أو عند هبوب نسمة خفية لاتفصح عن وجهتها فى ساعة عصر بالتحديد ، وكدت أجثو أمام نظرة مخلوق ضعيف لايمكنه التعبير ، كما يسح دمعى لرؤية طاعن فى السن لايقدر ، أما ما أرجفنى .. فإطراقة امرأة عجوز عابرة مجهولة عندى أحيت لدىّ سعى أمى وكدها .

تشاجرت واشتبكت ، نجوت بالصدفة ، مرقت مراوغا الموت ، عشت زمنا كان ينبغى أن أفقد فيه ، رأيت بعينى مروق الشظايا عبر أجساد الخلائق ، عبرت الخلجان ، متفرجا ، مسافرا ، مهاجما عدو بنى قومى فى وكره وقصدت مهاجمته فى وكر يتمكن منه ..

ابتسمت من القلب ، ومن وراء حجبه ، أومأت صدقا ، وحننت ، ألبت وألبت ، نزلت بين الأجلة ، رافقت الجهال ، نلت رفعة وعكمتنى ذلة ، ودبر فى قتلى غير مرة ، صارعت ، هادنت ، رابطت ، قررت ، حاورت ، سلكت ، تقلدت الأوسمة ، عريت ، إفتقرت ، أثريت ، إقترضت ، أحببت ، عشقت ، ثم إنقلبت كارها لمن همت به ، كاتبنى قوم من كل فج ، أنجزت القليل الأقل ، وعجزت عن الوصول إلى ماأرغب وأنشد فى الكثير .. الكثير ، رصدت خطواتى ، رفعت بصمات صوتى ، فتحت لى ملفات واضابير شتى فى جهات لاحصر لها ، وكتبت فى آلاف التقارير ، وارتزق من متابعتى العسس ، روقبت سكناتى ، وتوبعت حركاتى ، سوئلت عن أسفارى ، من قابلت ؟ من صافحت ؟ من تبادلت معه النجوى ؟ من أفضيت إليه بسرى . وطولبت باسترجاع ماتفوهته وماقلته ، صفعت على وجهى ، على قفاى ، ألهبو أطرافى وهددونى بإدخال العصى

فى دبرى ، أقضوا مضجعى وأقلقوا ليلى ، سودوا لحظات من زمنى واعتموا بعضا من نهاراتى التى لن ترجع ، سبنى ضابط غتيت ولعن أمى الكريمة التى لم يرها ولم يعرفها ولم تلحق به مهانة ، لم أجبه فى العلن ، إنما واجهته بنظراتى ، هو مدجج ، وخلفى ثلاثة جلادين ، جاوبته بعينى الأسير الأعزل بالغل الكظيم ، أن يسب آسر أسيره فإنما ذاته يعنى ، ومايقوله يرجع عليه ، لم ولن أنسى ذكره أمى وسبه لها عصر يوم أجهل ملامحه من شهر أكتوبر عام ألف وتسعمائة وستة وستين فى زنزانة التحقيق بسجن القلعة ، هذا ثأر لايبلى ، إنى والله لمتعقبه ، إذ، لمقتف أثره متى آخذ بثأرى وأنفض ماضايقنى أعواما ، هذا ما أثقل كاهل أصلى زمنا مديدا ، وهذا ماورثته عنه ، وانى لمطلعكم على الغتيت يوم القصاص ، لن أصفح الصفح الجميل عن الباغى الجهول .

لكم عانى جمال هذا الذى أنا صورته — إنى لأشهد له بالمثابرة ، وصون النفس عند الأذى ، فله ولى الرحمة وطيب العقبى ، انى حال محله ، متقن ماأتقنه ، التأمل والحنين والأسى على مافات وإدراك الألوان وتوليد اللون من اللون والزخرف من الزخرف ، وإبقاء الخط بلا نهاية وملاينته ومسايرته ، وهذا وعر ، الخوض فيه غير مأمون .

اهتز جواى لمرأى ظل لظل ، وامتزاج لون بلون ، كدت أفيض بمالا أدريه عند رؤية ملامح لوحة عتيقة على جدار صالة مخملية ، داخل بناء قديم فى مدينة حدودية ، هدنى التوق الى وريقات خضر بللها المطر الرذاذى فى ضاحية لم يطل مكثى بها ، ولن أطأها أبدا . هالنى ترقرق ضوء على مياه تجرى تحت جسر خشبى ، وبعث عندى عزف موسيقى نحاسية — صباح عطلة فى ميدان عتيق صغير مبلط بحجارة — رقرقة وسلاما ودعة فأنست فأمنت فهدأت ، فتبدد خوفى من المجهول لكن إلى حين وحننت الى أرض لم أرها ومروج من ضوء لم توجد حقا، فحق علىّ إغماض عينى والغوص عندى ، أما البهت فنزل علىّ لما واجهت نبتا أخضر شق طريق الوجود عبر صخر أجرد قاس .

عانقت الشفق ، والليل وماوسق ، وخضعت للضحى ، وركضت برجلىّ لما شقشق الفجر ودنا ولاحت ليال عشر .

فارقت المقاهى فى اللحظات الأخيرة لإغلاقها ، توسدت أبسطة المساجد ، افترشت باحاتها لندرة مأوى وفقدان مضجع ، سحت فى البرارى،، أوغلت فى المناجم ، تجاوزت المدى فى الصحارى ، وأغرقتنى النجوم فى ليالى القفر ، نمت فى الخنادق الرطبة ، وعلى مقربة من مياه القناة زمن الحرب ، وفوق قمم مغطاة بالثلوج الأعوام كلها ، نمت فوق بلاط قصور تنعى من شادوها ، وأسرة وثيرة ، ودعت الصحب والأحبة حتى المقابر ، نأيت عن الموت زمنا ونأى عنى ، ثم داهمنى ، دنا منى ودنوت منه ، فبدأ زمن احتضارى قبل تمام المدة ، وترددت حشرجتى سنوات طويلة قبل انتهاء الفترة ، جاهدت وأخلصت المحاولة غير أنى لم أدرك الكنه ولم أسبر أغوار اللب ، فلوجودى الصبر ولجوهرى السكينة ، ولمكنونى الدفين الحفظ وسلامة الصون واستحالة الفض .

عانيت بغض الإخوان ، والبغى ، وقساوة القلوب علىّ ، وشح الرحمة ، وشدة الغلظة ، والفظاظة ، والطعن واللعن ، كذا الخداع والغدر ، والخيانة والسعى ، والنميمة ، والزور والبهتان ، والكذب والمداهنة ، والنفاق والرياء ، وتشتت الشمل ، وتفرق الجمع ، وقطيعة الاخوان ، ومفارقة الألف ، وخراب العامر ، ونأى الديار ، وحزن الوحشة ، وغم الوحدة ، وبؤس الانقطاع عن الغير ، وتنغيص العيش وسوء المنقلب .. إن هذا وربى لكثير ، ان هذا وربى لطام ..

غير أنى ذقت طلاوة النشوة ، ولمست جوهر الجذوة ، تسلقت جبالا كردية ، وتمددت على شواطىء مغربية ، وطئت مواضع كنت أول من يدوسها منذ تكون الكوكب . تمهلت خطاى فى أزقة البوسنة والأناضول والأطراف الآسيوية ، خشعت فى ظلال مآذن استامبول ، أدركت بشارات الأبدية إذ تأملت سعف نخيل الواحات فى ثباته وعدم ميله مع الهوى أو الغرض ، ارتويت من آبار نادرة ، أنفقت جزءا من عمرى فى المدن الآسيوية ، تمهل خطوى فى المدن

الأوروبية ، جزت الأحراش الأفريقية ، تحملت برد الأصقاع السيبيرية ، إستغرقنى تدخين النرجيلة فى مقاهى البصرة العتيقة ، وهذا المقهى الدمشقى فوق جبل قاسيون ، دثرتنى ظلال الأسواق المراكشية ، وانتشيت فى مواجهة العمارة اليمنية ، كدت أهلك حزنا على نسمة ولت ، كوانى شوق الى صدى آذان سمعته فى صباى ، الى لحظة ذرفها وقتى ، وصبوت حتى كدت أنوح لسماع رفة يمامة ، رثيت لتبخر الندى بعد تعلقه يائسا بأطراف الوريقات النباتية ، خشعت لامتداد الظل .

إنى ياكرام راحل ، إنى ساع ، مهاجر ، مدبر ، فى فقد دائم ، لايطمئننى وصول ، ولايسعفنى إقلاع ، لايهدئنى حنين مادمت عاجزا عن استعادة شيء مما راح ، خاصة تلك النسمات التى هبت ولم تعد .

فيا من إليه منتهاى ، يامن به ثقتى ، يامن سيقطعنى قبل أن أبلغه ، قبل أن أدركه ، يامن تعلق به رجائى ، يامدى سؤلى ، إنى متأهب ، لى المسعى وعندك المقر والمنتهى ، يادهر أن ليس للإنسان إلا ماسعى ، أما إذا استعصى علىّ فهم هذا التراث كله ، أو التفريق أو التمييز عند اشتداد التنوع والكثرة ، فعندك المحط وشرف الغاية ، ومنى تجدد المحاولة .

عند هذا الحد .. انتهى الإشراق الخاطف ، بعد أن أخذنى مما حولى وسلبنى منى ، مع أنى قادم إلى هذا الكون لتوى ، وعلىّ إخفاء دهشتى مما يمر بى أو يعرض لى ، علىّ استئناف ماكان عليه سلفى ، من اكتسيت بجسد يماثل جسده ، كذا ملامحه ، حتى أن صاحبا له من أبناء هذه البلاد دنا منى ، مال علىّ ، لم يلحظ التغير والتبدل ، لم ينتبه الى انى قادم لتوى الى هذا الكون .. قال إن جميع أعضاء الندوة النقاشية مدعوون الى العشاء عند نائب برلمانى ، أجيبه بنفس نبرة جمال ، نفس القدر والمعنى ، أعود لأصغى ، أبدى الود للود ، أنصرف مع جمع أجهل معظمه .

الليل فى أوله ، نجومه قصية ، ألمح بيت النائب ، قاعة منمنمة فسيحة

ونقوش تؤطر الرؤية ، وعبق نبات ينعنع الفراغ ويلطف الهواء ، أعرفه من زمنى الأول وعندى منه بقايا عبق لايروح ، يدخل أربعة رجال أشداء يحملون صينية فضية مطعمه بعروق ذهبية، أنظر الى أغطية رؤوسهم الحمراء، أرى والد جمال ــ والدى ــ يمسك علبة ورقية يحتفظ داخلها بطربوش له به عناية ، يمسح قماشه الخشن ، يسوى الخيوط السوداء الحريرية المتدلية منه ، تلك رؤية عاينها أصلى ، ولمحات بقيت معه كان لابد أن يذكرها فى هذا الموضع ، فلما لاحت عندى دققت فى الملامح ، المرة الأولى التى أرى فيها الوالد الراحل ، غير أننى لم ألمح إلا الهيئة العامة ، الحدود الخارجية لوجوده الحسى ، رافق ذلك هبوب حزن ثاقب ، يصعب علىّ تحمله ، ليس معه إلا النوء ، والميل ، وضم ذاتى الى ذاتى ، هذا مقتبلى ومفتتحى الكابى، إنى شجى، إنى كمد، إنى مقرور .. إنى ظامىء الى روح وريحان وجنة نعيم .

يبدأ المنشد المغربى ، هذا شعر ملحون ، الجوقة تردد أنغاما أسيانة ، فيعمق شجوى ، أتمايل ، ليس من طرب كصحبى أولئك ، إنما من تعب وضنى ، يتدفق النغم ، يتقلب ، يستجيب البعض ، يدقون الطارات ، تتمايل قاماتهم فى رقص خشونى ، تتصادم الأصداء ، تتصارع النغمات ، تقرع الطارات ، يهزنى ذلك غير انى لاأشارك ، أبقى مقعيا ، مسدلا على ملامحى ابتسامة لاجذور لها ولاصدى داخلى ، فحالى كما قيل فى المعنى :

لايــؤنسك أن ترانى ضاحكـــا
كم ضحكـة فيها عبـوس كامـن

مندمج فى الظاهر ، قصى فى الباطن ، حان ، مترقب ، داخلى فى قبض ، أمرى فى عزلة ، مغبوط الواجهة ، مشوش الجوهر ، انى دهش ، أحمل العمر المنقضى لجمال ولم أعشه ، إسمه إسمى وتراثه تراثى ، ومحنته محنتى، فماتغنى النذر ، إذن .. مالى كأنى مبتوت ، منقطع عما قبلى ، وحيد وأنا فى جمع وصحبة وغناء وأنس ورجع أندلسى بعيد وشجا .

يدخل أربعة من خدم الدار ، يمدون الشراشف ، يميل صاحب من طنجة ، ينصحنى ألا أشبع من الطبق الأول مهما بدا مغريا ، بعدد المفارش ستكون الأطباق ، أحصاها فإذا بها أربعة ، يغمز ، يكرر النصح وهو لايدرى من أمرى شيئا ، لايعلم أن هذا أول زاد فى الحياة الدنيا ، تستمر الموسيقى فتهدهد أساى ، تخفف من فزعى ، ورجفتى ، وعند انتقال النغم من مقام الى مقام يجيئنى الأمر كى أولى البصر تجاه باب القاعة المحفوف بنقوش جصية رهيفة تتخللها مربعات صغيرة من خزف لامع ، أصفر وأحمر وأزرق وأخضر ، نعم عمل الصانعين ، لماذا دعانى الداعى ؟ لايلتفت غيرى إلى الباب ، لايشخص إلاى ، غير أنها عندما لاحت وبدت ، عندما ظهرت ، عندما تم اجتيازها الفراغ ، شخصوا أجمعين ، لم يتوقع ظهورها إلا أنا، لم يتأهب لها سواى ، نعم عقبى الدار ، يرون فيها الأنثى المبهرة ، قوية الانبعاث والحضور ، نافذة النظرات ، هكذا نظروا ، هكذا فكروا ، غير أننى لم أبح ، لم أفش ، لم أفض المغاليق ، فلن يصدقنى صاحب ، ولجت المكان فنشرت حضورها محتويا كل حضور ، خطت حتى حطت فوق مقعد دائرى صغير بلا مسند فى صدارة القاعة ، لم ألحظه إلا بعد استقرارها واستوائها ، أطلت عبر مشارف وجنتيها ، مالت الى الأمام فمال مكنونى ، ليس الى نقطة محددة تنظر ، ليس الى شخص بعينه ، ردتنى عيناها من مكانى السحيق ، لى فيهما حظ وهوى ، محلها الزمن العتيق ، تنظر الى اللب والجوهر ، الى الوجود ذاته ، تبسط يديها ، كل أصبع تلامس الأخرى . تدسها بين ركبتيها المسدل عليهما حرير أخضر به مس من ذهب وفضة ، تطلعت ثم تولت جهتى ، من شاء فلينظر ، من شاء فليطرق ، أما أنا فلا خيار ، امتثلت ، استسلمت لعينيها النضاحتين بالهوى والسر ، لونهما غير يقينى ، حدقتاها مرفأ للكافة ، شفتاها ذواتا ارتقاب ، وجودها واثق ، فى كل لحظة يبدى جديدا كان مستترا ، يفصح عن خبيئة مستعصية ، يتطلع إليها الجميع حتى وإن تباعدوا عنها ، ينظرون دائما كما تطلعوا أول مرة ، ترحل العيون عنها ثم تعود إليها ، فمنها الألفة ، ولها المودة ولى الترقرق وشغل قلب ، استوثقت ماخمنته قبل ظهورها ، كدت أنفلت وأتخذ طريقى فى الوجود سربا ، أوشكت على الإفشاء لكننى غالبت

فكتمت فكظمت ، هى من زمنى الأول الراحل القافل فلا أمل فى عودة ، جاءت تؤنس وحشة بدايتى ، تذب عنى القفر ، لحظات معدودات تتجلى فيها ، تنبىء بقربها منى ، تدفع برائحة أعطافها إلى حاسة شمى فأتهدهد ، فى الظاهر تحيى الضيوف ، وفى الحقيقة تشد أزرى ، وتقوى أمرى ، فإن قلتم إنها من هذا العالم صدقتم ، وإن قلتم إنها ليست منه صدقتم ، وإن قلتم إنها تعرفنى صدقتم ، وإن قلتم إنها تجهلنى صدقتم ، وإن قلتم إنها زائلة فأنتم على حق ، هى الأصل والظل معا .. هى نعم ولا ، هى الصوت والصدى ، أما إذا تعذر العلم فاحكموا بغلبة الظن ، غير أنى لن أبوح أبدا ، لو أفصحت لثارت شواغب لم أتهيأ بعد لملاقاتها ، انى شاخص وندى الوجد يقطر علىّ . راحل الى طاقتى النور والحياة ، الى عينيها ، ألثم مابينهما ، أطوف بأهدابهما وأسعى ، أقبل مابين شعرها وبشرتها ..

تحول البصر الىّ ، فامتثل وأتأهب ..

« أخاف عماء البصيرة »

تجيبنى باللحظ ، بالنظر ..

« أخشى الجهل الأتم »

تلمح الى سبل العلم

« أخاف العجز »

تنبهنى الى القدرة

« ماذا عن الصمم ؟ »

تكشف لى الدرب الذى تسلكه الهمسة ، ومستقر الصوت ، ومصير الصدى ..

« إنى مقر بخلوى من الجواب » .

تنبهنى الى جوهر الخطاب ،

« وماذا عن التيه ؟ » .

تشير الى الدروب المؤدية .

أنا الآن بلا تاريخ أعرفه ، إسمى جمال ، رسمه رسمى ولست هو .. تشير

بتلبية العلامة ، بالرحيل ، بعدم الاستيطان ، فالتجدد فى الاغتراب ، عندئذ يلتئم الشمل ..

وكيف أختار ؟

تدلنى على المعنى ، الإختيار هو الإنسان ..

أصرح بخوفى من العنة ، تنكحنى برضاب فرجها على ملأٌ فأطيب فأنتشر فأجوز ، أدرك الهوية ، عندئذ لململمت شواردها ، عرفت فيها قبسا من كل أنثى مرت بجمال ومر بها ، إطراقتها لمحبوبة قديمة مضت بها السبل ، وميل جسمها منه فيض أمومى أغدق عليه من أعز الخلق وأقربهن إليه ، أما لحظتها فلبُنية رقيقة حنت عليه ورقت له وبعثت فيه نشورا ، غير أن الأسباب باعدت مابينه وبينها ، ضمة شفتيها فيهما ملمح من أنثى رآها صدفة فى حديقة ورغبها لكنه لم ينل ، ماأعظم الرغبة عنده، وماأقل تحقق الغرض، أما دعتها واستقرارها فلحظة سكونية لطفلة هيفاء رقيقة حركت عنده مشاعر أبوية .

هل أنا ملاقيها مرة أخرى ؟ لاأعرف حتى اسم صاحب الدار ، إنما أنا ضيف ضمن ضيوف كثر .

تقوم فجأة .

يقوم معها شهيقى ، تنهض فينهض قلبى ، تمهد لغيبتها ، لاختفائها من مجال النظر ، غير أنها رعت الوداد فى الوضع الذى حلت به وأينعته ، فى وقوفها تحية وإيماءة مع أنها لم تبد علامة . عند مرورها بقربى ، لحظة نفاذ عطرها الى حواس أنفى، لحظة إشراقى على ضواحى عبيرها، تلك لحظة تيقنى من الهوية واستقرار حالى ، عند مرورها تسقط فى حجرى ورقة صغيرة ، مضمومة ، كأنها رمتها فى بئر قلبى ، أقبض عليها بيدى ، لم يلحظ أحدهم ، يتم خروجها ، يكتمل خروجى من الجبر إلى الإختيار ، من الحجر الى السراح ، من الضيق الى السعة ، فكان انتظام حالى بعد مثولى فى حضرة امرأة ، كما كان محل تكونى رحم امرأة ، وما سبيل رقى مطلع امرأة ، وماسيخفف جهامة أيامى رحيق أنثى ، ومن يجدد دخائلى حضور امرأة ، ومن سيؤرقنى امرأة .

يرتفع النغم الأندلسى إرتفاعا وهاجا ، دافقا ، ممهدا للغيبة ، كأن لانصرافها مقاما بعينه خصت به هى ، نغم يدركه هؤلاء العجائز المعمرون ؟ عازف الكمان حاد الملامح ، عازف القانون راسخ المقر ، عازف العود المحنى ، الضام ، الرءوم ، ضابط الإيقاع المتمايل ، الطرب ، أما خامسهم المنشد البدين الممسك بطبلة صغيرة ، دقيقة ، مزخرفة بدقيق الصدف الآسيوى والعاج الأفريقى فلابد أنه عالم بالسر إذ تطلع الىّ ، أنامله تلمس حواف الطبلة بحكم العادة لايستخرج أنغاما ، حسبه ذلك وكفى ، أتحرك ، يتقلقل مجلسى حتى أندس بين الصحب الجلوس ، ملاصق لهم غير أنى ناء ، وكثيرا مايكون الاغتراب فى الاقتراب ، أبسط الورقة والعيون كلها نائية ، أقرأ ماخط بالقلم الكبير ..

« ياجمال قم الى أوانك ، اسع الى حيث لاأين ، إمض الى الأحوال ، ستتواجد بها فى وقت واحد على اختلافها ، فإقامة وسعى إلى أنيتك وإطلالة على ماضيك .. اشرع فالمدى واسع والمجاز وعر .. »

العجيب أن هذه السطور تقرأ من كل ناحية على السواء ، كلما قلبت الورقة انقلبت الكتابة لانقلابها ، فعلمت أن فى الأمر سرا جللا ، أمتثل على الفور ، أعتذر للإخوان متعللا بقصر وقت نومى ، بتعبى ونصبى ، إستجابوا لى ، أسف صاحب الدار إذ أنصرف قبل أن أذوق طعامه ، آثرت الانصراف بمفردى رافضا أى صحبة ، مع أنى مغترب حتى القرار ولاعلم لى بالطريق .

عند المنعطف توقفت، استدرت ، ودعت البيت بينما قلبى يحدثنى أننى لن ألج بابه أبدا . وأننى مادخلته إلا لأراها ، لأتلقى الأمر والبشارة ، أى حيز يشغله وجودها الآن ؟ الى أى الجهات تسدد البصر ؟ منى لها السلام ، لها الترقرق والوداد ، ولدهرى العتيق الحنين الممض ، فما كان منه لن يرجع أبدا ، أنا ذؤابته ، المحكوم عليه بالنفى ، بالسعى بين خلق لاتربطنى بهم صلة ، إنى قابل ، إنى ماض الى ماكان ، البرد يثقلنى فالشتاء مكتمل ، أحدق فى الليل ، لم أر ليلة كهذه قط ، أكثر نجومها ذوات أذناب ، كأنها نيران عساكر فى حرب ، حيثما وليت بصرى أراها ممتلئة من ذوات الأذناب تلك ، أكثرها إلى جهة الشرق ، ثم صار

الجو كله يشتعل فلا يطرف نظرى طرفة إلا يرى عددا لاينضبط ، قلت ماهذا إلا لأمر جلل سيكون ؟

لم يعد الوجود خاويا ، أما داخلى فممتلىء برسوخ صارم حرك علىّ غوامض الأحاسيس ، أنادى من حيث لاأعلم ..

« أدخل .. إن لك فى اليباب سبحا طويلا .. »

فبدأت !

* * *

حال الوداد

« قل لا اسئلكم عليه أجراً الا المودة فى القربى »

قرآن كريم

ماأعز الآثار المندثرة لاسيما عند فقدان الأمل من لقاء ، ومن لم يرحل والحنين ملء فؤاده ، لم يدر كيف تفتت الأكباد ، إنى مواجه فى حال الوداد لحظات منقضية لها الخير المحض ، والعطف والرحمة والرحب ولين الجانب والشفقة والمداومة ، فيه بعض من طفولة أصلى وقبس من شوارده ، عند ولوجى سأفقد ظلى ، هذا نذير ، يقابله حال الوداع عند أقصى الطرف الآخر فى ترتيب الأحوال ، لن أطلع إلا على مابقى معه هو . فلو أنه نسى موقفا ، أو فنيت فى خزانة حواسه رائحة ، أو تاه إيقاع صوت ، أو بلى سرور لحظة فإنى غير مطلع ، المنعدم عنده مفقود منى ، كذا عرفت أننى سألزم حدا لا أتخطاه ، فإذا شرعت فى تجاوزه أفلت منى كل نبأ ، فماتغنى النذر ، فتول عنهم يوم يدع الداعى إلى شيء نكر ، أتأهب ، وهنا قرىء فى مسامعى ..

تأتى الأمـــور وأنت منتبـــه لهـا
وإذا مضت فكـــأنها أحــــــلام

مازلت أنتظر الإشارة ، ثم تُلى فى مسامعى مانصه ..

تلقيـــن

إنك ماض إلى الأيام المولية .. إلى بدايتك ، فهل أنت ملم بمعناك كطفل فى اللسان العربى الذى ستصوغ منه خواطرك ومعانيك ؟

أبدى النفى .

أصغ أذنى ، سترى أصلك طفلا ، وطفل يعنى البنان الرّخص ، والطفل هو الصغير من كل شيء ، وهو السحاب الصغار الذى لايصمد أمام هبوب الرياح ، ويعنى أيضا الحاجة ، ياغريبا لم يزل وسيظل . أعلم أن الطفل كلمة تعنى حالة الشمس عند غروبها ، تعنى أيضا الليل ، يقال طفلت الشمس أى همت

بالغروب ، وأتيته طفلا أى ممسيا ، وأتيته طفلا أى بعد طلوع الشمس ، طفل تعنى أيضا دقيق الندى المتكون فى الفجر الباكر على رقيق الأزهار . هل أدركت ؟

أومىء ..
إذن .. أذكر مايناسب هذا التلقين .
أقول بعضا مما يلقى فى معارفى .
الأول والآخر معا ، البداية هى النهاية ..
دنوت ، لكن هذا ليس بكاف ..
أتلو متمهلا وسكون يهدئنى :
« ومن نعمره ننكسه فى الخلق أفلا يعقلون ؟ »
يصيح لى الهاتف :
جز إلى حال الوداد .

رقـــائـــق

أول ماأراه، أول ماتقع عليه عيناى ، أول ماينطبع فى مخيلتى ، أول مايتلقانى ، ضريح السيد والمولى ، الحبيب الحسين ، مثواه القاهرى ، أراه فى أطواره المختلفة منذ بدء تشييده ، أرقب ظلال الغروب على الباب الأخضر فى الزمن الفاطمى ، أود لو نفضت كثيف الغبار المتراكم على الأفريز الخارجى للنافذة القبلية فى الحقبة الأيوبية . أشفق على البناء من شرخ يسرى خفية فى مرحلة مملوكية ، تلك مئذنة سامقة تقوم ، وهذا مظلوم يطوف بالضريح راجيا الإنصاف وحسن الملاذ ، إمرأة تقبل العتبة المؤدية ، الأمير المهيب عبد الرحمن كتخدا يتقدم جمعا من قوم مهيبين ، يحفرون موضع المقام للتأكد .. فقد وقع خلاف ، أحقا دفن الرأس الشريف هنا ؟ ، أتمنى لو أبلغهم ماأعرف ، غير أنى أردد ، وماذا يعنى التأكد ؟ لكم المعنى وصدق الرمز ، هذا حضور المسجد كما رآه الوالد أول مرة ، مضمخ بعبق العشرينيات ، فلكل حقبة أريجها ، وسماتها . ذلك لون الكساء

الأخضر كما رأيته فى صباى ، رائحة أعرفها ، تنبعث من الحصر ، من الأبسطة الحمراء ، من أخشاب السقف ، من هدوء الضوء المتمهل ، من زوايا مابين المنبر والجدار المكسو بالرخام ، من آثار السجود والتضرع واللجوء ، رائحة هى مجمع لروائح شتى ، لاتغيب عنى إلا لترجع ، إذ تنبعث عندى ينتفض زمن بأتمه وتتضح قسمات ومعالم دنيا وتفاصيل واقع ، حق قول جمال أن عنده بالروائح وثيق صلة .

أقف متطلعا ، رأسى إلى أعلى فمما أواجهه شامخ ، ضريح الحبيب هو البؤرة والمركز ، منه ينبعث المعنى ، ومن جواره تتشعب الطرقات ، أراه من كافة جهاته فى وقت واحد ، أنفذ حتى جذور البناء الضاربة فى عمق الأرض ، أتبينها ، أتفحصها ، أشفق لما آلت اليه من بلى ، غير انه باق ، كل ماحوله تهدم وقام غيره ، إلا هو ، البيوت ناحية الغرب زالت ، وتلك العمارة الحديثة لن تدوم أبدا ، أما المعنى فلا يفنى ، بعد اكتمال النظرة ودقة المطالعة ، أشد الرحال إلى الحارة التى احتوت طفولتى ، لم أولد بها ، إنما بها وعيت ، أجيء إليها من النواحى الأربع ، من كافة المنافذ والشوارع التى يجب اجتيازها ، من شارع أم الغلام ، من طريق المشهد الحسينى ، من حارة الوطاويط ، من درب قرمز ، من ميدان بيت القاضى ، هذه الواجهات لطالما انعكست فى بؤبؤى عينى ، وهذا المقهى لطالما ملأ سمعى ضجيجه ، أما دكان « العسال » فكم توهجت لحظات الصبا بما يعلقه من لعب فى الأعياد ، منه أصداء الألوان الزاهية ، ومذاق الحلوى ، ورائحة السجائر المتبقية فى صناديق الورق المقوى ، كان أصلى يعيد تشكيلها فيخلق منها بيوتا وعربات وأشكالا شتى . أمر بالمقهى المجاور ، أبوابه المرتفعة ، ساحته الفسيحة ، مناضد رخامية ، فناجين قهوة ، نراجيل فارسية ، مقاعد خشبية محفور على كل منها « عفيفى » إسم صاحبه ، ونوافذ عالية للتهوية وجلوس شتى .

هذا ضريح سيدى مرزوق ، أحد تلاميذ المجاهد ، من ولد بمدينة فاس كما جئتها أول مرة فى غربتى المقدرة ، من جاور بمكة وتتلمذ بالعراق ، وصد فتنة

فاطمة بنت برى ، ثم جاهد بمصر حتى قضى بها ، إنه سيدى أحمد البدوى وأمره ذائع معروف .

عند المنحنى أتمهل ، عند اللافتة الزرقاء ذات الحروف البيضاء أتوقف .

« درب الطبلاوى »

أمضى ، البيوت متجاورة ، هذا قديم وذاك أحدث ، بيت تبرز جدرانه نوافذ وشرفات واجهاتها من خشب مشغول ، من هذه الواجهات صيغت صور شتى فى وعى أصلى ، وأثار اهتزاز ستارة مسدلة على إحدى نوافذها أخيلة وصورا ، أمام بعضها خفق قلبه وهو يلتقى بمحبوبة تعلق بها من تلك الناحية ، عند هذه الخطوة قرر ، وعند هذا التمهل انثنى ، وهنا أسرع ، أول مايعبره عند خروجه إلى سفر ، وآخر مايراه بعد إياب ، وذات صباح لم يكتمل نوره ، تساءل لحظة خروجه من السراح إلى القيد محاطا بالعسس ، محروسا بهذا الضابط الغتيت ، مقيدا ، « هل سأراها مرة أخرى » ، وعندما دنا الحين فارقها إلى مأوى آخر ، فبدأ معه حنين المغترب ، ليس إلى مكان بعينه ، ولكن إلى عمر بأكمله ، وأيام مستحيل كرّها، وضنى ، جاءها وقتا بعد وقت ، متحسرا ، ليس على أزمنة ولَّت وانقضت وانقطعت ، ولكن على أمكنة يعز قصدها، فلا البيت الذى أقام به يقصده، ولا الأم التى كانت تتهلل لرؤيته منتظرة، ولا الوعد بالراحة بعد عناء يوم طويل ، العودة إلى المكان لاتعنى استرجاع الزمان، مامن زمان بعينه إلا بالمكان ذاته وبمن أقاموا فيه ، شريطة انعدام التغير، وهذا عين المستحيل ، لن تخلف المحاولة إلا حسرات .

هنا يتشعب الدرب إلى شعبين ، فواحد إلى حيث أقام حولا بعد حول ، أما الثانى فيؤدى إلى ماعرف بين أبناء الناحية بالخرابة ، مع أن المكان مسكون ، ثمة بيوت قديمة تحيط قصرا مهجورا تتردد حوله أقاويل شتى ، منها أن أحد ملوك المحروسة ولد به ، وأنه ظل عامرا سنوات طويلة بسكنى أمراء صالوا وجالوا وامتطوا صهوات العاديات صبحا فالموريات قدحا ، ثم أحدق بهم الدهر فولوا مدبرين ،

عارف بالتاريخ يقول إنه استخدم فى زمن آخر مقرا لضيوف حكام مصر ، من هنا سمى « المسافرخانه » كما عرف بين القوم ، وانى لمحدثكم عن هذا كله بما تيسر أن سنحت الفرصة وسمح الاذن . أما الآن فأمرى فى عجلة ، عندى شوق إلى هذه الغرفة التى آوت أصلى زمنا ، فيها صباه الذى ولى بددا ، آمل الوقوف عليه لأعرفه فأعرف نفسى ، فمعذرة لو اختلط الأمر قدرا يسيرا ، عند هذا الحد ينعطف الشعب الأيمن فجأة ، هذه منازل ثلاثة ، رقم (١) طوابقه خمسة يعرف بيت الشيخ حسين آخر من امتلكه ، هنا تقع رؤية خاطفة ، هذا سلم يحده سور من حديد مفرغ ، فوق الدرجة الأخيرة يقف الشيخ حسين ، قصيرا ، بدينا ، يطالب بأجرة الغرفة المتراكمة . أما المخاطب فوالد أصلى ، غير أننى لم أره ، كأن السلم معلق فى فراغ ، يبدأ من لامكان ويؤدى إلى لاشىء .

تلك هى الصورة الوحيدة المتبقية فى وعى أصلى عن مالك البيت ، أراها معزولة عما قبلها ، عما بعدها ، ومأأغرب ماسأطلع عليه ، فكثيرا ماسأرى اللحظات متباعدة . إلى الجهة البحرية بيتان متلاصقان ، لايعلو أحدهما عن الآخر ، طلاؤهما أصفر ، نوافذهما متشابهة ، المصاريع خضراء ، إلى الشرق سور من طوب لبن ، إنه الحد الخلفى لفناء قديم ، مدخله من ناحية شارع قصر الشوق ، يصل البيت رقم (١) — مرامى وغايتى — بالبيتين الآخرين ، العطفة مغلقة لاتؤدى إلى حارة أخرى طريق مسدود ، أضفى ذلك هدوءا وسكينة ، فالغرباء لايعبرون ولايدخلون ، لايبدو فى الأغلب الأعم إلا سكانها ومن لهم صلة ، أما الباعة الجائلون فأمرهم معروف ، عم محمد بائع الصحف . وساعى البريد ، ورجل مغربى ، يفتح الكتاب لينبىء بالمجهول يجىء مرة واحدة فى السنة قبل خروج الحجيج قاصدين مكة ، أما القادمون من الريف للاحتفال بمولد سيدنا

الحسين ، ومولد سيدى مرزوق الذى يعقبه ، فلهم ترتيب ، وأمرهم معروف ، يفترشون أرض الحارة ، يبسطون الحُصر ويرتبون الأمتعة ومواقد الغاز ويصفون الأكواب والنرجيلات ، هنا يكتشف الغريب بسهولة ، ظهور ملامح غير مألوفة توحي بالاستفسار عن الهوية والمقصد . رقم (١) يقول إلى جهة الشرق ، فوق جزء من الموضع الذى أقيم فوقه بيت باجنيد الكبير زمنا ، هنا وقفت على أمور تخص نشأتى الأولى ، إذ أشهدت المكان فى الحقب السحيقة ، قبل ظهور اليابسة والماء والطير والشجر والتراب — ولا يمكن للتراب أن يجىء إلا بعد اكتمال قدم — والأكمة والأحراش ، كذا الإنسان على الدوام ، رأيته بحرا قبل أن يصير يابسة ، فالشىء يحوى ضده ، والشىء ينقلب إلى نقيضه ، فلا يدوم حال أبدا . تعاقبت الرؤى فرأيت الظلال كلها ولم أر أصولها ، رأيت الحشائش التى نمت ثم ديست ثم استقامت ثم ذوت ، رأيت النقاط التى تكسرت عندها الرياح وحادت ، أشهدت مالاحصر له ، ولأن مذهبى فى هذا التدوين هو الاقتصار والاختصار ، لذا اكتفى بما عرفته قبل دق أساسات البيت مباشرة .

هذا بيت باجنيد الكبير ، سور محيط ، وأشجار نادرة ، كل منها لاتشبه الأخرى ، ونباتات صبار من بقاع شتى تثير عجب الناظرين ، وأخرى يعد نموها فى هذا المناخ قدرة وابتكارا ، هذا بناء من طابقين يقوم فى عمق الحديقة لايلوح منه جزء لعابرى الطريق ، مما قيل أن قاطنه لو أغلق الباب دون الخلق لاكتفى سنة كاملة ، فثمة بئر مياه عذبة لذة للشاربين ، وطاحونة ، ومخزن للمؤونة ، قسم من الحديقة يزرع خضرا ، ومقبرة مكللة بألواح الرخام .

هاهوذا باجنيد الكبير ، عجوز ، نحيل ، يرتدى عباءة بنية اللون ، منذ

وفاة ولديه لايدخل على أحد ولايزوره إنسان ، يخرج صباح كل يوم ، يجلس أمام البيت فوق نتوء حجرى ، يستند إلى عصاه ، يمد البصر ، يضيق حدقتيه عند مرور أى إنسان أمامه ، كان الدرب وقتئذ يفضى إلى ناحية قصر الشوق ، يطيل التدقيق ثم ينثنى ، يتمتم بصوت يمكن سماعه ..

« لا .. ليس هو .. »

وعندما غاب لم يلحظ أحد فى البداية ، نما الهيش فى أحواض الزهور ، سكنت الوطاويط قمم الأشجار ، ترددت صرخاتها القصيرة الثاقبة فى الليل ، مالت شجرة السرو الكبيرة ، قال أهل الدرب إن نفرا من الجن نزلوا فيه ، وقبل اكتمال القرن بعامين ، ظهر غريب راح يدخل ويخرج ، قيل إنه يمت إلى الأسرة بصلة .. باع الأرض بماعليها من نباتات نادرة ، وأعمدة مرمرية ونقوش فسيفسائية وأسقف خشبية ملونة ، وأحواض ومرايا ضخمة مذهبة الأطر وأثاث نادر عميق ، اشترى التجار البيت وماحواه وماتبقى منه بثمن بخس ، وتوزعت التحف والأشياء النادرة على جهات شتى ، منها مااستقر خارج البلاد ، وجاء عمال الهدم فأزالوا ماتبقى ، وردموا قنوات المياه ، فكأن الأشواق لم تتردد يوما بين جنبات هاهنا ، وكأن الأرض لم تدب فوقها قدم ، ولم يودع قوم بعضهم بعضا عند سفر ، كأن ماكان لم يكن . فكان الحال كما قيل :

أين الذين بنوا فطال بناؤهم ... وتمتعوا بالأهل والأولاد
فاذا النعيم وكل مايلهى به ... يوما يصير إلى بلى ونفاد

شخص مجهول رجا مصلحة التنظيم إطلاق اسم باجنيد على هذه العطفة المتوارية المنسية . تردد أنه رشا أحد الموظفين فوقعت الاستجابة ، فوق الأرض قامت البيوت الثلاثة ، وسدت العطفة فلم يعد الطريق سالكا يفضى .

أرى تعاقب السكان ، مجىء وذهاب ، إقامة ونداء إغتراب ، أرى نعشا مفتوحا يحف به عدد من الناس ، ينتظرون نزول قوم بجثمان ميت لم أعرف هويته ولم أعرف هؤلاء ، ولم أدر لماذا أشهدت هذه اللحظة ، وماذا يعنى ذلك ؟ ، أصل إلى هذه الحجرة فوق السطح ، آخر من نزلها ، واستظل بسقفها بائع عطور جوال يطوف يومه حول ضريح سيدنا ومولانا ، بعد ذهابه بقيت زمنا خالية ، الشيخ حسين أوصى بعض السماسرة وأصحاب المقاهى وعلق لافتة عند دكان العسال ، ولم يجىء أحد ، فى صباح جمعة باكر جاء إلى الحجرة ، فتح النافذة والباب ، تلا آيات كريمة ، وأشعل بخورا تيمنا وتفاؤلا ، فى صباح الجمعة التالى أخبرته ابنة أم هدهد الممرضة عن نفر صالحين يرغبون فى استئجار المكان ، قَبِل على الفور واستبشرا خيرا .

هاهى ذى من كانت أما لأصلى ، من حملته وهنا على وهن ، وحنت وقلقت ورعت . تدخل الحجرة بقدمها اليمنى ، هنا سيكون مأواها ومعاشها وستمضى أيامها، الضوء شرح صدرها، والهواء يسر أمرها ، أما السماء فقريبة صافية منبسطة ، هذه أمى كما قضى الأمر ، ملامحها مستكنة ، صبورة ، لاتنبىء عما مضى منها وما سيجىء اقتربت فملت فحننت فتمنيت لو باستطاعتي تخفيف هذا الشرود الحزين فى عينيها، حضورها أمومى، يضفى علىّ دعة حتى أنى استدعيت بالخاطر أمى فى زمنى العتيق ، كدت أتملى منه وأتمكن ، غير أنه أقصى عنى ، هذا غير مسموح به ، إنها تتأمل الغرفة راضية ، تتجه إلى النافذة لترى ماستقع عليه عيناها زمنا لايعلمه إلا رازق الطير . أمامها فراغ ، كل الأسطح منخفضة ، لايمكن التلصص من قريب أو بعيد . النفس يسرى مرتاحا عندها ، انقضت العتمة ، والرطوبة ، والخوف الليلى عند تأخر أحمد ، غير أنها تذكر أم هدهد فتأسو ، فراقها يعز عليها ويصعب ، جارة طيبة ، رعتها وشالت عنها الهم أيام

مرضها ورقادها ، هى الغريبة التى لايطل عليها من الأقارب أحد ، رعى الله إبنتها ، وفقها إلى زوج صالح ، وأبعد عنها أولاد الحرام ، خاصة أنها تخرج إلى العمل . وتخالط القبيح والحسن ، عند خروجها بصحبة أحمد لزيارة مثوى الحبيب شهيد كربلاء ، ستطلب العروج على أم هدهد ، إنها وحيدة ، بمفردها هنا ، بمعزل ، مامن قريب قريب إلا الشيخ قبيصى ، إمرأته الطيبة ، غير أن بيتهما ناء ، هناك أقارب يسكنون قرب القلعة لكنها لاترغب زيارتهم ، للنساء فضول عظيم ، يسألن ، يدققن ، يستفسرن عن مأكلها ، عن مرقدها ، عن مدخرها ، يبدين الرثاء وفى أعماقهن الشماتة ، لأنها ستزورهن فلابد من رد الزيارة ، لوجئنها لن تجد مقعدا أوحشية ليجلسن عليها .

إنها تقعد فوق الحصيرة المطوية ، لم تفردها بعد ، على حجرها كمال شقيق أصلى ، لاأتمكن من رؤيته ، إذ أن جمال لم يحتفظ بملامحه ، أرى أطفالا كثيرين فى وجه واحد ، أرى أخيلة ، ملامح شفقية ، غروبية . لاتفصح عن قسمات ، خليطا من رؤى بعيدة وأوصافا ترامت إلى سمعه فى مراحل مختلفة من العمر ، رحل كمال عن الدنيا وأصلى دون الثالثة ، يمر الطفل بعامه الأول والثانى والثالث ، بدون أن تعلق بوعيه شاردة ، أو محسوسات تدع أثرا ، ربما بقيت ظلال باهتة ، ربما يترسب عند القاع البعيد ملمح ، أو يخفق نبض واهن مشيرا إلى ذكرى ، قيل عند أهل العلم والدراية أن هذه الفترة تدع آثارا غير هينة ، وأن شأنها جلل ، فيما بعد كان أصلى ينظر إلى ولديه مليا عند مرورهما بتلك السن ، يقول لخاطره ، هذا عمر لن يخلف عندهما شيء ، ربما تبدو الأطياف فى الأحلام أو الهلوسات ، أو عند الغفو وعبور الحد المتميع ، مابين النوم واليقظة ، لم حدد أصلى الفترة بسنوات ثلاث ؟ ربما لأن أقدم صوره ترجع إلى عمره وقتئذ ، إذن .. ماأقدم صورى

ومكنونى ؟ إلى أى حقب تمت ؟ هذا مالن أقدر على البوح به ، فما بين جهلى وقلة حيلتى يتأجج ضيقى وتسقى غربتى من معين لم يكن فى خطتى أو حسبانى .

أرى كمال فى جملته ، ملفوفا بخرق سود ، تخشى الأم عليه شر العين ، أبيض الوجه ، مكتمل الصحة ، مع أنه لم يذق الشمس طويلا ، أما حليب ثدييها فكان شاحبا شحيحا ، خاصة عند مرضها ، كان جميلا ، متوردا ، حتى أنها أخبرت القوم أنها رزقت بنتا وسمته إسم أنثى راح منى ، حتى امرأة الخال وأقرب الأقربين لم يعرفوا أنه ذكر ، كانت خشيتها العظمى أن يغرب كمال ، أن ينطفىء نجمه ، أن تسقط ورقته كما هوت ورقة خلف ، خلف أول فرحة بكر لم تتم ، له الرحمة يوم التناد، مضى طفلا ، له الجنان والعفو من السؤال والاستفسار عن الذنب ، هاهى ذى تضم كمال ، تقبله ، أحدق وقد شب عندى فضول محوره ، ما الباعث على هذه القبلة بالذات ؟ تلك القبلة المفاجئة ؟ ماموقعها من الزمن ؟ كيف تلقاها كمال ، أهو حنان دافق ، أم خشية مفاجئة ، أم روح وريحان وجنة نعيم ؟ .

هذا مالن ألقى الإجابة عليه ، حتى وإن حرك عندى هفو الوداد ونسيمه ، هنا أنبئت أننى لن ألاق أخى كمال إلا فى هذا الحال ، فعظم انتباهى ، هاهى ذى الأم فى زمن متقدم ، بعد أن نال منها طول السفر ، وصعوبة الرحلة ، وتكأكؤ الظروف ، وسكنها المرض ، تقعد فوق حشية واصلى متمدد ، مصغ ، هذا حديثها قبل نومه الأصيلى ، تقول إن كمال كان بهجة للناظرين ، وأنه كان واعيا ، يردد مايسمعه بدون تعلثم الصغار ، وأنها خلال صحبتها له لم تشعر أبدا

أنها برفقة صغير لم يتجاوز سن الفطام إلا بشهور قليلة ، كثيرا ماحبا واقترب منها فى صمتها وطبطب عليها ، قرب وجهه من وجهها ، كأنه يدرك من شفيف أفكارها وخبىء خواطرها مايعجز عنه الكبار ، بعد غروب أخيه خلف كان يدور بعينيه باحثا عنه ، ثم يتطلع إليها صامتا لاينطق ، مترقرق العينين ، انقبض قلبها ، لم يستفسر بلسانه غير أن تساؤله الصامت كان أنفذ ، تستمر الأم فى حديثها الأصيلى ، تحدث جمال الذى يغالب الإغفاءة ، فيبدو ماأشهده آخر علامات دالة على صبح الوجود ، قبل دنو ليل العدم ..

النكـــس

حدثت الأم بنبرة باك ، مخفية أوجاعا قديمة ، قالت :

« عاش كمال سنة بصحبتك ، دائما كان يحنو عليك ويبتسم فى وجهك ، لم يظهر غيرة الصغير من شقيقه أبدا ، حتى انى كنت أخرج إلى السطح تاركة إياكما معا ، مطمئنة، آمنة، أرجع القاه يهز شخشيخة من الخوص إشتراها أبوك من جوار مقام سيدنا ومولانا .. »

تصمت لحظات .

« كمال كان وش موت من يومه .. »

تطول إطراقتها حتى ليخفت صوتها ، فيسرى عند جمال قلق ، ينتبه..

« مالك ياأمى ؟ »

تحرك رأسها من يمين إلى شمال ، بين بين ، تدع له حديث الفهم ، فإن شاء أدرك ، وإن شاء انثنى ، أما إذا تلاقى ماعنده بما عندها فسيجد للكلام سبلا وطرائق .

« أعندك جوى تكتمينه »
تطرق ، ثم ترفع عينين مثقلتين ..
« سامح الله من كان السبب .. »
قالت :

كان أبوه يحبه حباً جما ، فيصحبه حيثما ولى وجهه ، صوب معارفه وأقاربه ، إلى من يجيء من البلدة ، إلى المقهى ، إلى دكان الحاج الصاوى ، للطواف حول ضريح الحسين ، تماما كما حرص على رفقتكما وانتما صغار ، وفى يوم اثنين خرج حاملا كمال على باطه ، خرج إلى بيت البك ، قال إنه سيعرج على جزار فى شارع الحسينية ، أوصاه بذلك .

الحق ياجمال أننى لم أكن أرضى بصحبة أحدكم لأبيكم عند ذهابه إلى هذا البيت ، فالرجل متقلب المزاج ، يبدى الود حينا ، وينقلب فى لحظة ، ولم أحب لأحدكم رؤية أبيه فى لحظة هوان لايقدر فيها على رد الأذى ، لكننى كتمته ، ليتنى أفضيت ، ليتنى صرحت ، حدثنى أبوكم فقال إنه مشى بصحبة كمال ، يحمله معظم الوقت ، ويشجعه على المشى إلى جواره بعض الوقت ، عند الخرنفش شرب عصير السوبيا ، وعند سوق الليمون أشار كمال إلى بائع بطاطا فاشترى له قطعة بمليمين رشها البائع بالملح ، وأوقفه عندما هم بنثر الشطة الحمراء ، قال إن الولد صغير لايحتمل ، وبعد اجتيازهما باب الفتوح تطلع كمال ناحية المقابر المواجهة لباب النصر ، مد يده الصغرى إلى ذقن أبيه موجها بصره إلى هناك ، ولم ينتبه أحمد إلى ذلك إلا بعد وقوع الواقعة .

قالت الأم :

إن كمال لم يحول وجهه عن الناحية الشرقية إلا بعد قطعهما مسافة فى حارة الحسينية ، لم يتوقفا طويلا أمام الجزار ، أحمد أخرج منديلا كبيرا لف فيه ورقة اللحم ، ثم رفع كمال ، يحمله فوق ذراعه اليمنى ، ولفافة اللحم فى يده اليسرى ،

وصلا إلى ميدان الظاهر وصعدا السلم القديم ، البيت عتيق فسيح ، وارتفاع طابق منه يوازى طابقين من البناء الحديث ، إنها ليست المرة الأولى التى يمضى إلى البك بصحبة أحد ولديه ، فكأنه بصحبة ضناه يقول بدون نطق : أنظر .. لأنك أجريت رزقى وتسببت فى معاشى صرت أبا ، وأبا لطفل نجيب ، لم يكن يتجاوز الصالة ، لو بيده شىء يدخل المطبخ ليضعه فوق منضدة أو داخل صوان ، ولكنه لايفارق أخاكم وإذا جلس فإن مكانه قرب الباب .

لم يكن ممكنا لخلف أو كمال وأنت من بعدهما الحبو فوق بلاط المسكن أو أبسطته ، كذا المشى ، أما مخالطة أبناء البك فأمر مكروه عندهم ، ولعلك تذكره عندما صحبت أباك وأنت ابن السابعة ورأيت ابن البك الأكبر يلعب بسيارة صغيرة تدور وتلف ، بقيت أنت بمنأى ، تتطلع ولاتقترب ، تنظر ولاتشارك ، أعود إلى هذا اليوم ، الاثنين ، فأقول إن أحمد ضغط الجرس ، بعد لحظات أصغى إلى خطو يقترب ، إنه البك نفسه ، يسد الباب ، مرتديا الروب ، بدون نظارته ، هل كان متكدرا من أمر لاذنب لنافيه ؟ ربما ، هل كان على خلاف مع امرأته ؟ ربما ، هل كان بحاجة إلى النوم ؟ ربما ، أيا كانت الأسباب ياولدى ، فلاحق له أبدا فيما بدر منه ، لاعذر له ، قال بجفوة ..

ماذا تريد ؟

فقرب أبوكم كمال من صدره ، ومد يده بمنديل اللحم ، تناوله خلف بك ورماه فأصاب كمال الذى انتفض ثلاثا ، قذف فى قلبيهما الرعب خاصة مع تلفظه بمالم ينسه ابنى قط .

غر من وشى .. تضع اللحم فى منديلك ؟

رجع أحمد إلى البيت حسيرا ، واجما ، يكابد قهرا هائلا ، عبثا حاولت أن أعرف منه ، أن أفهم ، أن أدرك ، غير أنه صمت عنى مدة ليست قصيرة ، مع أن صميم طبعه الإفضاء والبوح ، أما كمال فبدأ ميل شمسه ، وغروب نجمه منذ ذلك اليوم ، لم أدر بما جرى إلا بعد أن بلغت من العمر ياجمال أربع سنوات ،

بعد أن استرد خالقنا أخاك بثلاث سنوات ، بدأ مرض كمال ، فى الليل ياكبدى ينتفض ثلاثا ، وخلال رقدته يرتجف ، يزلزل جسده ثلاثا ، وفى ذروة مرضه وذبوله يتصل نومه ساعة ، يقوم مفزوعا ، باكيا ، يدفع بيديه مالا أراه ، لم ينفع حجاب الشيخ عطيه ، أو التلاوة فى أذنه ، صارت أدمعه غزر . ونكسه تعس مستمر ، ثم ظهرت الحمرة ، جعلت خصيتيه فى لون الطماطم ، عرفنا الطريق إلى طبيبة شابة ابنة أناس طيبين فى ميدان بيت القاضى ، قلت لها أعملى معروفا وداويه ياحكيمة ، ياطبيبة ماعندى غيره ، كمال هو روحى ، وأنسى ، فى الليل يصرخ « حوشى ياأمى » ، فلا أعرف أى أمر أحوش ؟ وأى خطر خفى أدفع ؟ مايراه هو لاأراه أنا ، تتابعت أيامه حتى جاء الأربعاء ، وقت آذان الظهر ، أثناء عودتنا إلى البيت ، عند مرورنا أمام فرن الحاج نصيف ، ثقل رأسه على باطى ومال ، عرفت أن الأجل تم وأن القضاء حسم فسابت ركبتىّ ، قعدت فوق حجر غليظ ورقبته كخيط ملوى ، رخو ، وتلك علامات أعرفها ، عندما أسلم المرحوم خلف الأمانة قبله ، نزفت دمعى على ضناى الغالى ، لم أطق البيت بعده ، كنت أهج على رأسى مصطحبة أباك ، أزور أهل البيت ، وأنذر للأولياء كى تبقى لى أنت . لوعاش كمال لكان يكبرك الآن بعامين وشهور ..

تصمت ، أرى الوسن مبددا من عينى أصلى ، يكفكف عنها باللفظ دمعا لايفصح عن نفسه ولايبين ، ثم يتساءل دهشا :

« لكن أبى ظل يتردد عليه .. »

تقول متحسرة :

« كان رزقه بيده ، ولم يشأ أن تعيشوا ماعاشه هو .. »

يوشك أن يصيح « أمى » ، غير أننى أرى لحظةً أخرى ، هذا أصلى يجلس إلى أبيه ، أى أبى ، هذا زمن متقدم ، أى وقت هذا ؟ ربما المرة الأخيرة التى زار فيها الأب ابنه ، هذا بيت جمال بعد زواجه ، بعد أن صار أبا ، اليوم أربعاء ، والساعة أصيلية أيضا ، هذا أنا ، عندى ود تجاه الوالد الكريم ، أما وجهى فذو

ارتقاب ، يحدث الثقة ، الصاحب الأمين فيقول :

« والله ياجمال أنا طول عمرى شقى .. »

تلك عبارته ، دائما يرددها ، غير أنه يلفظها فى شجى من شفتين مزمومتين فكأنه يصرح بها لأول ، أحاول أن أقف عبثا على مسرى الحديث ، على وجهته، أحاول التعرف على نقطة بدئه ، لكننى لاأقدر، فياأصلى البائس لماذا لم تعن ؟ لماذا لم تحفظ مع أن العهد قريب ، والمزار غير بعيد .

أصغى فقط إلى الوالد ، يقول :

« .. كنافى محطة مصر ، خلف بك يقف مع أشخاص مسافرين جاء ليودعهم ، كنت بصحبته ، طلب منى أن أجىء فجئت ، وقفت على بعد منهم تأدبا وتحاشيا ، كنت صامتا ، لايكلمنى أحد ولاأتحدث إلى أحد ، وحيدا ، منتظرا ، فجأة .. لمحت البك يفارق صحبه متجها نحوى ، مشهرا عصاه ، ظننته يسعى فى إثر شخص ورائى ، وأنه سيتجاوزنى ، التفت لأرى من ؟ لكن العصا نزلت على جسدى ، على جسمى أنا ، سبّنى ، رفعت اليدين أحوش البلاء عنى ، فوقعت بين ألمين ، الضرب وألم المفاجأة ..

يصغى أصلى دهشا ، هاهوذا الوالد يفصح عن مكنون يسير مما عنده ، أمر من مغاليقه ، لم يبح به أبدا ، ينطقه فى يسر ، كأنه يزيحه عن صدره مع دنو الختام، أليست آخر زيارة يقوم بها إلى بيت ابنه الأكبر وبعدها لن يدخله أبدا ، ولن يسعى إليه قط ، نظره متجه إلى بعيد ، يتجاوز الأطر المكانية ، يتصل بهذه اللحظة المولية ، يقص ماجرى بها ، يتفحصها ، يبدى الأسى والدهشة بعد كر الأعوام وتبدل الأحوال ، واختلاف العلاقة ، انه متأهب لقص المزيد ، وربما لاسترجاع لحظة أخرى ، أو لحظات ، غير أن أصلى الغبى ينطق ، ياأصلى الأحمق اسكت يامن قدرى أن أكون أنت ، أن أكونه ، لماذا تكلمت ؟ لماذا استعدته من سريانه ؟ ياأنانى ، يامغلق على نفسه ، يامقطع الوصل ، يامخرب الجسور ، لماذا نطقت ، لماذا تكلمت ؟، يتساءل البائس الذى هو أنا :

« بدون سبب ؟ »

يجيب الوالد منتزعا من بعيده الذى كان ..

« بدون سبب ياولدى ..»

فى صوته أنّة ، وفى نبرة شكوى ، كأن ماجرى وقع منذ لحظات مع أن عشرات الأعوام انقضت ، والبك يرقد عليلا تختلط عليه الأمكنة وتتداخل فى وعيه الأزمنة ، لايغادر فراشه أبدا ومامن صاحب يمضى إليه إلا الوالد ، صار الأمر بينهما صحبة وصلة ، حتى أنه إذا غاب عنه يوما أو يومين ، يرسل من يتصل به ، ويستفسر عنه بل ويعتب عليه ، قبل بدء رقاده وعجزه كان الوالد يمضى إليه ، مع بدء الليل يبدأ حديث البك ، يذكر أياما نائية ، وجاها كان يرفل فيه ، ومنازل فسيحة ، حدائقها لاتحد جرى فيها ولها ، وهدايا ثمينة تلقاها، وحلوى خاصة يفضلها كانت تجيئه من نابولى ، البيت القديم بارد ، لفراغه وقع وصدى ، ولأثاثه العتاقة ، ولضوء ثرياته النحاسية قدم الزوايا المنسية والنواصى التى لاتؤدى إلى شىء ، أما أصوات الطريق فتجيىء كأنها تمت إلى عالم آخر. يصغى الوالد ، يضيق حدقتيه ، وفى أيام أخرى يتكلم هو ويصمت البك ، يتحدث عن بلاد نزلها أول الليل فلاقى فيها كرماً وترحيباً، ومقاه صفق روادها عند ظهوره يطلبون له الشاى أو القهوة بدون أن يعرفه أحد ، وطرق مهجورة اضطر إلى اجتيازها حتى لاينزل الليل عليه فى الفلاة فيخرج له الضبع أو ينفرد به الذئب ، يتحدث عن حروب دارت منذ عشرات السنين بين العائلات الكبيرة ، لاتزال آثارها باقية ، عن زمن صال وجال فيه فرسان كرام لم يعرف مثلهم فيما بعد ، يقول ، راح هذا كله ، نعم .. راح ، فى أيام الجمع ، قبل الصلاة بساعتين ، تلك الأيام التى كل فيها بصر البك وخفت نور عينيه ، يمضى إليه الوالد ، فيصحبه مشيا عبر شارع الحسينية ، ثم شارع المعز ، حتى ضريح المنجب النجيب شهيد كربلاء ، حدث الوالد فقال :

كان يمشى متمهلا ، لا أراكم الله مكروها ، يسأل عن كل شارع ، ويستفسر عن بقاء العلامات ، وعن مبان لم تكن قد اكتملت قبل ذهاب بصره ،

أحيانا يتوقف ، ويطلب أن نمضى عبر باب النصر بدلا من باب الفتوح ، فأقول له ، إننى أتشاءم من باب النصر ، لقربه من المقابر ، ثم أن شارع المعز أقرب ، فيأبى ويصر ، وعندئذ أتوقف محتجا ، هنا يصبح أقرب إلى طفل ، يوشك على النهنهة إذ يقول معاتبا ، طيب ياأحمد .. لأنى عميت تتحكم فى ؟ ، فلا يطاوعنى قلبى وأمضى به كيفما شاء وإن كرهت ذلك .. »

هاهوذا الوالد يجلس القرفصاء فى الشرفة ، يلامس رأسه بأطراف يده ، إنها الأيام التى ضاقت فيها عيناه ، وخف لون سوادهما حتى أصبح رماديا ، وتباطأ خطوه ، ومال جذعه ، إنها أيام الغروب التى لم تنتبه إلى دنوها ياأصلى الغبى ! ، كيف أرضى بتراثك ؟ كيف أقبل ماأودعتنى إياه ؟، ولولا أنى مجبور ، مضطر ، لوليت الوجه ، وأوغلت نأيا عنك وبعدا ، يامتقاعس ، يامتأخر ، يامن تدع الأوان يفوت ثم تندب نفسك ، عشت لاهيا ، متشاغلا عن أقرب الأقربين ، تعبث فى خراء أيامك ، ومع ذلك فإنك وثاب ! .

يمد الأب يده بورقة مطوية ، أود لو أقول له ، وفر على نفسك ، لاترجو جمال زيارة الرجل فى مرضه ، لاتخبره باسم المستشفى أو عنوان الطريق ، والطابق ورقم الغرفة ، فلن يذهب ، ولن يراعى لك خاطر ، ولن يجامل ، لكنه بعد إقلاعك وتمام غيابك ياكريم ، يامجاهد ، سوف يسعى لزيارة البك ، فلن يجده واعيا ، سيلقاه بقايا ، وسيكذب عليه ولن يخبره أنك مضيت إلى الأبد ، لأن الأهل رجوه أن يخفوا عنه النبأ ، فلو علم لصار الأمر عسرا ، لوقعت صدمة على البك الذى يطوى ماضيه تحته ، إلى جواره سيجلس ، يصغى إلى الكلمات المتباعده ، وكلما قال الرجل : أحمد تأخر علىّ ، أحمد لايسأل عنى ، صار أصلى فى محنة ، وحاش دمعا ، دمعك متأخر دائما ياأصلى البائس ، وندمك بعد فوات الأوان ياأحمق ، فانتبه إذا جاز لك الانتباه ..

أتأهب لإبداء اللوم ، وإظهار النفرة ممن كتب علىّ أن أكونه ، غير أننى أنهى عن ذلك ، فلا أخوض ، إنما أرجىء ماأبطنه إلى مدى حتى تتم أمورى .

يستغرقنى الآن وجه الوالد الذى كتم ماجرى أعواما عديدة ، ثم أفضى إلى ابنه فى لحظة أصيلية دانية من الغسق ، وأثناء زيارة قدر لها أن تكون الأخيرة ، كأنما أراد أن يفسر أمرا مبهما ، أو يخفف عن دخائله حملا ، هذا تفسيرى وفهمى ومقدار إدراكى ، وما من مجال الآن عندى إلا لتساؤل ، لماذا أفضى بما أفضى ؟ لماذا فى هذه اللحظة بالذات ؟ لو أن أصلى بذل القليل ، لومد جسر الوصل لحظات لأدرك ولعرفت ، لكنه ترك عندى مااستعصى علىّ ..، أسمع صوت الوالد :

«شوف ياولدى.. الذى أمن الفقير على رزقه، الذى صان كرامته،
جمال عبد الناصر .. ولو لم يفعل إلا ذلك لكفاه .. »

تغيم الرؤيا عندى ، تلك مدينة صغيرة لاأعرف كنهها ، لم أطرق دروبها ، أرى الأمر ، الوالد غائب عن البيت ، إحدى مرات غضبه وهجرانه إلى حيث لاندرى ، مضت فترة والخبر منقطع والأثر مفتقد . لكننى ساع فى أثره ، أرى بعض الأقارب . الحاج أبو الغيط ، الحاج عوض ، الشيخ عبد اللطيف . وكلما مررت بواحد منهم أبدى اللوم وأعرض عنى .

« لماذا تغضبون أباكم ؟ »
« هل تعرفون كم شقى بسببكم ؟ »

ينقبض قلبى ، أوشك على إبداء العبارة ، مالى أنا بما جفاه غيرى ، لماذا أحاسب على مالم أرتكبه ، إنما أنا وافد ، عابر ، أنا لم أكنه ، فكيف أحل هذه القضية ؟ غير أننى أكتم أمرى ، أرى الوالد فأكف ، أراه عاريا كما ولدته أمه ، جسده يلمع ، تعلق به قطرات ، أسأله عن أحواله فى غربته الأبدية ، يقول إنه بخير . استفسر ، أهو راض عمن أنجب .. — أقصد — عنا ؟ » يومىء ، لاينطق ، أسأله عن هذه المياه ، فيقول مبتسما :

« أنا ملتحف بالنيل .. ألا ترى ؟ »

أدرك أنه يتوشح بماء النيل من المنبع إلى المصب ، وهذا عجيب ، أتأهب

لاستئناف المخاطبة غير أن وجوده بدأ يتميع وصورته تنأى عنى ، عندئذ أسمع صوت الأم :

«اسمع ياجمال ، ماراح من الزمان راح بحاله ، وأورث مأأورث ،
ومانحن فيه فتحت سلطانه ، ومالم يأتنا فلاحكم لنا فيه .. »
يغيم مأأراه ، فأمضى فى الحال صعدا .

★ ★ ★

لاتحسبونى ، غنيا عن مودتكم
إنى إليكم وإن أيسرت مفتقد

★ ★ ★

أرى الأم فى صمتها ، هل ورث أصلى رغبة فى السكوت عنها ؟ لست أدرى ، غير أن هذا الطبع صار طبعى بحكم الوضع وجوهر المهمة ، أنا مثله ولست مثله ، كان ظاهره غائما وداخله صحوا ، لاكسوف عنده ، لاتحجب رؤاه غمامات. تلك أم أصلى تطيل النظر إلى فراغ الغرفة، ساعة فى إثر الأخرى، تنتظر أحمد ، تستند إلى قفة تحوى الثياب مضمومة ، ملمومة ، منذ قليل جمعت الغسيل ، طبقته ورتبته ، بجوارها موقد غازى ، حمالته المستديرة منزوعة عنه ، أتطلع إلى انتظارها . إلى قعدتها فأحن وأحزن ، أحن من حيث أنى غريب عائد ، منفى ، وتلك حالة أمومية ، فكل أم بها أعنى ، والأمومة حنو ، والحنو عطف ، وأنا وحيد ، بمعزل عن دهرى ، منفى ، فدائما أطلب الوداد وأسعى ، وأحزن من حيث أنى جمال فتلك لحظات أراها وأطوف بمشارفها وليس لى من الأمر شيء ، بل انى مدرك ابتلائى بالفرقة .

أراها تخرج إلى السطح ، ترى أفق الدنيا ، المبانى البعيدة المرتفعة ،

الاطراف ، الحدود ، لانهائية الفراغ ، أصوات المدينة المندغمة الغامضة ، فى نقطة مايسعى أحمد ، يجرى على رزقه ، هذا ألق النهار عند اشتداد القيظ ، وحومان أسراب الطير ، ورمادية الأيام الشتوية ، سحاب فوقه سحاب ، وقوس قزح واضح بعد انتهاء المطر ، وشفق وغسق والليل وماوسق . فى النهار ضوء وأنس وعزلة ، تدخل وتخرج من الغرفة ، تنشر ثوبا على حبل الغسيل ، تتوقف فجأة تنظر إلى جهة من هذه الجهات التى لاتتبدل ، ترى .. أى منها يؤدى إلى جهينة ؟، إلى تجاور النخيل ورسوخ الجذوع ودوران الساقية ، وملمس الطحين ، ورائحة الفرن بعد الخبيز ، وملمس الدوم الجاف ، وصوت نزول القمح إذ يتدفق من فتحة الصومعة السفلى ، ومذاق الخبز بعد نضجه وغمسه فى اللبن الرائب ، وصوت سعف النخيل ، ودفق النقط الأولى من اللبن فى الوعاء الفخارى ، أى جهة أى ؟ .

فى هذه اللحظة بعينها ، كيف تتحرك الأم ؟ أين ، إلى أى جهة ؟ ومحمد « شقيقها » فى أى سوق يتسبب ؟ ، الإثنين سوق نزة ، الأربعاء سوق جهينة ، السبت سوق الطليحات ، وهذا أبعد مسافة وأنأى ، فى الأحد ربما يمضى إلى طهطا ، والثلاثاء قد يذهب إلى سوق سوهاج الكبير ، أى جهة تؤدى ؟

فى الليل يوحش السطح ، تغلق الباب وتقعد خلفه لو تأخر أحمد ، تصغى إلى الهمسة ، ومرور الرياح ، وماترى أنه غريب لم تألفه ، عبر النافذة تبدو أضواء المدينة ، حمراء زرقاء ، بعضها يطفأ وبضاء بانتظام ، هذا الضوء الدائرى فوق عمارة غمرة المرتفعة ، قال أحمد إنه قريب من بيت البك ، إلى هذه الجهة ذهب كال ، منها بدأ نزوله ، بدأ غروب حظه .

فى الليل تتوقع الأذى ، لاتقدر على الخروج وحيدة إلى دورة المياه ، إنها منفصلة ، عندما جاءت كان بابها محطما ، مباح داخلها للنظر ، ولأن تكاليف باب خشبى جديد لايقدر عليه أحمد . ولأن الساكن يجب أن يقوم بإصلاح ماتلف ، إكتفى بإسدال جوال سميك من الخيش ليفصل وليحدد ويحوش البصر عن العورة ، الخروج إليها فى الليل أو عند الفجر فيه محاذير ، ظلام الدورة ،

احتمال اختباء دابة مؤذية ، او تطفل متسلل غريب ، إذ يتأخر أحمد لايمكنها الخروج ، فى الليل العميق لو اضطرتها الحاجة فإنه يصحبها ، ويقف منتظرا فراغها ، بينما البرد صرصر ، برغم هذا كله يهون ماتلقاه ، فى بيت أم هدهد كانت دورة المياه معتمة فى نهاية الفناء ، منعزلة عن الغرفة ، يمكن لأى عابر غريب أن يندس ، وبرغم خوفها إلا أنها كانت راضية هناك ، فالدورة تخصها ، لم تنأ بعد أيام تلطمها على بيوت الأقارب وأهالى البلدة ، أورثتها مواجع شتى ، ليتها لاترجع ، ليتها لاتعود ، إنها تقعد أمام الحجرة قرب السلم ، الضوء لايمكننى تحديدُ انتمائه ، لاأدرى إلى أى وقت من النهار ، ترقب زحف طفل صغير ، يحبو ، يرتدى جلبابا بنى اللون ، يتدلى من عنقه خيط يحمل حجابا يحوى التعاويذ والأدعية المنجية . من ؟ من الطفل ؟ أهو كمال ؟ أين أصلى إذن ؟ أقصد .. أين أنا ؟ أيكون هذا أنا ؟ مامن علامة دلت ، الملامح لاترشدنى ، فشتان مابين ملامح تحمل أزمنة ، وملامح لم تزل بعد غضة .

الأم وحيدة ، مامن جليس ، مامن محاور ، الأب لم يرجع بعد .. إذن ، الوقت قبل العصر ، ربما تأخر عن موعده ، لكنها فى انتظار عودته بالغذاء ، مامن طعام فى البيت ، فقط رغيف من بقايا الإفطار وقطعة جبن حالوم وبصلات ، أما آخر ماتبقى من البلح الذى أرسلته والدتها فقد نفد منذ أيام ، حتى لو امتلأ الماعون بالطعام لايمكنها أن تأكل قبل رجوعه ، أن تأكل بمفردها فهذا مالم تعتده بعد ، أما إذا عاط صغيرها جوعا فتغلى ماتبقى من شاى الصباح ، تبل فيه كسرة خبز ، إنها منتظرة ، صابرة ، ساهمة ، أى صور تعبر ذهنها فى هذه اللحظة ؟ ، أى شرودها ؟ هذا مالم أحط به علما ، هذا مافات أوانه ، هذا مالن يستفسر عنه أحد ، مالايعنى أحدا . مع أنه من أجل المكنون ، تلفها الوحدة ويتغمدها الصبر ، الأب حذرها من الاختلاط بنساء البيت ، ألا تدخل عليهن ويدخلن عليها ، قال إن الاختصار عبادة ، قالت له ، لو زارتها الست نعيمة إمرأة عبده الحلاق سوف تستضيفها ، وتجلس إليها ، وتقدم واجب الضيف ، إنها صاحبة أم هدهد ، إنها السبب فى سكناهم هنا ، هاهى ذى الأم تمسك قشة نخيلة ، تخط

بها خطوطا نحيلة فى تراب يكسو بلاطات السطح ، انها ترقب ظل الجدار الطويل المواجه للغرفة ،، إذ يصل إلى الصف الثالث من البلاط تكون عودة أحمد قد دنت ، إذن .. أمكننى تحديد الوقت ، غير أننى انقلبت خاسئا وأنا حسير ، فما أطلع عليه ليس وقتا بعينه ، إنما وقت فى جوهره ، يحتوى أوقاتا متباعدة ، هنا ألممت بالمرات، التى زحف فيها هذا الظل ، منذ تكونه وبدئه أول مرة مع إتمام جدار الغرفة الذى هو سبب ظهور صورته ، رأيت حدوده وحوافه وسرعته صيفا وشتاء ، نفذت إلى لب صلته بجرم كوكب الشمس ، كذا امحائه عند زوال الغرفة وتهدمها ، أو تحوله إلى أشكال أخرى ، عرفت أن بقائى فى هذا الكون كبقاء هذا الفيىء ، وأن معاشى فى تلك الدنيا كحلول هذه النسمة التى خففت القيظ عن وجه أمى ، إنما أنا عابر ، مارق ، دائما فى الفائت ، محروم من الحاصل ، وهنا انتبهت إلى أن حال الوداد يأفل ، إلى انه يولى ، وأننى أسرى على مهل إلى حال الوحدة ، وأن اغترابى يتصل ، فوددت لودام الحال حتى أنتبه إلى مالم أنتبه اليه ، وحتى آخذ مما لم آخذ منه ، وأذوق مالم أتذوقه ، وأعرف مالم أعرفه ، غير أن الأوان فات ، والحيز إنقضى ، وليس لى إلا السعى .

* * *

حـال الفــوت

﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة
وهى تمر مر السحاب ﴾

قرآن كريم

.. إنه السطح ، أتوقف لأتملى ، يمتد من المشرق إلى المغرب ، حدوده ثلاثة ، حد جهة طلوع الشمس ، وآخر جهة مغربها ، وثالث شمالى ، أما الرابع فموصول بالغرفة ، لاسقف أو غطاء يحجبه عن السماء ، فى الركن القصى الأيمن عمود خشبى نحيل ، يواجهه فى الركن الأيسر عمود توأم ، يصلهما سلك نحيل ينحدر عبر المنور ، إنه هوائى المذياع الوحيد فى البيت ، تمتلكه الست وجيدة إمرأة عم أحمد عمر التاجر ، أحيانا يصل سمع الأم غناء أو أطياف موسيقى ، أنغام شجية نائية تعمق الوحدة ، تقوى الحنين والتوق ، أدنو منها ، لاظل لى فوجودى هذا لاينتمى إلى عالم الحس ، تلك أم أصلى ، الذى تلملمت خلاياه وارتوت منها وعاشت بها، عرف حنوها ورقتها وخوفها وإشفاقها كأمر مفروغ منه، لم ينتبه إليه إلا بعد وصول الفوت ، أنظر اليها فى قعدتها الظهيرية هذه ، الآن تنكفىء الضجة ، تتلملم داخل البيوت ، عودة الرجال اقتربت ، كذا رجوع الأولاد من مدارسهم ، ياسلام .. متى يكبر جمال ويذهب لتلقى العلم ، تنتظر عودته ، وتجلس على مقربة منه أثناء مراجعته الدرس ، تبتسم ، إن ماتأمله هو الباعث على هذه الانفراجة فى ملامحها ، إذن .. تتعجل الزمن ، تود لو يكبر أصلى ويدب ويسعى ، هذا مالم يقف عليه أبدا ، تلفها ساعة الظهيرة القاسية التى يتصاعد معها الانتظار ، يبلغ ذروته إذا امتدت ظلال السور وتطاولت حتى تغطى الربع البحرى من السطح ، إن اقتراب العصر ينبىء بالوحشة والقفر ، وهنا سمعت صوتا :

« كان انتظار أمى مثل انتظارها .. »

إلتفت متعجبا ، هذا ... دليلى ، مديد ، تدور عليه الهيبة وكأنها الرحى

حين تدور على قطبها ، طلب منى ألا أدون إسمه ، فمحوته بعد أن كتبته ، لذا شكرنى على ذلك ، وقد خشيت وابتهجت ، أما خشيتى فلظهوره المفاجىء عندى ، وأما ابتهاجى فلوجوده قربى ، وأيضا لأنه دليلى ، ولأن الحوار سيتصل بنا ، مع أن أصلى لم يره إلا من بعيد ، حالت بينه وبينى الحواجز ، فسبحان مغير الأحوال ، ائتنست به لأنه يخاطبنى ، ليس بلهجة الأمر ، أو النصح ، لكن بلهجة من يفضى بسريرته إلى خله وصفيه ، يواصل حديثه إلىّ بينما الأم فى وحدتها لاتدرى من أمرنا شيئا .

« حلت بى الشقوة بعد فقدى أمى » .

استفسر بالنظر :

« لم أر لحظة رحيلها ، كنت بعيدا أطلب العلم ، وعندما رجعت إلى البيت ولم أجدها ناء قلبى بأول حمل ثقيل .. »

يحدث نفسه :

« كان هجاج روحى بعد فقدها عظيما مروعا .. »

أقول بلسان أصلى :

« إنما أنا مثلك .. »

يقول :

« كلما رأيت أما أتوسم حضورها ، أهفو فلا ألقى إلا قبسا ، وعندما صار الأمر إلىّ لم يكن يفجر حنينى وضيقى إلا اطلاعى على شقاء أم .. »

ثم يقول :

« كان بودى أن أدفع الشقاء عنهن أجمعين ولكن الأمر خرج عن طوعى .. »

أصيح :

« يامحاصرا كنت ، ومحاصراً لم يزل .. زدنى .. »

يقول :

« مازال البون شاسعا .. »

أقول :

« ألم تخلف لنا رفيق السوء .. ؟ »

يبسط أصابعه محذرا بلين :

« لاتلمح إلىّ ، ولاتذكر مايدل علىّ ..»

أقول بلوم لايخفى :

« سامحك الله .. »

يشير إلى الأم :

« لاتدع لحظة تفلت ، ماتظنه باقيا لن يدوم .. »

حرك كلامه هذا شجنى وأجج حنينى ، وصير ريح ودادى إلى عندى ، غلب على حالى من حيث أنى جمال، فكان حالى مثل غريب يتحدث أمامى عن محبوب غال ، فينبعث هذا المحبوب ماثلا بالتخيل وكأنى أعرفه مرة ، جرى مثل ذلك لأصلى مرارا. حدث أنه كان فى زيارة البلدة التى أول ما لامست أرضها رأسه ، فى دكان القهوة والشاى قعد ، جاء الأقارب والصحب ، جاء الشيخ عبد اللطيف ، سأله عن أبيه ، ثم مال قائلا : خذوا بالكم من أبيكم ، تطلع إليه مستفسرا بصمته . قال : أبوكم تقدم فى العمر ، ثم قال : أنتم لاتعرفون مقدار عمره ثم قال : أنا تجاوزت السبعين بعامين .. هل تعرف أن أباك شالنى وأنا ابن عشرة وعدى بى حفيرة المياه قبلى البلدة ، ثم قال : ظننت أن الهرم لن يدركه أبدا لحيويته ونشاطه حتى رأيته السنة الماضية ، سكت لحظة.، ثم رفع أصبعه : لاياجمال أبوك تعب ، والكبر بان فى عينيه .

هنا اجتاح أصلى حنين وشوق وشفقة ، حتى ود رؤية والده للتو مع أن المسافة نائية ، قويت عليه الرغبة فى القرب حتى شجا ، فحاش الدمع عن الطفر من مقلتيه غصبا ، أضمر النية على ضمه عند رؤيته ، على بثه رقيق اللفظ ، أن يهون عليه مايلاقيه ، أن يرفق به ، أن يصغى إليه مطولا .

أقول أنا المأمور بأن يكون غيره ، أقول وعندى مس من غضب : وهل أنت فى حاجة إلى من ينبهك ياكليل البصر ؟ ألا تعيش معه ؟ أليس أصلك

وأنت فرعه ، أم أن الجذع لايرى جذره ، والغصن لاينظر إلى منبته . أهى طبيعة إنسانية ؟ هل نسيت أنا مايكون عليه البشر ؟ والله لو أن الأمر كذلك فلابد أن الموضوع فيه نقص ، هل تعرفون ماكان من أمره بعد وصوله الى البيت ورؤيته أباه ؟ لقد أرجأ وأجّل . إن هذا مقيت عندى ، مغاير لخصالى العتيقة التى كنت عليها ، أنتبه الى دليلى فى تلك الأحوال ، يغدق حنوه على أم أصلى .

حدثنى فيما بعد ، قال : لم أنس أبدا نظرات من حنت علىّ ، خاصة عند الرحيل أو الوصول ، كذا دخولها الليلى علىّ ليطمئن بالها ، ودعاؤها الصامت لى أثناء غيابى فى القاهرة أطلب العلم ، وقعودها صامتة أثناء تناولى الطعام . تغدق علىّ ودا ، ورجاء وخوفا لايفصح عنه ، وحنان ، ووصايا ، تثقل المعانى ، تتدافع ، فلا تلفظ ، غير أن جوهرها يصل . كل المراد يصل ويبلغ ، فيرق مابى ، حتى يستعصى مابيننا على النطق . عندما أطلعنى على ذلك قلت : كأنك تكنى عنى ، كأنك أنّى . هذا حال أصلى ، وماكان بينه وبين أمه ، عند سفره لم يكن يقبلها ولم تكن تقبله ، غير أنها بالنظر تودعه كل ماعندها ، يقول دليلى :

« لاتفارقها فى وحدتك ، إلزم هذه القعدة .

إن ماتراه لن يدوم .. »

ينبهنى إلى ماطمس علىّ ، ألتفت ، غير أنه يلمّس يدى ، يقول ونظره غريب :

« وصالح نفسك ، ولاتفصل بينك وبين أصلك .. »

ثم يقول بعد لحظة صمت :

« كل ماسعى إليه تسعى إليه ، وكل مانأى عنه ستنأى عنه ..»

هنا لزمت صمتى ..

فصـــل ..

عمّر الله قلوبكم بالصبر الجميل ياأعزائى ، إعلموا أن عهد أصلى بهذه القعدة الأمومية قديم ، إنها تاريخ ، إنها أطوار ، إنها حالات ، إنها علامات فى طريق ، وارتباط وثيق بأنغام مندثرة ، ودرجات من الضوء متعاقبة ، ودفقات شعورية ، وتداعيات ، وصور ، وأصول ، وفروع ، وندى ، وشوق ، وغيوث هواطل .

إعلموا أن الجلوس لايكون إلا لانتظار ، إنتظار قدوم ، أو إقلاع ، أو انتظار للفراغ من تعب ونصب ، أقدم موروث أصلى وأعتق مايعلق بذاكرته قعدة أمه تلك ، وسعيها فى البيت ، يذكر حركتها الدءوب منذ صحوها ، فلكل حاجته ، ولليوم الجديد تدبير يجب أن تعد له . الظروف عسرة ، والزاد شحيح ، بعد سعيها مابين الغرفة والسطح تبدأ قعدتها . تصفو وحدتها ، فوق مشية قديمة أو مكنسة من لوف النخيل البنى اللون ، تطوى ساقيها ، وهذا وضع يستلزم ميلا خفيفا إلى الأمام ، ميلا ينتهى بإطراقة رأسها ، تنظر إلى مايصعب تحديده ، تحدق إلى بلاط السلم ، درجاته ، إلى السور ، إلى عمامات عابرة ، إلى حدأة محلقة ، غير أنها تنظر إلى ماوراء هذا كله . إلى مايستحيل تعيينه ، فى عينيها معان غير مقيمة ، عابرة ، فيها الوداعة والرقائق الوعر اجتماعها ، وظل عتاب على أمر مجهول .

هذه نظرات أوغلت فى حشا أصلى وتمكنت ، وحركت عليه ــ عند استعادتها ــ هبوب الحنين ، حار دائما فى استكانتها تلك ، فى هجوعها إلى ذاتها الساعات الطوال ، عمرها كله تستيقظ قبل الجميع ، تماما كأمها التى لم ترها نائمة قط ، ردد جمال دائما ، أنه لم يرها مغمضة العينين أبدا ، حتى بعد اتساع المسكن ، وانفراده بغرفة ، فإذا كانت مستغرقة فى الحجرة المجاورة وفتح هو عينيه تسيتقظ لتوها وتحدث سعلة ، أو تلفظ كلمة تنادى بها نفسها « يابويا » أو

« ياأنا » ، وهى تنبىء من سكنوا رحمها وتكونوا فيه أنها منتبهة ، مستيقظة ، فله الأمر من قبل ومن بعد .

أول ماتعنى به فى يومها أن توقد نارا ، صوت دفعها الكباس أول مايسمع ، تعد الشاى بسرعة ، وقت الأب ضيق ، أقل هفوة ستفقده مصدر رزقة ، وقد عاش زمنا لايعبأ ، أما بعد مجيئها إلى مصر ، بعد مجىء خلف ابنها البكر ثم كمال ، ثم جمال ، جمال من حللت فى كينونته ، أصبح الأمر خلاف الأمر ، إنه مرغم على المسايرة ، على الخضوع والمسايرة ، استمر ذلك حتى زمن ابن عبد الناصر الذى أمّن المهضومين ، وحمى لقمة العيش ، الوالد يشرب كوب الشاى ، يلف ماتبقى من خبز ، وقطعة جبن ، أو حلوى طحينية ، ماتيسر ، لا وقت للإفطار فى البيت ، يحرص على النزول مبكرا ، يمر بضريح الشهيد ، فإذا سمح الوقت ركع وصلى وطلب الصفح الجميل ، أما إذا ضاق تلا الفاتحة وأضمر العذر وطلب الاستجابة ، يبدأ المشى من ميدان الحسين إلى الدقى ، يوفر ثمن تذكرة الترام ، بعد انصرافه تقوم إلى البيت تكنس ماتجمع من غبار ، بعد استيقاظ الصغار ترتب الفراش ، حشية كانت فوق الأرض ، أو سريرا أو أسرة ، تملأ صفيحة مياه تحوطا وحذرا من انقطاع المياه ، السطح مرتفع ، عندما يفتح الجيران صنابيرهم تشح ، تصفر المواسير الرمادية ، إذ تفرغ وتطمئن إلى أنها لم تسه عن شيء ، تغير جلبابها ، تعصب رأسها بمنديل أبيض حف بدوائر زرقاء ، عندئذ تبدأ خلوتها تلك .

فى جهينة كانت تقعد تنتظر أخبار أحمد ، بعد عقد قرانها تبدل حالها ، أصبحت ضيفة، والضيف لابد أن يرحل ، والا صار بقاؤه ثقيلا، تسأل نفسها دائما ، متى سيجىء ؟ متى سيصحبها إلى بيتها ؟ . أما قعدتها فى بيت الشيخ قبيصى فانتظارا لعودته ، ولخشيتها وخجلها من الحركة فى بيت لاتعرف من حجراته إلا ركنا قصيا استضافها الطيبون فيه . فى غرفة « خوش قدم » مضت عليها ساعات بطىء انقضاؤها ، هنا فوق السطح تشم الهواء ، تغمرها الشمس فى الشتاء ، فى الصيف تعبر النسمات السطح الفسيح فتطيب القعدة مع أحمد ،

أحيانا تمدد الولد فوق وسادة وتجلس بعد أن تدلك جلده بقشر البطيخ إتقاء ومعالجة لحمو النيل ، ترقب كل ظل يتحرك حول وليدها خوفا من شر العقرب ودابة الأرض .

أقول أنا صورة جمال الراحل ، المبدد ، الموزع ، أن هذا السطح موقوت ، سيزول يوما، فما ثمة بناء يبقى أبدا، حتى مانظنه متجاوزا للدهور، فالأمر نسبى ، والأجل مقدر ، هذا الفراغ الذى يشغله وجودها الحسى سيصير معلقا ، أو يشغله جزء من بناء آخر يقوم ثم يندثر . أرى الأثر الخفى الذى لايمكن لعين تطلع عليه أو ترقبه ، أرى لحظة يندثر فيها مالايمكر رؤيته ، الزمن ذاته ، فيولى الباطن بعد زوال الظاهر يتلاشى كل ماخلفته قعدة الأم ، كما تبددت بقايا من أمت إليهم ، من أمضيت معهم مدة وجودى الأول ، مامن أحد فى غربتى هذه يمكنه الإشارة إلى حيث كانوا ، وسعوا ، وأقاموا ، نسى أمرهم بالكلية .

عند هذا الحد أقف على دافع من دوافع هجاج أصلى ، أراد المسكين أن يدرك مالايدرك ، أن يلحق مالايمكن اللحاق به ، حتى إذا أوشك على إدراك الكنه ، ولمس مشارف الجوهر ، صدر الأمر ونزلت به وبى العقوبة ، تبدد وذرى ، إنى مشفق عليه ، متفهم لحاله حتى وددت لو مثل أمامى فأحاوره ويحاورنى ، مع أنه أنا وأنا هو ، فما أصعب ألا يكون الإنسان ذاته ، لكننى مالى دهش ؟ ألا ينطق الإنسان جميع الأسماء عدا اسمه هو فإنه ينادى به ؟!

أطيل النظر ، أتعلق بذلك الفراغ الذى كانت تشغله ، هنا أصغت إلى أصوات شتى ، سقوط وعاء .. إصطفاق باب ، نداء بائع ، نتف من محاورة ، أصداء مبهمة ، ولأنها تناغى طفلا لايقدر على النطق . فليس أمامها إلا أن تصغى، من حركة الظل فوق البلاط المربع يمكنها أن تعرف موعد اقتراب بائع البصل، أو من يدعو إلى مبادلة الملابس القديمة بالأوانى الزجاجية والأوعية ، مع كل نداء تتذكر أن البيت بحاجة إلى شيء من هذا ، تنقص أكواب ، براد الشاى تقشر طلاؤه ، الثوم قارب على النفاد وشهور نقصه من الأسواق تدنو ، لكن .. القدرة

منعدمة ، والحمد لصاحب الحمد أن لديهم مايسد الأفواه ويخرس جوع البطن ، أمها لاتدعها ، مع كل قادم إلى القاهرة يمت إليهم بصلة ترسل علبة سمن ، أو جوال طحين ، وحمامات ، أو أوزة مذبوحة ، وماتيسر من البلح والأرغفة ، حتى لو قبضت على نقود وفاض القرش عن حاجتها ، كيف ستنزل الطوابق الخمسة ، لم تكن قد عرفت زمن البيع والشراء بعد ، لن يطول بها الأمد ، فسعيها أوانه قريب ، هذا ماأحطت به علما .

إنها الآن وحيدة .. مرات قليلة نزلت فيها الدرج بمفردها ، فقط عرجت على شقة نعيمة الممرضة صاحبة إبنة أم هدهد ، لابد أن تمر بشقة السيدة فوقية ، تبادلها التحية ولاتخالطها ، تتعذر بحجج شتى حتى لاتلبى دعوتها لشرب كوب شاى عندها . قال أحمد إنها عملت راقصة ، وأن رجالا أغرابا يزورونها ، وأنها ادخرت أربعمائة جنيه من المال الحرام . وأنها تقرض النساء بالفايظ ، إن تجنبها أفضل، إذ تراها، تأخذها رجفة، تتذكر مجيء الغوازى إلى جهينة، اللاتى يغوين الرجال ، ويخطفن الصغار ، البيوت تغلق أبوابها عند وصولهن ، والأولاد لايسمح لهم الأهل بالخروج حتى ابتعادهن. لن تختلط بفوقية، أما صعود نساء البيت إلى السطح فأمر تم حسمه ، بعد سكناهم بأيام معدودات ، طلعت ثريا إبنة ساكن الطابق الأول تحمل سجادة قديمة لنشرها فوق جدران السطح . أحمد غضب ، رمى السجادة فوق السلم . زعق معلنا أن السطح من حق ساكنه لاغير ، ولن يصعد إليه غريب ، خرجت السيدة وجيدة وصاحت مهددة ، متوعدة ، وسمعتها الأم تقول إنها قريبة لوزير التموين فى حكومة الوفد ، جاوبها أحمد بقوله إنه لايهمه تهديدها وأن وزيرها هذا لايضر ولاينفع . تهددته وتوعدته . وأكدت أنها ستقطع عيشه من وزارة الزراعة ، فسخر قائلا إنه قطع رجلها بالفعل من السطح ، أرجف الأمر الأم ، حاولت تهدئة رجلها وتهوين الأمر ، أن تعود به إلى الغرفة ، غير أنه طمأنها ، إنه يعرف ناس مصر ، لوسكت أول مرة سيطلعون إلى السطح فى كل حين ، يكدرون عليهم عيشهم ، ويجرحون عوراتهم ، بعد حين استقر الأمر ، وخلال الأيام التالية التقى أحمد بزوج السيدة وجيدة ، وتعاتبا ،

عرف أنه من طهطا ، البلدة المجاورة لجهينة ، أى صدفة طيبة ، غير أن الأصول أصول ، واستقر الأمر .. لكن إلى حين ، وهل يدوم شيء أبدا ؟

إنها تصغى إلى نغمات سبحات مصدرها مذياع السيدة وجيدة ، تدركها فى مجملها ، تعرف الآن بعد طول مدة أن لكل فترة من النهار موسيقاها وأغانيها فى الصباح النهارى ، مع خروج الخلق ، إلى أرزاقهم ، يتموج صوت أم كلثوم فضائيا كونيا كترقرق الضوء على أطياف مذهبة ، تنشد لصباح الخير ، تمنى النفس بلقاء الحبيب باكر ، أغنيتان ترددتا على البعد ، لونتا بداية النهارات ، ورقرقتا أيامها ، وقد انتقل ذلك إلى أصلى ، بقى معه هذا التأثير ، أهو موروث أو كسبى ؟ لاأقدر على الجزم . على التحديد . لكننى ملم بأصباح شتى عاشها فى موطنه ، وفى مدن غربة . ومنها حدائق تعد من علامات هذا الكوكب ، غير أن النهار لم يكن ليشرق فى صبح نفسه ، إلا عند سماع هاتين الأغنيتين ، وأضاف إليهما صوت مغنية عرفها صبيا ثم فتيا ، قدّ صوتها من ضوء سلسبيلى نجومى ، ليلى مراد ، إذ يستمع إليهما يمشى فى الأرض مرحا ويبسطها كل البسط ، ليلى مراد عرفتها الأم فى لحظات الظهيرة ، قبل النغم الذى يسبق نشرة الأخبار والمبشر بقرب انتهاء وحدتها بعد عودة أحمد ، فى بيت الشيخ قبيصى كانوا يفتحون المذياع الذى يتصدر صالة البيت ذات ظهيرة نائية ، ظهيرة يوم لايمكن تعيينه الآن عندى أو عندها ، أصغت إلى نغم شجى لغ فى قلبها فمس الجانب الغامم من شغاف القلب ، صوت يغنى كأنه الالتفاته الحسرى المصاحبة لبدء الرحيل ، أو الحسرة المصاحبة لظلمة القلب عند الإيغال فى البعد ..

على بلد المحبوب وديني
زاد وجدى والبعد كاوينى

مس الغناء أغوار روحها وأقسى لحظات غربتها، كأنها التقت بيوم تاه منها عند منبع الغسق ، كأنها لمحت عزيزا ، غائبا عند حد الأفق فهمّت لتدركه لكن أعجزها الأمر فبمقدار قربها يكون ابتعاده ، كأن أشواقها تزحم الفراغ الفاصل

بينها وبين جهينة ، رفيف لايرى ، وترجيح لايدرك بالحس لم تلقه من قبل إلا عند إصغائها زمن طفولتها إلى مديح والدها لخير البرية ، سيد ولد آدم ، رد الله غربة أبيها وأمّن رحلته ، تطيل الإصغاء إلى كل نغم قادم من بعيد ، علّها تتقصى شواردها ، بعد إصغائها خشيت ألا تسمعها مرة ثانية ، أوحشت أيامها التالية بدونها ، تباعد الأمر ، حتى دنت منها لحظة أثناء عبورها الطريق المؤدى إلى ضريح السيدة عائشة رضى الله عنها وأرضاها ، لم تدر مصدر انبعاثها أو المذياع الذى يبثها ، أو الفونغراف الذى يرددها ، هكذا جاءت إلى سمعها عبر النواصى والمنحنيات القديمة والمقاهى العامرة التى تمد الخطى أمامها اتقاء لنظرات الجالسين، ودت لو تطلب من أحمد التمهل ، لكن كيف تطلب ذلك ؟ أتقف بين الرائح والغادى لتستمع إلى أغنية؟ أرهفت السمع بينما النغمات تنسل منها وتنأى ، وكلما وهنت تمكنت من خباياها ، هنا فوق السطح تستعيدها ، تتمتم بها خفوتا ومجاهرة ، غناؤها لايبدأ إلا إذا تمت وحدتها وابتعد الشريك ، هذا النغم صاحبها إلى آخر الحد المقدر لها ، فسبحان من له الدوام ، إذ أنطلقت فيها هذه الأنغام مايصعب على اللسان النطق به ، وولدت عندها معانى لايمكن التعبير عنها أو تعيين آثارها . كذا أحيت أوقاتا مواتا ، وسقت لحظات جفت ونضبت .

أقول أنا صورة جمال ابنها وقد أطلعت منها على دمع جرى ــ إذ تنشدها مستعيدة أيامها الغوارب ــ أقول : يامن نظمت لك المنة ، يامن شدوت فأثرت الراسيات الكوامن ، يامن أبدعتم هذه الأنغام ، لكم السلام من شفوق ، مبدد ، أنوب عنه ، ولد هذه البنية التى أراها فى زمن فتوتها ، وخضرة غضاضتها ، هذه الأغنية سلوتها . وباعثة حنينها حيثما كانت أو تولت ، إلى جهينة ذات الورد والنخل والظلال والطفولة الضائعة ، عند هذا الموضع ، قرب حافة السلم ، تشعر أنها نائية ، أنها قصية عن البيت القديم . عن روائح شتى تتفجر عند لحظة غير متوقعة ، أو عند انحناء النغم إلى منعرج يتصل فيه الحنين بالحزن العميق ، تلك رائحة الأرغفة بعد تخمرها فى الشمس ، وهذه أطياف من رائحة الدوم العتيق ، والقمح فى صوامع الطين ، والروث الذى جف ، والبوص ، كذا وقود الفرن ،

واللبن الرائب فى أوانيه الفخارية ، والطماطم المنتزعة لتوها من جذورها ذات القشرة الصلبة الناعمة ، رائحة ثياب أمها ، عبير حضورها ، عند حافة السلم تلك تستعيد إيقاع اليوم فى جهينة ، تقرن مايجرى هنا بما يقع هناك ، تصغى إلى آذان الظهر ينبعث من فوق المآذن القريبة القصية ، ترى أمها تجلس أمام الفرن ، شقيقها فى السوق ، اقتراب الليل وتلملم الأحباب ، والأصوات المسائية الغامضة .

هذه القعدة ياإخوانى تنز باللحظات المولية ، تنزف توقا إلى الأيام الغاربة ، ماحير أصلى تبدل مشاعرها فى السنين التالية ، كان يشب عنده حنين إلى جهينة فيعلن عزمه السفر ، عندئذ تقطب ملامحها ، تلوح بيدها « لاتروح ولاتجىء ... ماذا يعجبك فى جهينة ؟ » . ماذا بدد أو أفنى ؟ أهو رحيل أمها عن دنيانا ؟ أضيقها بفضول النساء ؟ أم أنه جفاء يخفى رقة لايمكنها الإعلان عنها ، أم خوفها على أصلى من الحسد ؟ هذا ماحير أصلى زمنا ، غير أنه لم يشرع فى التقصى إلا بعد فوات الأوان وانتهاء الأجل ، فخذوا العبرة ، لاترجئوا ولاتتقاعسوا ! . كم وددت أن أفيض وأفصل ، لكن هذا ليس بالأوان المناسب ، ذلك أنى مشغول بقعدتها تلك ، بانفرادها ، بوحدتها ، وقد عرفت قعدات أطول فى خريفها وقرب شتائها الذى لم يدم طويلا ، بعد بدء تساقط زهراتها وشح فروعها وانعدام ثمارها ، من ذلك انتظارها الطويل بعد أسر جمال ــ أسرى ــ وسجنه ــ سجنى ــ وإنى والله لمحدثكم عنه .

بـــدء الغمـــة

هذا مكان آخر ، مسكن مختلف فى الحارة ذاتها ، فالزمن متقدم عن الوصل السابق ، حجرتان ضيقتان يصلهما ممر صغير يؤدى إلى دورة مياه وزاوية صغيرة فيها الموقد وآنية المطبخ . الأم تنام فى الممر وبجوارها الابنة ، من هى

شقيقتى فى هذا الوجود ، أصلى ينام فوق سرير خشبى عتيق إلى جواره منضدة من خشب رقيق ، مثقلة بكتب شتى ، منذ أيام مضت هو فى كرب ، إذ اعتقل صاحب له كان فى ذلك الحين عنده بمثابة الشيخ لمريده ، كان هاديا له ومرشدا ودليلا أثناء خروجه من زمن جاهليته ، اسمه صلاح ، إلا أن أمرهما لم يتصل شأن أمور شتى لاتتم وأحوال تنقضى وطرق تكون صالحة للسير ثم تصبح غير معبدة ، صار الود إلى جفوة ، ولو أن مخلوقا أطلع على حزن أصلى وروعه وألمه عند تلقيه نبأ صاحبه لما ظن أن الصلة ستخرب يوما ، لكنه الإنسان ، كل يوم فى شأن ، وهذا أمر يطول شرحه وتفصيله فلننثن عنه خشية التيه والضلالة عما نحن فيه . أما الآن فإنى مراقب لهدوء البيت الليلى ، أنفاس النيام مسموعة ، كم الوقت ؟ ربما الثالثة والنصف أو الرابعة ، تتردد طرقات بغيضة ، صداها آمر ، ثقيل ، مقتحم ، لايرتدع ، الأم فى الصالة تقف متسعة العينين ، بها رجفة ، هذا قدر لم تعد له العدة ، يخرج الأب من الغرفة الأخرى ..

« من ؟ »

فيجيبه مداهم الليل والدعة ، مفرق الجماعة ، مبدد الألفة ، يلفظ اسمه مقرونا برتبة الرائد ، وإننى لمتسائل هنا كما يتساءل أصلى ، لماذا يقومون بذلك فى عمق الليل دائما ؟ أيستعصى عليهم ذلك نهارا ، إلا أنهم يزرعون الخوف ويبثونه فينقلب عليهم بعض منه ، أيخشونه وهو أعزل وحيد فى مواجهة هذا البنيان كله من ترتيب وتدريب وتلقى محاضرات وتعليمات ورصد وتراكم خبرة فوق خبرة . لماذا يجيئون دائما فى الليل ، لماذا النصف الثانى منه دائما ؟ .

حيرنى ذلك ، لما فزع أصلى فزعت، ولما انتبه انتبهت ، ولما نظر إلى أبيه الحائر نظرت ، ولما أصغى إلى أمه تقول « لاتفتح » أصغيت ، أجبت بمثل ماأجاب ، « لايا أمى » . جمال ماهو إلا أنا ، والقبض عليه قبض علىّ ، محنته هنا محنتى ، لذا فتحت الباب عندما فتحه هو ، رأيت كما رأى ضابطا يرتدى ملابس مدنية ، وهذا أدعى للخشية والحذر وراءه ثلاثة جنود ثيابهم أيضا عادية ، أومأ لأحدهم كى يبقى أمام الباب ، اتجه الآخر إلى الغرفة التى كان يأوى إليها

الوالد والشقيق الأصغر على ، أما الثالث فتبعه ، داخل الحجرة على يقف صامتا ، كاتما رجفة قلبه ، تلك لحظة ستعمل عملها فيما بعد وتترك جراحا وندوبا صعب اندمالها ، ليته نطق ، ليته بكى ، إنما بقى جامدا ، شاخصا ، يرقب المخبر إذ يقلب الوسادة ينبش الأغطية ، مكان رقاد الأب منخفض يشع دفأ جسده ، المخبر ينتهك موضع الرقدة ، يلج الضابط عمق البيت ، لايصبح للجدران معنى تفقد الأبواب دلالاتها ووظائفها ، وتنبش الأسرار التى تنطوى عليها الأدراج ، يتبدد الستر ، لم يفت الأم أن تلف ابنتها بملاءة السرير فجلبابها قصير منحسر وذراعاها عاريتان ، يتجه الضابط إلى صوان قديم متين اشتراه أصلى من صاحب له ودفع ثمنا له أربعة جنيهات ، صف فيه كتبه وأوراقه ، يرمى الضابط بكل ماتعهده أصلى ورعاه وسفح البصر على أوراقه وسطوره ، يدوسه بحذاء بنى اللون ، مدبب المقدمة ، يكومه ، يبدو جمال متضايقا ، يستدعى إلى وعيه نصيحة مجرب قديم ممن عرفهم إذ قال على مسمع منه يوما ، لاتخف لاتجبن وجادله ولاتسكت عما يفعل . يلفظ عبارة سمع نصها من صاحب مر بمثل مايمر به .

« إننى أحتج .. »

ثم قال مالم يسمع أن غيره قاله :

« إنك تتلف أوراقى وكتبى .. »

أرقب أصلى ، الحق أنه غير هياب ، غير وجل ، لايخشى ، عجيب أمره — أى أمرى — إذ عاش أياما طويلة يرتجف كلما تخيل هذه اللحظات ، يحار .. كيف سيقابلها ، كيف سيتصرف إزاءها ؟ كيف سيواجه وطأتها ، غير أنه الآن وقد حل بها وحلت به راسخ لايميل ولايخشى ، حريص ألا ينحنى ، متأهب ، مستنفر لرد الإهانة ، ألا يضطرب أمام أمه وأبيه وأخته وأخيه . حتى إذا انقطع عهده بهم ، وحالت بينهم وبينه الأسوار والأبواب المغاليق ، أو انقضى أجله تحت وطأة تعذيب أو نتيجة قصد مبيت ، ذكروه ذكرا جميلا ، وحق لهم التباهى بآخر صورة رأوه عليها وهو يتأهب للذهاب إلى المجهول ، عندئذ لن تخجلهم سيرته ، سيقولون إنه لم يهن ولم ينثن ، وأنه مضى رجلا .

مازال الضابط ينتقى بعض الكتب والأوراق ، كل ماهو مخطوط .
« هذه مذكراتى الشخصية .. لماذا تأخذها ؟ »
يتطلع إليه وعلى ملامحه سخرية المقتدر ..
« تحركاتك وأفكارك .. »

يكظم بغضه ، يقهر ضيقه ، هذه الكراسة ذات الغلاف الأحمر تحوى المكنون الذى تصور أن مخلوقا لن يفضه ، اللحظات التى رأى فيها سعاد ، أو أصغى إلى صوتها ، ماتردد فى خاطره ، كذلك صورة عثر عليها فى مجلة أجنبية لفتاة تشبهها إلى حد كبير ، فقصها ، واحتفظ بها بين دفتى هذه الكراسة ، فى أيامه التالية ، فى سجنه الانفرادى بالقلعة ، فى سرحاته ، فى سفراته إلى المدن القصية ، فى لحظات تواجده بين جمع وصحبة ، يضيق خنقا كلما تذكر أن عيونا غريبة تفرست سطوره ، اطلعت على خباياها ، ماسطره ، بعد سنوات عديدة لم يكف عن التساؤل ، أين مستقرها ، إلام آلت ؟ ، ليس دفتر خواطره فقط إنما مراسلات الصحب ، وكافة ما التقط له من صور حتى هذا العمر الطفولة ، المدرسة ، الرحلات إلى الأماكن الخلوية مع الصحب ، صور الزملاء المهداة فى نهاية الأعوام الدراسية ، يمسكها الضابط ويلقى بها إلى مايعتبره مضبوطات ذات شأن خطير، إنه لايضيّع صورا إنما يبدد لحظات أمكن تثبيت ملامحها، من الصبا المزهرى، من بداية غضاضته، يعتقل الأزمنة الآمنة واللحظات المؤدية، والمشاعر التى كان يمكن أن تولد عند الانفراد والنظر إلى هذه الرسوم، يبدد تاريخا بأكمله إلى الأبد، فما أخذه لايمكن استعادته.

حدث بعد أن نقلوا أصلى إلى سجن القلعة ، وصار إسمه رقما ، إذ يدخل عليه الحارس وهو مخبر يرتدى أيضا الملابس المدنية ، يصيح به :
« خذ ياأربعة وثلاثين .. » ، « تعال ياأربعة وثلاثين » ، قضى شهرا وعدة من أيام أخر ينادى كرقم مجردا من كل هوية ، كانوا يخرجونه مرتين ، فى الصباح ، وفى المساء لقضاء حاجته ، ومرة عند نهاية كل أسبوع إلى حمام قديم ،

أنابيب المياه المؤدية إليه تمر بفرن عجيب ، وعندما نزعوا العصابة السوداء عن عينيه رأى مخبرا غامق السمرة ، يمسك بعصا فى يد ، ويتناول أوراقا وكتبا بيده الأخرى يطعم بها النيران التى تئز وتضطرم ، أوراق وكتب لمح بعضا من عناوينها ، مضبوطات تم اعتقالها، هذه لحظة بقيت عنده حية شائكة حتى بدء معراجه من فاس المغربية ، وانتقلت إلىّ بحكم الورث ، فأنا وارث لها وساع بها ، ومن جزئياتها هذا الغلاف ، « الآمالى » للقالى ، لحظة تناوله وتطويحه إلى اللهب ، لابد أنهم طوحوا بكراسته هكذا ، بعد إشباعها فضولا وفحصا ، كان أصلى ضنينا بكل ماخطت يداه . لايفرط فيه إلا لأمر قسرى ، ولكن فى هذه الليلة تبدد ماتبدد ، فيا أيها الإنسان ماأظلمك ، ماأضلك ، لقد حفر هذا فى نفس أصلى آثارا شتى ، فما من سطور كتبها فيما بعد إلا ظن أن غريبا سيغتصبها قسرا ، ومامن كتابة شرع فيها إلا ظن أنها لن تكتمل ، ومامن رقم هاتف دونه إلا ظن أنه مساءل عنه يوما ، ومامن خطاب وصله إلا خمن أنه قُرأ قبله ، هذا كله صار عندى ، صعب علىّ تحمله ، فمالى أنوء ، وماذا جنيت حتى يحل بى ذلك ؟ ، أقول هذا وأنا أعطف على أصلى ، مشفق عليه ، أدرك كم عانى ، وكم أخفى ؟ ، هذا حق .

إنى محدق ، محيط بهذا الضابط إذ يفرز ويتفحص مكنون الصوان ، حقدى يتأجج ، لكم وددت الاطلاع على الصور القديمة لأرى ملامح أصلى فى الأزمنة المولية ، ملامحه أى ملامحى ، وقفته بفناء مدرسة عبد الرحمن كتخدا الابتدائية ، مدرسة محمد على ، مدرسة السلحدار ، فى حدائق الحيوانات ، القناطر الخيرية ، مقابر الأقصر ، وادى الملوك ، الملكات ، قبة سيدى أبو الهواء فى أسوان ، تلك الوقفة عند دير الأنبا سمعان ، وهذا التسلق للمرتفع الصخرى المؤدى إلى مدينة هابو ، أما الصورة التى تسجل وقفته بجوار أمه وأبيه وأخوته الثلاثه فى حديقة الحرية فشأنها فريد ، لاأعرف صورة للأم قبل هذه السن ، لم يحدث فى طفولتها أو فتوتها أن وقفت أمام آلة تصوير حتى هذه اللحظة ، من ذلك اليوم المجهول فى شهر يوليو عام ألف وتسعمائة وأربعة وخمسين . كيف

كانت ملامحها قبل هذا التاريخ ؟ ، هذا مالايمكن معرفته ، مالا أقدر ومالم يقدر أصلى الاطلاع عليه . كيف كانت تبدو عند هذه الفترة ؟ كيف كانت ترى قبلها ؟ . يعرف قبسا من ذلك بعض ممن عايشوها وعرفوها فى الطفولة وزمن الصبا ، لكن .. أنى لهم ناصع الذكرى وقد أوغلت الأعمار فى التقدم ، وبعضها يدنو من المحط الأخير لحظة تدوينى هذا ، مهما بلغت الرؤية ، ودقة الوصف ، وقدرة اللفظ ، محال .. فما تبقى فى خزانة كل فؤاد سره لاسر غيره ، فوداعا ملامح الأم التى غيبها الزمن ، طواها ، وداعا هذه الصورة التى لاقت حتفها على يدى هذا الضابط ، فبددها وضيعها وهو جاهل بما بدد ، بماضيع ، لعنه الله فى حله وترحاله، ومرر عليه قمته ، وأوجع قلبه كما أوجع قلبى، وأورثه الحسرة على موروثه وصوره التى كانت ، رحل أصلى وهو غير مسامح ، كاظم سخطه ، وانى غير مغتفر ماكان منه أبدا ، أضاع ملامح الغالية ، شوهت ملامحه وطمست فى الدنيا والآخرة ، فى الحضور والغياب ، كان يمكن لى التطلع فى خلواتى إلى هذه الصورة ، فأرى الكريمة ، الصبورة ، فأطلع على ماكانت عليه قبل تسعة وعشرين عاما من سفرها الأبدى ، سفرها الذى حضرته وشهدته ، واكتويت به ، وعند تمامه جرى صلحى على نفسى والتئامى بأصلى كان يمكن أن أرى ملامح الأب ، وطفولة الأخوة ، وتقاسيم ، وتعابير ونظرات شتى ياحزنى .. فَنِى هذا كله وتبدد ، ليس عندى إلا صور قليلة ، متناثرة ، متباعدة للوالد قبل تمامه ، كذا الوالدة .

حدث ياصحبى الأغراب عنى ، يامن لن تدركوا أصلى قط ، يامن لن تسبروا أغوارى أنا ، ولن تطلعوا على المنابع التى جئت منها ، حدث بعد رحيل الكريم ، أن اصطحب أصلى شقيقه إسماعيل إلى وزارة الزراعة ، ولمبناها عنده منزلة ومعزة ، فمن كدح الوالد فيه ، ومن نزه العرق فى جنباته ، ومن كتمانه قهره إزاء عسف رؤسائه ، من احتماله الضيم وبذله رحيق العمر وخلاصته بين جدرانه، من كده هنا أمكنه تقويمهما وتجنيبهما ماأشقاه وكدره وحد من آماله وأن يحصلا مافاته، ذهبا معا لترتيب إجراءات صرف معاشه، عند اقترابهما من الممر الذى كان الوالد الكريم يقضى فيه جل أوقاته ، إختلج أصلى وطحا قلبه ، جاء إليه من

زاملوا الراحل عمرا لتعزيته ، ثم جاء موظف قديم بملف ضخم ، أوراق متراكمة لكل منها مناسبة ولحظة زمنية . قلّب وتحسر ، لمح صورة صغيرة ، حال لونها وأصفرّ ، ترجع إلى عام ثمانية وأربعين وتسعمائة وألف ، عام مجيء الشقيق إسماعيل إلى هذه الحياة الدنيا هذا وجه الأب ، إنه دهش ، منتظر شيئا ما . تعب ، حنين حزن لايطل من العينين إنما يحيط بهما ، كم عمره لحظة التقاطها ؟ لم يكن له تاريخ ميلاد معروف أو محدد تاريخ مجيئه إلى الدنيا مجهول ، أما تاريخ خروجه منها فثابت مدون ! .

فى هذا العام النائى أحالوه إلى طبيب حكومى لتحديد عمره حتى يمكن تدوينه فى تلك الأوراق الرسمية ، أصغى الطبيب إلى القلب فلقيه عفيا ، سليما ، تفحص ونظر ، ثم حدد وقطع ، إنه فى الثلاثين ، وطبقا لروايات القوم من أهل جهينة ، خاصة المعمرين منهم ، فإن الوالد فى هذه السنة تجاوز الخمسين وربما أكثر ، ماوثقت منه أن الطبيب لم ينظر إلى مايحف العينين ، لو أنه رأى تلك الظلال الخفية، لو أنه رأى عمر هذا الحنين الضارب فى الحدقتين، إلى هذا المعنى الذى لايمكن اكتماله إلا بعد الخمسين أو الستين وربما السبعين ، بعد قطع شوط ومقدار فى الرحلة ، لو أنه رأى هذا ، لو أنه دقق ولحظ لكان أنهى خدمته ، تلك الظلال أنبأتنى مع أن أصلى لم يلحظها فى صغرى ، إذ لها عنها ، كان غبيا لايعى ، وعلى عينيه غشاوة فلم ير أعلى الصورة ختم دائرى بلغتين ، عربية وإنجليزية ، حكمدارية القاهرة ، وأسفلها خط مشوش كتب بمداد قديم ، ورقم ليس له تفسير ، خمسة وخمسون ألفا ومائة وتسعة وخمسون .

ماذا يعنى هذا ؟، إلى أى شيء يشير ؟ ماموقعه فى الأضابير ، حيرنى ذلك كما حير أصلى ، أوضح لى يا إمامى الحسين ، ياشيخى محيى الدين ، يادليلى ، ياغامض ، يامن تظهر وتغيب ، يامن أمرتنى ألا أسميك ، حزنى ناطق ولسانى صموت ، أوضحوا لى ، دلونى ، ماذا يعنى الرقم ؟ وماعلاقته بنظرة العينين ، ومعنى التأهب للسؤال فى عينيه ، وماهذه الغيمة على الوجه ، الغيمة التى تحس ولاترى ، هل تبدلت برحيل صاحبها إلى الأبد ؟ أى الصور كانت

تفارق مخيلته عند التقاطها ، وأى الصور كانت تفارقها ، فى أى المواضع جلس عند التقاطها ؟ ومن واجهه ، وتطلع إليه ، وطلب منه أن يعدل الوضع ، لماذا يبدو كأنه على وشك مخاطبتى ؟ لماذا يوحى برسالة لم تتم أو باشارة مبهمة يستعصى إدراك فحواها ، لماذا يغمض علىّ الأمر ؟! أعاود النظر والتمعن ، هل أنبىء وقت التقاطها أنه سيطل يوما بعد رحيله عبرها ، وأن من أنجبه سيتأمل ويأسو .

الورقة مقسمة إلى خانات ، خصصت كل منها لبصمة من بصمات أصابعه ، تلك أصابع يده اليمنى ، وتلك أصابع يده اليسرى . إنحناءات الخطوط وتجاعيدها ودوائرها ، ماانفرد به ، تلك علامات أصابعه التى دب إليها البلى ، التى مابقيت ، التى فنيت ، التى لن تقع عين عليه أبدا ، ولن يحتويها نظر ، الصورة مثبتة فوق الركن الأيمن للورقة ، رجا أصلى الموظف أن يسمح لى بها ، ولأنه أدرك ، ولأنه قدر ، سحبها من الملف وأعطاها لى ، فيالندرة ماتبقى من هذا الجهاد كله ، ويالشح ماوصلنى من العمر الطويل والكد ، فيا مجهولا يترصدنى ، ماالذى سيتبقى منى ، ومنذا سيتطلع إلى رسمى ؟ إلى ظلى بعد اندثارى ؟ ومن سيخلو إلى نفسه ويتطلع إلى صورى التى ستمسى قديمة بالية ؟ من سيجىء ومن سيتذكر نبرة صوتى ؟ .

لك السلام ياأصلى ، يامن رحلت دون أن تبكيك عين ، أو ترثيك دمعة ، أو يدرى بمعراجك أحد ، حتى الأقربون لايعلمون أننى لست أنت . وأننى آخر غيرك مكلف بإتمام ماكان منك ، غير أننى محب لما يبق عنك مشفق ، حان عليك ، وأننى مفض إليك بما قد يبعث راحة عندك إن أدركته يوما ، ذلك أننى بعد استيعابى لما قام به هذا الضابط الجهول ، الغتيت ، خشيت على صورة والدك الذى هو جذرى فى هذا الوجود الأعم . فأنا فى نظرهم أنت ، وملفاتك عندهم إنما هى ملفاتى ، مفتوحة أبدا ، ربما داهمونى ، ربما خربوا ، ربما عاثوا فسادا فى تاريخى ، لذا سارعت إلى صاحب حميم اختص بالتصوير وفنه ، هو صاحبك لايدرك كنهى ، ويظن أنك أنى ، سألته استنساخ صورة الوالد وأن يكبر

حجمها فاستجاب ولبى ، شيعت منها نسخا إلى جهات شتى لأحفظها وأداريها خوفا من المداهمة ، أما الصورة الأصل والورقة التى تحمل بصمات الأصابع فقد دمنتها فى قرار مكين ، أعلم أن هذا يرضيك ، يهدىء ذراتك فى منفاها ويخفف اغترابك فلا تبتئس ولاتحزن إن شرقت أنت وغربت أنا ، فما عندك ورثته ، وماكنته أكون ، ياصاحبى المسكين الذى ضيع ماضيع ، وأفنى ماأفنى ، أعرفك أننى ألممت بهذه اللحظات الأصيلية ، عندما دخل الوالد بيتك آخر مرة . وشكا إليك تلميحا لاتصريحا بعضا مما كابده ، دار بخلدك لحظتها أن تأتى بجهاز تسجيل الأصوات وتدون مايقول ، لكنك أجلت وأرجأت ، ثم سافرت وعدت ، فإذا بالفرصة قد ولت ، فزادت عليك الحسرات .

أقول لك ياأصلى البائس إننى نويت الحذر ، وتنبيه النفس إلى تدارك الأمر ، نويت أن أجلس يوما إلى الوالدة ، وأن استنطقها الماضى الغالى ، أسجل ماتقول فأصون الذكرى ، ولأننى ورثت عنك ماورثت ، رحت أرجىء العزم ، وفى كل زيارة أقرر إتمام النية فى اليوم التالى .. حتى وقعت المباغتة يوم السبت ، وليس الآن مناسبا لتدوينه ، فهذا الحال ليس حاله ، وليس محله ، أكتفى بالقول ، إننى صنت صوت من أنجبتك ، ولكن رغما عنى ، كيف جرى ذلك ؟ لابد من تفصيل ولو يسير ..

الأمــر دورى

.. على غير العادة : وبدون انتظار أو توقع ، رن جرس الهاتف رنينا متصلا دءوبا فى بيتك — بيتى — بعد منتصف ليلة الأحد ، أول ليلة تحل بالدنيا وقد خلت من الأم ، إذ انتهى سعيها وتم سفرها ، أول ليلة تقضيها فى المثوى ، لم تكن ملامحها قد تبددت بعد وإن شاهت ، لم يكن قد تم فناؤها عن فنائها بعد ، ولم تكن أنت فى البيت ، أقصد نفسى ، إذ كنت على مقربة من الشقيقة نوال والشقيق على .. الصغيرين اللذين قدر لهما مشاهدة انتزاع الوالدين من هذه

الحياة الدنيا ، أصغت رفيقة عمرك ـــ عمرى ـــ إلى رنين الهاتف ، وعندما فوجئت بصوت إسماعيل الأخ الذى سافر منذ شهور ثلاثة لطلب العلم وبقى له مثلها ، اضطربت وحارت لكنها ألمت بالزمام ونطقت « أهلا » . إستفسر عن جمال ، فقالت إنه لم يعد بعد . أبدى تعجبا ، ليست عادته التأخر .. ماذا جرى ؟، قالت إنه يودع صاحبا له . وذكرت إسما ، وعندما أنهى المكالمة تنفست وتعجبت ، لماذا يتصل فى هذه الليلة ، الأمر صدفة ؟ أم أنه الإحساس الذى لايدرك ولايبين ؟ . كان إسماعيل قد رتب مع صاحبنا فى الطريق ، يوسف الذى يسكن على مقربة من الوالدة ترتيبا مفصله أن يتحدث إليها مرة كل أسبوعين ، يصغى إلى صوتها فيهدأ باله ، ويستفسر عن نسبة السكر فى الدم ليطمئن ، كذا عن الضغط فى الأوردة ، ولما أقلعت الكريمة فجأة نشبت الحيرة عندى . هل أخبره فتنقلب أحواله وهو فى هذا البعد السحيق ، حيث الوقع هناك أنكى وأوعر ؟ أم أكتم عنه ؟ وكيف أبرر غيابها عنه ، كيف يكون التصرف ؟.

كان قد تبقى أسبوع على اتصاله ، وخلاله بسطت الأمر وأفصحت عنه للناس الطيبين ، أهل الوداد الذين ترددوا عصر كل يوم . يواسون ، ويقدمون العزاء ، ويتلون الذكر الحكيم ، فريق منهم قال إن الصدق منج ، وفريق آخر قال إن الأمر لثقيل على الأخ النائى المغترب إلى حين ، ومابين هذا وذاك حرت ، فماذا أفعل ؟ .

بعض الصحب قالوا بكتابة خطاب ، ولكن إخباره فى الهاتف فظيع ، فالمدة محدودة. والعبارة عاجزة، مع مرور ليلة إثر أخرى مدت إلى ضرورة الكتمان ولو إلى حين . لكن .. ماذا عن اتصاله ؟، قلت لصاحبنا فى الطريق يوسف ولامرأته ولعياله ، إن ميعاده معلوم ، ورنين الهاتف له علامة ، فلا تجيبوا ، وبالفعل أصغوا طويلا إلى الرنين حتى صمت ، مرت دقائق ثم عاود الكرة ، لكن لم يجبه أحد ، فانتقل إلى الهاتف عندى . بذلت الجهد لكى أبدو عاديا ، سألنى ملهوفا ، لماذا لايجيب يوسف ؟ ، فقلت إنه ربما خرج ، غير أنه ذكرنى بتحديده الموعد قبل أسبوعين ، اكتسى صوتى جدية مشوبة بتجهم ، قلت إن خلافا وقع بينى وبين

صاحبنا يوسف ، ونسبت إليه فرية لم يأتها ، وقلت إننى طلبت من الوالدة ألا تذهب إليه ، ألا تتردد على بيته ، وأبديت الوعد بالبحث عن هاتف قريب من البيت يمكنها أ تتحدث عبره ، بدا حائرا حتى أنى أشفقت عليه ، وصباح اليوم التالى أخبرنى من أثق به أنه كتب فى مفكرته أرقام ثلاثة هواتف ممن كان يجاورهم أثناء تأدية الفريضة فى المسجد القريب ، ومنهم إمام المسجد نفسه ، سعيت إليهم ، رجوتهم ألا يخبروه بالرحيل الأبدى ، أبدى الإمام ترددا ، وقال إن هذا كذب يعاقب الخالق عليه ، فوضعت الأمر بين يديه فلبى وقال إنه سيطلب المغفرة، وكان ماتوقعته، إلا أن شبهة لم تتسرب إليه، وخلال مرات اتصاله بى ، كنت أبلغه تحيات الكريمة ، وأنقل إليها رغبتها فى شىء ما ، آلة تخفف عنها عبئا منزليا ، أو قطعة قماش ذات لون معين تحبه شقيقتنا وتخجل من طلبها ، وخلال هذا كله حرت فى أمرٍ همنى وأقضنى ، ذلك أنه قبل سفرها مر بها زميل دراسة مسافر ليلحق به ، وأبدى النية لحمل ماتريد أن ترسله إليه ، وطلب شريطا مسجلا ليسمع إسماعيل صوتُها باستمرار ، أخبرتنى بذلك . فقلت لها إننى سوف أحضر فى المرة القادمة شريطا ، وكأنها كانت تدرك دانًى وبلائى ، إذ قالت بلهجة من يدرك أن الوعود قد لاتتحقق ، « لاياعينى .. اشترينا شريطا وسجلناه .. » ، ماعذبنى أننى كنت أود أن أطلب من إسماعيل الحفاظ عليه ، إذ يحتوى أثرا غاليا من الكريمة الراحلة .

فيما بعد أخبرنى شقيقك وشقيقى ، أن الهواجس كانت قد نالت منه وتمكنت ، وأنه عندما أوغلت الشكوك فى قلبه حفظ هذا الشريط على مقربة منه ، وإذا خرج يضعه فى الجيب الملاصق لقلبه ، وعندما نزل من الطائرة تحسسه ، وعندما حانت لحظة فراقه الأرض الغريبة قبل سماعه الهاتف وبكى طويلا ، فمنها سمع صوت أمه الذى كان حسه الخفى ينبئه أنه لن يصغى إليه أبدا ، هذا الشريط ياأصلى المسكين عندى نسخه منه ، ولكننى حتى زمان تدوينى هذا لم أجرؤ على سماعه ، لم أقدر على الإصغاء إليه ، هذا فوق احتمالى وخارج طاقتى ، أما إذا شاء الدهر وعدت مرة ثانية فستلقاه ، نسخة فى درج مكتبك ، ونسخة

فى مكان لن أبوح به ، ذلك أننى أخشى ضياعه وفقده على أيدى القوى الشريرة التى لها الهيمنة والقدرة على اقتحام البيوت والنيل من الأمور عميقة الخصوصية كما جرى لك مع هذا الضابط ، أما ماعقلته فنفى الطمأنينة البحتة .. ذلك آن الأمر دورى !

« ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة »

قرآن كريم

هاهوذا الضابط ، يخرب ولايضبط ، يفسد ولايتفحص ، فإذا قابله كتاب من جزءين سطا على أحدهما وترك الآخر ، حتى الورق الأبيض .

لماذا الورق الأبيض ؟

يرفع وجهه ساخرا ، متمكنا ، مدعوما بقدرات لاترى ..

لطباعة المنشورات طبعا ..

يقول أصلى :

إنه ورق الكتابة .. وليس للطباعة ..

يبدى تجهما :

هل ستعلمنا شغلنا ؟! .

حاشا ياغشوم ، كلا ياوطأة القيظ ، أبدا ياطول المرض ، ياجدوبة الزمن ، يامفرق الأحبة ، مصادرته الورق أثارت حنق أصلى ، انشغل به حتى أنه رآه فى منام أيام سجنه الانفرادى ، رأى كتبه مصفوفة ليس كمارتبها وفهرسها ، تتوسطها رزم الورق ، شقيقته الصغرى غلفت الكتب وكتبت إسمه على قدر طاقتها فى ذلك الوقت أثناء غيابه القسرى ، أما الوالدة الملوعة فرتبت ونفضت الغبار مرارا ، كانت تدرى وتعلم أنه قتر على نفسه ليقتنيها وليصونها ، وأنه من أجل ذلك عاش فى كبد . وهنا رحلت بالنظر إلى لحظات شتى ، أول عهد أصلى بالكتابة ، أنه يجلس إلى الطبلية المستديرة ، فوقها كراساته ومداده وقلمه ، خشبية ، قصيرة القوائم رافقتهم زمنا ، فى آونة الطعام ينتظمون حولها ، فى الليل يمسح سطحها ، أو

يفرش صحيفة قديمة ، يبدأ انكبابه ، إنه ينتزع ورقة أو ورقتين من كراسات المدرسة ، يصوغ كلماته ومايراه ومايفيض به . تقعد الوالدة أمامه ، لاتنطق ، لاتتكلم ، هكذا اعتادت حتى يفرغ ويقوم ليتمدد ثم يرحل عبر نومه عندئذ تغمض عينيها ، إذا غلبها إعياؤها وتعب النهار الطويل فى قعدتها هذه ترفع رأسها بغتة ، مبتسمة ، تلفظ كلمة ، تسأله إذا كان بحاجة إلى شىء ما ، فيقول مشفقا :

قومى نامى ياأمى ..

تقول مبتسمة — والله حيرتنى ، هذه الابتسامة حتى لاأدرى كيف اقترب منها ، ومن أى جهة أنظر إليها ، فلكم أسرتنى وداعتها ، ومالت بى لرقتها —

أتظننى نائمة .. أنا صاحية ..
يقول فى لحظة أخرى ..
أنا فى حاجة إلى ورقتين أو ثلاث ياأمى .
تقول :
والله يابنى الفلوس شحيحة وماعندى إلا ماترك أبوك لحاجة البيت ..

يصمت ، وتصمت ، عنده حاجة للورق ، ورق الكراسات لايصلح ، يريد أن يقدم ماكتبه إلى الجهة المعنية فى أحسن صورة . آخر القعدة الليلية ، قبل عودة الأب من مسجد الإمام الحسين ، تقول :

« اسمع ياجمال .. »

إنى مصغ .. فتلك عبارتها عندما تقرر أمرا ، أراها تدس يدها فى صدرها تخرج منديلها المصرور على دراهم معدودات ..
« خد قرشين .. »
ثم تقول :
« اشتر ماتحتاج إليه »

ثم تقول :

« لاتحزن أبدا .. »

ثم تقول وفيضها الأمومى يندى .. ثم يقطر ثم يغمر ..

« أنا سأدبر حالى .. »

يتطلع صامتا ، ماذا بوسعه أن يقول ؟ حتى وإن لم ينطق .. فإنه يدرك وصول مايريد الإفصاح عنه إليها ،. وأن مكنونه الذى لم يفض به فى رتبة منيعة الحس عندها تقتر على نفسها ، تدخر من قوت البيت ، لاتخبر الأب فحاله ضنك ، مايعنيه انتهاء أصلى من دراسته ، أما مايخرج عن كتب المدرسة ، ومايقتضيه نجاح آخر العام فأمور كلها معطلة يجب تلافيها ، ترقب الأم انحناءه ، والضوء الأصفر الباهت ، لاتدرى مايخطه قلمه فوق هذا الورق ، إنما هى راضية لأنه ساكن ، أورثته هذه الأوقات قلقا ممضا خفيا ، أطلعت عليه وكابدته ، ألا يجد مايخط عليه سطوره ، أن يفتقر يوما إلى الورق ، قلق منشأه حقب العسر والمشقة ، ضاعف منه وأججه سطو هذا الضابط على أول أربع رزم يدخرها ، ثلاث أعطاها له زميل يعمل على الطابعة فى ديوان المؤسسة ، والرابعة جاء بها الوالد من موظف بالوزارة ، قلقه وخوفه من نفاد الورق الأبيض لم يفارقه منذ ذلك الحين حتى بدء معراجه ، واغترابه عن الحياة الدنيا ، له حسن السعى ، ولى الصبر على ماأرى ، وماأعاين .

قفلت راجعا إلى تلك اللحظة التى بدأ معها النخر فى أغوار الأم ، عندما وقف الضابط ، وخاطب أصلى ..

« تجهز فستجىء معنا ..»

حتى نطقه ، تعلقت آمال الأم بانصرافه ، فليأخذوا ماشاءوا من كتب وأوراق ، من محتويات حتى ، ألم ينتزع ملاءتى لسريرين وكوم عليهما رحيق عصور خلت وخلاصة أزمنة من شعر وقصة وفكر ، ليأخذوا مانهبوا ، ولكن .. جمال ؟!، أن يخرج بصحبتهم من هذا الباب ؟ من يدريها متى يكون دخوله إذا

عاد ؟ تراءى أمامها ظلام مابعده ظلام ، وآبار جافة ، وطرق لايدوسها أحد ، وصخور تنز حرارة القيظ ، آلام لاتطاق يجض منها من حنت عليه ، ومن رعته ، خلع أظافر ، وكوى باطن قدم ومالايطيقه بشر . فى المطبخ إنحنى على الصنبور الوحيد يغتسل قبل أن يولى وجهه شطر المجهول . يلمح أباه يرنو اليه ، غير مدرك ، غير مصدق بعد لما يجرى ، فتلك لحظات لم يعد لها عدة ، يهمس بسرعة .. « اذهب إلى أمين عز الدين واطلعه على ماجرى .. » .

أمين هذا صاحب ممن عرفهم أصلى أول عمره ، رجل طيب ، فيه قبول ، وله مقدرة ، وعلى يديه تم جريان أول رزق لأصلى ، إذ تسبب فى الحاقه بوظيفة وإنهاء فترة بطالته التى دامت عامين من الضنى ، استمرت صلتهما مع تقلب الأحوال . ولهذا تفصيل طويل يصعب شرحه الآن ، وسوف يرد فى الحال المناسب والظرف المواتى فلكل نبأ مستقر .

أما الآن فإنى ذاكر لكم لطيفة ، ذلك أن الرجل كان فى ذلك الوقت ذا مهابة ، وله شأن فى التنظيم السياسى ، ويجتمع بجمال عبد الناصر . يصغى إليه ويحاوره فى زمن لم يره أصلى إلا فى الصور أو المواكب ، لما سمع الوالد اسمه تبدد بعض من حيرته ، فحتى اللحظة لم يكن يدرى إلى من سيسعى ؟ فكل الأقارب ، والمعارف ، وأبناء البلدة يقصر نفوذهم عن هذا الملم .

فى أول النهار واليوم أحد ، مشى حائرا مأخوذا حتى وصل إلى وسط المدينة ، توقف أمام باب المقر ، ولما سأل من يقف بالباب تطلع إليه فى شك وريبة ، أفضى إليهم بالسبب ، عندئذ أخبروه بما حيره ، أمين عز الدين معتقل منذ ليلة أمس ، ربما فى نفس اللحظة التى انتزعوا فيها ابنه ، كان المكلف بالباب رجلا من القوم ، لما رأى جزع الأب وملامحه المكدودة المرهقة بثقل سنين طوال ، رق له ، أشفق ، دعاه إلى الجلوس واستفسر منه عما أتاه ولده ، أى جناية ؟ هل أخطأ فى حق الوضع القائم ؟ ، لم يجب أبى إنما صمت ، ليس عن كتمان ، وإنما عن حيرة ، وإنى والله مثله ، وحيرتى من حيرته ، فكل مااطلع عليه يخصنى ، ويلزمنى ، وقد جئت إلى هذا الكون الغريب منفيا فإذا بى أواجه مالم يخطر ببالى ،

ومايبدو معه كل ماقاسيته فى زمنى القديم يسيرا .. هينا ، اتطلع حولى ، علىّ الملح دليلى فى هذه الأحوال ، أليس هو سيد الوقت ؟ لماذا لايشرح لى ، لماذا لايفسر لى ؟ غير أن نظرى لم يقع عليه ، ظهوره ليس رهن مشيئتى ، من هنا أضمرت العتاب والنية على الاستفسار .

انثنيت إلى هذه اللحظة من فجر الأحد تاسع اكتوبر عام ستة وستين وتسعمائة وألف ، ينظر الضابط إلى ملاءات السرير الثلاث وقد انتفخت بالكتب والأوراق والمواد والمعانى ، عقد أطرافها فصارت بقجا ضخمة ، ينحنى الأب ، يحمل أضخمها وأثقلها بعد أن يمسك طرف جلبابه بين أسنانه ، تبدو ساقاه النحيلتان الصلبتان وقد توترتا ، تماما كما رآهما أصلى فى المواقف . عندما حمل أجولة البذور ، يحمل المخبر واحدة ، وأصلى الثالثة ، وهذا مما أثار ضيقه فيما بعد ، وعده تنازلا فى حق نفسه ، غير أنه علل الأمر وبرره بعدم الرغبة فى تأجيج مشاكل قد يكون لها انعكاسها المزعج على الوالد والوالدة والشقيقين . عند نزوله أولى درجات السلم صاحت الأم :

« ياكسرى .. »

تلك صيحة أرجفتنى ، فعندما تلفظها المرأة الكتوم ، فذلك يعنى أن الأمر بلغ مداه واشتد ، إن مايخشاه المرء قد وقع ولاراد له ، فيها الجزع المقطر ، والأسى عينه ، وأصل الخوف القديم ، وقد سمعت نساء يطلقن هذه الصيحة فى زمنى الأول ، تتغير اللغات وتتبدل اللهجات غير أن اللب الإنسانى واحد ، تنزل الأم درجتين غير أن الضابط يشير بيده ..

« ارجعى .. وإلا أخذناك معه .. »

تلوح بيدها غير عابئة ، متألمة ..

« خذونى معه .. »

اختفوا عند منحنى السلم ، تنزل حافية ، لم تثبت إلا عندما استدار جمال وطلب منها أن تبقى ، تتابع خطوهم فوق هذا الجزء من الحارة ، راجية ألا تنقضى

اللحظات ، أن يقع أمر مفاجىء يبدد هذا كله فتراه يرجع متمهلا ، يجتاز الباب ، يتمدد فوق السرير ، تتردد أنفاسه هادئة ، يتبدد ماجرى كله ، يتلاشى الفزع وينتهى الفقد ، غير أنهم اختفوا عند المنحنى ، وببلوغ جمال هذه الناصية يتم وقت انتزاعه ، ويبدأ زمن غيابه . وهذا أقسى مامر بها . وأشد ماعانت حتى هذه الفترة .

والمعروف المقطوع به أن الخوف على الحى الغائب أمر وأقسى من الحزن على الميت ، فاليأس من اللقاء تعقبه راحة ، وخروج الميت لاترجى معه رجعة ، أما الغائب ، المغترب قسرا ، فنار الحسرة عليه لاتهدأ ، والأمل فى عودته لاينقطع . يقترب منها الابن الأصغر مرجوفا فزعا ، أما نوال فتحاول أن تكون الصاحبة المؤنسة، للحظات القفر هذه ، يطرق الباب، يتوافد الجيران ، عطيات، وزوجها ، أم سهير ، سعدية من البيت المقابل ، يوسف صانع التماثيل الخشبية ، تتساءل أم سهير :

« ألم يكن ممكنا أن تدفعوا للضابط جنيهات خمسة ويتغافل عنه ؟ »

تتخيل الأم سريان ابنها عبر طرقات المدينة الآن ، أى الشوارع يسلك ؟ أى النواصى تتوارى عن عينيه ؟ فى أى الأماكن سيأوى ، وتحت أى سقف سينزل عليه الليل ؟ . كيف سيقع الخبر على أخيه إسماعيل الذى يقضى الآن أول أيام دراسته بالكلية العسكرية ؟ هل سيلحقه أذى هو الآخر ؟ .

يرجع أحمد فيصف العربة الرمادية التى كانت تنتظر عند مدخل الحارة ، أمام مسجد سيدى مرزوق ، يصف ثبات جمال وانعدام خوفه ..

تقول سعدية :

« جمال جدع وأمير .. فى حاله .. »

تكره الأم إيقاع هذه الكلمات ، فيها رثاء والمرثية للميت ، فأل سيء .

تقول وبلهجتها حدة :

« أخذوه لأنه يكتب عن الغلابة .. »

ثم تهن مضطرة ، فتتساءل :
« أين أنت الآن ياكبدى ؟ »

فى هذا الموضع، بجوار صوان الكتب قعدت أوقاتا ثقيلة، فى لحظات بعينها تقف أمام الرفوف ، تنفض عنها الغبار ، وتمسك بعض الكتب تقلب أوراقها، ليتها تعرف القراءة ، ليتها تقدر على فك السطور ، منذ أمد ليس ببعيد ، أحاط بها جمال واسماعيل ، وقالا إنهما سيعلمانها سر الحرف ، بدآ معا ، وكانت تأنس إلى لحظات حفهما بها وتحرص عليها أكثر من حرصها على تمييز الألف من الباء ليت ذلك دام ، ليته استمر ، لاتدرك الآن لماذا توقف عزمهما ؟ لاتتذكر .. أرسلت نوال وعلى لشراء ورق تغليف ، طلبت منهما تجليد بعضها ، وكتابة اسمه ، تماما كما كان يفعل حتى لاتنقطع عادة ، ولاتنتهى خصلة ، فتكرارها حتى بدونه بشرى برجوعه ، أراها تقبل الصفحات ، تدعو بقصر الغيبة ، بجوار الصوان أمضت أوقاتا طويلة ، فيما بعد قالت لأصلى :

« هذا المكان أكل من جسمى حتتا ، وأخذ من عمرى مقدارا .. »

مابين الشرفة وهذا الركن تتنقل وتسعى ، تنتظر عودة أحمد ، بعد تردده على التنظيم السياسى ، لقاءاته بأمين عز الدين الذى لم يستمر سجنه طويلا ، زياراته لبعض أسر من عرفوا جمال وكانوا صحبه فى السكة الوعرة بعد أن عرف الطريق إليهم إلى بيوتهم ، حتى إذا رجع تستجوبه طويلا ، تستنطقه التفاصيل ، المساعى التى تمت ، وماستجد ، وتلك التى يؤمل منها . تطلب صحبته ، تمضى معه أحيانا ، تنتظره عند ركن قصى حتى يعود من زيارته للمقر ، تطوف بضريح الإمام الحسين ، ترجو سيد الشهداء أن يخفف الغيمة ، أن يرد الغربة ، هذا يوم أراها فيه وحيدة ، تجلس فى الصالة الضيقة مندمج وجودها المادى بغبرة المساء الرمادية ، والليل الشتوى سريع القدوم ، ورائحة البرد ، أين على ، أين نوال ؟ لم ألق جوابا شافيا ، الباب يطرق ، وافد غريب ، هكذا تنبىء طرقاته ، ماذا يخبىء المجهول ؟ الستر ، الستر ، ترى شابة لاتعرفها ..

ــ خير ..

ــ أنا امرأة صاحبة الأبنودى

ــ الشاعر ؟

تومىء مبتسمة ، تجلس عند طرف السرير ، الأم فى مواجهتها ، تصغى :

« جمال بخير .. إنه فى طرة .. »

ــ الليمان ؟

ــ لا .. فى المعتقل مع صحبه ..

تقول ان زيارة المعتقلين سياسيا محظورة ، إنه يبعث سلامه ، تقول صاحبة الصاحب :

ــ إبنك رجل ..

لاتزيد أو تنقص ، غير أن الأم تفهم الإشارة وتدرك كنه العبارة ، ذهب جمال رجلا وسيرجع رجلا ، يمكنه النظر فى وجوه القوم ، لايخجله شىء ، برغم كل شىء احتمل ولم يبح ، وهنا أقول أنا صورة جمال بن أحمد الغيطانى أننى اطلعت على مالم ينطق به أصلى ، رغم إيلام جسده ، وتعذيب روحه ، والضغط لقهره ، ماالذى أخفاه ؟ ، ما الذى كتمه ؟ ، وقفت عليه كله ، هذا مالن أقوله قط ، لم يلفظ به أصلى رغم الحبس الانفرادى ، الإقلاق الليلى ، وغمر المضجع بالماء لاستحالة الرقاد ، وعصب العينين والإرغام على الجرى مع مداومة الصفع والركل ، لن أذكر شيئا فالإذن لم يصدر ، والإشارة لم تلح ، والأمر فيه خطر ، فليفهم الفطن مايشاء ، ولينعم من أراد النظر فيما أقول ، ولكن .. لاتظنوا بى السوء لأن إفشاء مالم يطلب منى كفر !

غير أنى سأقص عليكم تفصيل أمرٍ من أغرب ماورثته عن أصلى .

« .. ولهم مقامع من حديد .. »

قرآن كريم

.. بدأ الأمر فى اليوم السابع عشر لحبسه بمعزل عن الخلق فى سجن القلعة القديم ، المغرب انقضى والوقت بين بين ، فتحت البوابة الخارجية ، ثم البوابة الداخلية المصمتة عدا فتحة صغيرة قرب نهايتها ، مسدل عليها من الخارج غطاء متحرك ، أصلى يرى ثلاثة مخبرين أشداء ، واحدا منهم تقدم داخل الزنزانة .

« قم ياأربعة وثلاثين .. »

إذن .. دنا الوقت . ستقع المواجهة ، مما حيرنى فى هذا الحال أنه بقدر ما شعر به من خوف ، بقدر ما ارتاح ، الآن انتظار البلاء أشد من وقوعه ؟ ربما .. ، لوى أحدهم ذراعه ، أحاط آخر عينيه بعصابة سوداء فغابت عنه المرئيات ، والجهات ، نزلت العصا الرفيعة على إليتيه ..

« إجر .. إجر .. »

يتعثر ، يسقط ، يدفعونه باتجاه جدار ليصطدم فجأة به ، أمسك أحدهم بذراعه ، يصعد درجات سلم حجرى مرتفع ، ويتركونه يقف لحظات فى فراغ سحيق ، قد تجىء الضربة من أى جهة ، يدفعه أحدهم فجأة ..

« إجر .. »

يعدو حتى يصطدم بحاجز ما فينقلب إلى الناحية الأخرى ، بينما يعدو إلى يمينه من يحمل عصا ، وإلى يساره من يحمل سوطا ، يلهبان به جسده . كم دام ذلك ؟ لا يدرى .. ولا أعلم ، فالوقت ملغو ، هنا ، يوقفونه فجأة ، يقودون خطواته ، يدرك أنه توقف داخل مكان مغلق ، أداروه حول نفسه عدة مرات .

يكفون .. فيتوقف ، إنه يفكر .. كيف ستنقضى هذه اللحظات ، بعد انقضائها تمضى عليه الدقائق العسرة ، يصغى .. إنها خطوات خفاف ، يتوقف أحدهم أمامه ، يصغى إلى تردد أنفاسه ، يوشك أن يسمع دقات قلبه ، ينوب سمعه عن حواسه كلها ، فيصبح السمع بصرا ولمسا ورصدا للمجهول .

كم مضى ؟ لا يمكنه التحديد .

فجأة .. تهوى كف غليظة على صدغه فيميل جسده كله ، يبتعد ، صفع يميل به إلى الجهة الأخرى ، غير أن الميل الثالث أقل ، إذ استجمع قواه ليقاوم ، وبعد توقفه عن العدو وتوالى الصفع صار ثابتا ، وجهه إنتفخ ، إنتابه سخونة .. أما خيط الدم الدافىء الذى سرى من جانب الفم الأيمن حتى الفك فلم يشعر به إلا بعد توقف الكف الغشوم . هنا أقول أن أصلى لم ينطق عن ألم ، لم يفصح عن آهة ، إنما واجه جلاده بملامحه .. بعماه المؤقت ، فى خزانة أسراره الدفينة أجداد فى الصعيد الجنوبى قُطعت أطرافهم وسملت عيونهم ولم ينطقوا كلمة واحدة فيها نجاتهم .

فلما كان المجلود الضحية غير قادر على الرد .. فليحرم جلاده سماع الأنة أو صرير الغصة .

يكف الصفع فجأة ، تمضى اللحظات المثقلة ، يرصد الأنفاس التى تزايد إيقاعها ، إلى رائحة العطر ، لم يصغ إلى خطوات أخرى ، يتبدد الصمت فجأة ..

« ما هذا .. ؟ من قال لكم إضربوه .. من أمر ؟؟ »

تمتد يد ، تنزع عنه العصابة ، أضطر إلى إغماض عينيه وفتحهما بسرعة عند انتقاله من الظلمة إلى ضوء الظهيرة ، يرتدى الواقف أمامه قميصا وبنطلونا رماديا ، يميل إلى امتلاء ، أملس البشرة ، أسود الشعر ، قمحى اللون ، يضمر مالا يظهر ..

« آسف ياجمال .. إنه خطأ .. »

يشير إلى مقعد بدون مسند وسط الحجرة تماما فى مواجهة مكتب .

« تفضل .. إجلس ، أنا الرائد منير .. »

يمضى إلى خلف المكتب ، يواجهه ، يتطلع إليه لحظات ..

« سببوا لك ألما .. إنس ذلك .. تدخن ؟ »

يمد علبة سجائر خضراء الغلاف ، أجنبية فى وقت ندرت فيه السجائر غريبة النوع ، لم يكن أصلى قد عرف التدخين بعد ، إنها جزء من الخطة ، فالسجائر مصادرة منذ دخولهم إلى هنا ، وظهورها فجأة قد يميل بمن اعتادها ، وعند لحظة معينة يمكن الإلقاء بها أرضا . يهز رأسه نفيا مؤكدا أنه لا يدخن ، يشعر بوقع أقدام خلفه ، يلتفت بسرعة ، إنهم ثلاثة يحملون عصيا غليظة .

« انتبه هنا .. »

تتلاشى لهجة الود المصطنع ، يأمر ألا يلتفت .. غير أنه يعاود اللين ، فأوان الشدة لم يحن بعد ، يرفع النظر إلى الثلاثة ..

« لن يمد أحدكم يده عليه .. »

أمر بالنفى يحوى تهديدا ، وإشارة إلى إمكانية ، وقوفهم يقلقه ، يمكن للعصا أن تهوى فى أى لحظة . يبدى الضابط ودا مصطنعا ، كأنه لم يصنعه ، لم ينهره ، يبدأ المحاورة ، يسأل عن أشخاص بعينهم ، كيف عرفهم ، ومتى التقى بهم ، يستفسر عن اجتماعات عقدت . وجلسات تمت ، وحوارات إنتهت ، يجيب أصلى إجابات مبتسرة ، مختصرة ، أعد للأمر عدته ، ورتب وتوقع ، أيدوم الأمر طويلا ؟ تراجع إلى الوراء قليلا ..

« أنت لن ينفع معك الذوق .. »

ثم يقول :

« أنت إبن قحبة .. »

يسبه بذكر فرج أمه ، يتطلع أصلي بملامح خلت من التعابير تماما ، كأنه قد من حجر عدا رفة في بؤبؤى العينين ، رفة فيها الرد وإن لم يبلغ جلاده ، تحوى الحنق والكظم الأشد .

الصفع أقسى ، العصى أسرع ، الجرى أطول ، الجهات تختلط ، السواد يقع ، الضوء يبرق ، عندما ألقوا به في الزنزانة لم يقدر على الرقاد لتورم جسده ، غير أنه لم يعبأ ، لم يتوجع ، إنه ما بين شعورين .. الأول عابر مضمونه الراحة لانتهاء ما توقعه ، ولتحمله الأذى كاملا بدون أن ينطق إلا ما أراد النطق به ، أما الآخر فمقيم ، نفذ إلى لبه ، دفع إليه بالضيق ، بالخجل ، بالرغبة في التوارى عن الخلق ، سب الرائد هذا لأمه ، وذكره فرجها ، ما ذنب أمه ، إنقهر لأنه لم يرد غيبتها ، لم يدفع عنها . لم يقارع السب بسب مماثل . أمضى السجن كله ، إسترد حريته ، تقلبت به الأحوال وتغيرت الظروف ، إرتحل ورجع وطرق دروبا شتى ، وبقى عنده سباب هذا الجلاد كدمة لا تشفى ، وندبة في روحه لا تذبل ، غير أنه أضمر في روحه أمرا ، أن يرد الإهانة يوما وإن طال المدى ، راح يتحين الأوان المواتى . يتتبع أخبار هذا الضابط قدر الطاقة ، ترقيه من رتبة إلى رتبة . خروجه من الشرطة السياسية ، عام سبعة وسبعين وتسعمائة وألف . إنشغل بكيفية رد الإهانة ، هل يدخل عليه فجأة ويسبه بنفس الألفاظ ؟ .. هل ينتظره في مكان ما ؟ هل يتصل به هاتفيا ؟ ، آخر ما عرفه عنه قبل بدء معراجه من فاس المباركة أنه تولى قيادة شرطة جامعة من جامعات العلم ، بدأ سفره اللانهائى وغله لم يبرد ، وقراره مستعر . إنتقل هذا بتمامه عندى فصار إلىّ ما كان عنده ، وإنى لمتتبع أخباره حتى وقت تدوينى هذا ، إنه يتولى الآن الشرطة النهرية . أحيانا تطل علّى صورته من الصحف ، أنتزعها ، أحتفظ بها ، أدقق فيها .

حدث أننى كنت مسافراً إلى مدينة قصية ، رحت أدير المؤشر بحثا عن

إذاعة القاهرة . فإذا به يتحدث عن جهود الشرطة النهرية ، الصوت نفسه الذى سب أصلى بذكر فرج أمه ، الأم التى لا يعرفها ، لم يرها . لم يلتق بها ، الأم التى لم يفض إليها أصلى بما جرى ، بما تفوه به ، وفى يوم من أيامى فى هذه الحياة الدنيا رجع ابن أصلى محمد من المدرسة ، وأنا أبوه فى نظره وفى نظرى وفى نظر الحق ، محمد لم يلحظ غياب أبيه ، كذا امرأتى لم تلحظ حلول الصورة مكان الأصل ، واحتواء الظل للمصدر ، والتفاف الفرع حتى تغطية الجذع . وإن كانت تتطلع إلى أحيانا ساهمة ، متعجبة ، وتتساءل : مالى أراك شاردا .. مالك بعيد عنا ؟ ، عندئذ أبدى أعذارا شتى ، غير أننى لا أضطرب ولا يهن قلبى ، من المحال أن تدرك ما تبدل وما تغير إلا إذا نزلت المشيئة ، وهذا خارج طوعى ، ليس بيدى ولا بيدها . إبنة أصلى الصغيرة أيضا لم تلحظ ، أنى لها ذلك وقد وعت علىّ أول ما وعت ، غير أننى استريب أحيانا إذ تجفل منى وتخشى ، الأم لم ترنى إلا ابنها الأكبر ، إمتدادها وتمام عمرها ، أما نظراتها الصامتة الممتدة تجاهى فلم أدر ولم أحط علما ، أهى امتداد لعادة أم أمر مستجد ؟ ، يحيرنى هذا كله ، ويأخذنى أحيانا ، لكننى لا أنحى باللائمة على نفسى أبدا ، ذلك أنى أخفيت وكتمت قدر الطاقة .

أعود إلى ما بدأته فأقول : ذلك المبنى المطل على النيل ؟ قال نعم ، قلت : هل التقيتم بقائدها ؟ قال : نعم . قلت : أهو قمحى البشرة ممتلىء ؟ . قال : نعم . قلت : أهو أسود الشعر ؟ قال : نعم . قلت : هل اسمه منير ؟ قال : لا أعلم . أطرقت لحظة فتساءل محمد : هل تعرفه ؟ ، أومأت ، نعم ، ولم أزد حرفا ، إنسحب إلى صمته . أمه تؤكد أنه أصبح صموتا ، كتوما خلال الحقبة الأخيرة وأنه لم يكن أبدا هكذا . تحدد بدء الفترة بما يوازى ويتفق مع مجىء ذاتى إلى هذا الكون وبدء إسراء أبيه ، أصغى لأصمت وأخفى عجبى ، ضممته وحنوت عليه ، هذا ما كان سيصدر عن أصلى فى هذا المحل ، شفقة وحنو وازدراء لمجرد تصوره لقائه بهذا الجلاد وهو لا يدرى أنه صافع والده وسابه ومعذبه ، فما أعجب تدبير الشريعة فى هذا العالم ، إنى لست متخاذلا ، فما اعتزمه أصلى ونواه

أنا مكلف به والطاعة واجبة مسبقا . وعندما يأذن الاذن سأنبئكم بما أديت حتى أمحو مالحقنى ، وإن كنتم فى ريب مما سأفعله ، فإننى أعدكم وعدا لاأخلف فيه ، فلا نكوص ، وإنى لناجزه ، خاصة أن أصلى حاسب نفسه طويلا ، شعر بالخجل كثيرا ، فلطالما تساءل ، لماذا لم يرد الإهانة فى حينها ؟ ، علل الأمر بقلة الحيلة ، وشحوب التجربة ، وصغر السن ، لكن لم يخفف عنه ، ولا عنى . لم يقنعنى أيضا . أطلت الفكر وتمعنت . أهو الخوف من تضاعف الألم لتوقع الضرب الأشد وربما الفتك ؟ لكن الخوف نتاج وليس أصلا ، ما تمكنت من إدراكه ، مالم يعه أصلى ، حال الوحدة .

فى مقام القرب من هذه التجليات المباركة ذكرت ما نصه ، أن الإنسان جبل على الرفقة والصحبة والأنس ، فالوحدة تجعل الإنسان ضعيفا خاصة إذا واجه عدوا غشوما بلا صحب . أدرك الجلادون ذلك ، وعوه تماما . فرضوا الإنقطاع القسرى على من سيتم سؤاله ، هذا ما فعلوه مع أصلى وصحبه وغيرهم مما لا حصر لهم ، ألقوابهم فى الزنازين المصمتة ، مزدوجة الأبواب ، منعوا كل إشارة أو خبر ، حتى أن ملامح الأيام اختلطت .. فلاسبت ولا أحد ، ولا اثنين ولا ثلاثاء . ولا أربعاء ولا خميس ، أما الجمعة فلا يبين ، ما من علامة تحدد ، وما من حدث يميز ، وما من صدى فى النفس للحظة خاصة . مثل الغروب أو الشروق أو ميل الشمس عن منتصف السماء أو امتداد الظل أو سبح الغيوم ، ما من مسافة تقطع ، ما من وافد مأمول أو سفر يرجى أو مهمة تنجز ، تنعدم الحركة فينتفى الزمن ، يتشابه الوقت وبتشابهه يتلاشى ، ولولا أن زنازين القلعة مشيدة فوق سطح مرتفع لما أدرك الأسير المعزول الضعيف تعاقب الليل والنهار . فما من رحيل إلا عبر الذات . والسفر على وجه العموم فيه نصب ، مبنى على شظف العيش والمحن والبلايا . ينعدم فيه الأمان ، فما يمر به الإنسان اليوم سيتغير غدا ، وما يراه هنا ، سيرى غيره هناك . وأهل كل محلة يخالف أهل المحلة الأخرى ، هذا عن السفر فى عمومه ، أما أوعره وأصعبه فما كان رحيلا فى الرحيل ، وحركة فى انعدام حركة ، لا محط مأمول ، ولا نقطة للبلوغ ترجى ، إنه الهيام على حافة الموت

حاول أن يحدد ، بدأ يحفر صباح كل يوم خطا بظفره على الجدار خطا خفيفا .. لو رصد لأوقعوا به الكدر الأشد .

فى البدء فكر فى الاحتفاظ ببذور الزيتون الأسود ، طعامه الليلى الذى لم يغيره ، غير أنهم أعدوا لكل أمر عدته ، الحارس يطالبه بالبذور عقب طعامه ، حتى لا يستبقيها ويصفها فتتسلى روحه ، الويل لو كانت ناقصة ، ليت الأمر كف عند ذلك . إذ حدث أكثر من مرة أن فتح الباب ، يظهر ثلاثة ، لا يجيئون فرادى أبدا ، دائما اثنان أو ثلاثة ، لا يدخلون ، إذا أرادوا خروجه أشاروا إليه أن يتقدم ، كأنهم يخشون أمرا مع أن العسف بجانبهم ، إنه خوف الجلاد من ضحيته ، خوف صعب إدراكه وقد عرفته ونفذت إليه ، وهذا يطول شرحه فلنرجئه ، يمسك أحدهم دلوا يدلق ما فيه من ماء فوق الأرض العارية الخشنة ، يضطر المحبوس إلى الوقوف ساعة إثر ساعة ، ثم يأخذه النصب فيقعى ، وربما يضطر إلى الوقوف ليلا ثم نهارا إذا استطاع ، لكن من يقدر ؟ .

بعد وصوله إلى الحبس ، فى بداية الليل الثالث والشوارع نائية قصية رغم قربها . إنفجرت صرخة ثاقبة ، ممتدة ، متلوية ، قادمة من الحشا ، من أزمنة الهمجية ، من زحف مغولى ، تنفذ إلى المكنون الإنسانى ، قام واقفا ، من كل صوب تأتيه ، حروف مدموغة ، مختلطة أطرافها ، جعير يصهر المكان ، ينكس المآذن العتيقة ، ويظلم المحاريب ، يذرى الصور والأحاسيس ، عدا ما يحتويه من ألم يلغى الألم ، إنه المنتهى ، تراجع فى الحيز الضيق ، الصراخ محدق به ، محيط .. كأن فى حركته الملغاة محاولة للتوارى من صراخ لا محالة مدركه ، لحظات صمت بغيض ، ينفجر الألم متدفقا فلابد أن سلكا محميا أو مشحونا بالطاقة يلسع خصية أو يخترق دبرا .. يتواصل حتى تشح القدرة فينقلب عواء جريحا آيسا من كل منقذ أو انفراجة . وجه أصلى متقلص ، متصلب النظرات ، هذا أصعب ما واجهه .. تتضح كلمات بين الصراخ الطويل ، صوت هادىء ، محذر ، منذر ، متئد ، مقتدر ..

« قل ولا تنكر .. »

تمضى الليلة ، بطىء سريانها ، ثقيل وقعها ، خطو الحراس فوق الزنازين ، يتعمدون وطء فتحات التهوية المغطاة بقطع مستديرة من الصفيح المثقوب ، يتوالى الصدى كأنهم يدهسون مناماته ، بعد مضى أيام قدم محابيس جدد ، كيف أدرك وصولهم وهو محاصر ، مقيد ، مقطوع الصلة بما حوله ؟ أقول إنه أتقن إرهاف السمع والنظر عبر الفتحة الدائرية الضيقة . إذ عرف كيف يزحزح غطاءها الخارجى المتحرك بأصبعه الوسطى من الداخل ، ورؤيته العابرين المارقين ، كما أمكنه التمييز بين أصوات المكان الثابتة من حركة معتادة وسريان هواء أو أصوات غامضة وبين الأصوات الطارئة المفاجئة .

من هم ؟ من جاءوا بهم ؟ . يتوقع رؤية البعض . وأحيانا يختلط الأمر عليه ، كما جرى له عندما رأى من خيل إليه أنه شقيقة إسماعيل ، حدث ذات ظهيرة أثناء اختلاسه النظر أن لمح فتى يرتدى قميصا غامقا ، ملامحه ليست بنائية عنه .. إسماعيل .. ربما ، لم يتأكد ، هل جاءوا به ؟ لكن مالإسماعيل وما هو فيه؟ إرتجف، سمع عن إحضارهم الشقيقات والزوجات واغتصابهن غيلة وعنوة على مرأى ومسمع ، يمر به خاطر عجيب ، من يقوم بالاغتصاب هذا ؟! كيف لا يخجل من عريه ، كيف تواتيه المقدرة فى حضور جمع ، أحقا هو أخوه ؟ لَكَمْ سبّبَ إضطرابا للأسرة البسيطة ، مرت به أيام سود ، يدنو محاذرا من الباب، يحاول النفاذ عبر الفتحة ، أهو أم لا ؟ حتى جرى مالم يتوقعه ، عند توزيع الغذاء فى يوم لا يدرى موقعه ، فتح الباب ، رأى الحارس ، وراءه هذا الفتى يحمل طاولة من الصاج عليها أطباق الفول وأرغفة الخبز ، لم ينظر إلى الخبز ، إلى الطعام ، إنما سدد النظر الى عينى الفتى مباشرة ، لقاء لحظى مارق .. خاطف ، غير أنه كشف ما كشف .

معنى بأتمه يتركز فى هذا اللقاء اللحظى حيث لا حديث ممكن ، لا محاورة ، وما من استفسار يعقبه مجاوبة ، يتصل الإنسان بالإنسان عبر اللمح الخاطف ، فيبث ويناجى ، ويجهر ويسر . بعد إغلاق الزنزانة أنس بنظرة الفتى ،

أنس بها لأنه أول اتصال إنسانى منذ ولوجه الحبس ، كذلك إطمأن إلى أنه ليس إسماعيل ، وفى الليل إنشغل بها ورأى فيها ما لم يره فى ضوء النهار ، رأى أنَّةً ملمومة ، وشكوى : لا تدرى ما فعلوه بى ! ، ورأى ألما : لا تدرى كم تعذبت . فيها استفسار ، من أنت ؟ من أين جئت ؟ كيف قيدوك ؟ كل المطالب الأربعة هل وكيف وماذا وأين ؟ ، لا يدرى كيف تلقى نظره إليه ؟ لماذا كلفوه بنقل الطعام ؟ أهو مرضى عنه ؟ هل أقر بما أرادوه منه ؟ ثم كافأوه بالتنقل وبذل المجهود ؟ لا يدرى .. لم يره مرة أخرى ، لم تقع عيناه عليه مرة ثانية ، حتى شك فى أن ما مر به حقيقة ، ملامحه لم تغب عنه أبدا .. بقيت معه وانتقلت عندى ، ما يعنينى تلك القسمات لحظة تبادل النظر الخاطف اللحظى ، لا يهمنى إذا تقدم منى الآن شخص ما وقال إنه هو من واجهنى ذلك اليوم النائى ، العسر . هل فهمتم عنى — بصركم خالقى — بعضا من السر ؟ .

أقول إن تطلع المقيد المحاصر إلى مثله مع منع الوصل أشق لحظات الوحدة كإسالة الماء على مرأى ممن يموت ظمأً وتلك درجة يندر وقوعها أو تصورها . إذا أردنا التنبيه لعلمنا بجهل أكثر الخلق بها ، إنها لا تشبه النظرة العابرة المتبادلة بين شخصين يمضى كل منهما فى اتجاه مغاير للآخر ، لكن وفق مشيئته وإرادته ، لا يعوق خطاه قسر ، فالزم وانتبه يامن تتطلع إلى الفهم والإدراك ، واعلم أن الكينونة الإنسانية بقدر اضطرارها بقدر قدرتها . إذا تعطلت حاسة تنهض بقية الحواس للمساندة والمدد .

أنظر الى الأعمى ، ألا تراه يسمع مالا يسمعه المبصرون ؟ .

مع مضى المدة أصبح يدرك من إيقاع فتح الزنزانة المراد ، فإذا أدير المفتاح فى القفل مرات متواصلة متعاقبة عرف أنهم يقتلعون أحدهم إلى التحقيق ، من قوة الصوت أو وهنه يمكن له تحديد مقدار بعده عن زنزانته . أما معرفته اليمين أو الشمال فأمرها سهل .

تلك الليلة أدرك أن جددا قدموا ، سمع الحارس يقول آمرا ناهيا :

« إسمك منذ الآن أربعة وعشرون .. »

من صاحب الإجابة ؟ إجتهد أن يعرف لكنه لم يفلح ، فى الليلة التالية إنفجر جعير فظيع ، هنا أتساءل .. هل رأى أصلى نفسه فى الزنزانة ؟ كلا بالطبع لم تقع عليه سوى نظرات الحارس المتلصصة المنتهكه وحدة المحابيس .. أنا رأيته فى حال القبوع والتلملم . منطويا ، مزرودا فى الحيز الضيق القصى ، رأيته مرتين ، الأولى عند سماعه صراخ الألم فى هذه المرة ، مدركا المغزى ، إذ يتعمدون تعذيب أحدهم أمام مكبر للصوت عند وصول مساجين جدد لبث الخشية ، للتلويح بالأمر العظيم المنتظر وقوعه ، أما المرة الثانية ففى ليلة باردة من ليالى حبسه الانفرادى بعد تناوله حبات الزيتون الأسود ، ونصف رغيف يابس ، رقد مقاربا ما بين مقدمة ركبتيه وصدره فكأنه يتخذ وضعه داخل رحم الكريمة الحانية رغبة فى الولوج إليه مرة أخرى بعدا ونأيا من قساوات هذا العالم .

كان قد تقلب عدة مرات حتى يمكنه اتخاذ الوضع الملائم لتحاشى ضوء المصباح الكهربائى الذى يدركه أينما ولى أو اتجه فى هذا الحيز المحدود ، فجأة .. دوى الرعد ، أول رعد شتوى .. ثم نزل سكون يبدده إنهيار عظيم ، تساقط حجارة ، ما هذا ؟ أينهار السجن أم يهدمون الجدران فوقهم ليعلنوا نفاذ القضاء والقدر ؟ أم حجارة من سجيل ؟ يتوالى التراطم وما من عاصم ، يتراجع إلى الركن ، أقصى ما يمكن أن يبلغه وآخر ما يمكنه اللجوء اليه ، تتداخل أصابع يديه يغمض عينيه .. ينتظر الموت ! .

فى هذا الوضع رأيته وتأملته ودرت حوله ، ينطق الذعر لأنه وقع فى الوحدة ، ما أشأم الوضع عند دنو الإنسان من النهاية وهو بمفرده ، ما من معين أو سند أو مودع أو مشفق أو ملتاع ، والمعروف أن من يرحل غريبا يمضى وعنده حسرات ، يعظم الأسى عليه ، فما البال والحصار قائم ، والإبعاد عن الأهل والصحب جبرى .

لا أدرى متى وعى أصلى حقيقة ما جرى ، أفى الليلة ذاتها أم التالية ،

ماظنه تساقط حجارة أو بدء انهيار سقف ليس إلا نزول البرد ، وظهوره فى مصر نادر يؤرخ به ، ومنذ تلك الليلة وحتى أوان تدوينى هذا لم ينزل ولم يسمع به إنسان من أهل البر كلهم ، اصطدمت كراته بالجدران ، بأبواب الزنازين الحديدية ، غير أن ما ضاعف الصوت وضخم الصدى .. سقوط الكريات فوق دوائر الصفيح التى تغطى فتحات التهوية . غير المألوف يثير الرعب لانتفاء التجربة .

هكذا رأيت أصلى ، مرعوبا شأن الإنسان إزاء مالم يحط به علما ، وقد عرفت النوم فى أماكن شتى ، لكل موضع أصواته كما ألمحت ، منها ما يسهل معرفته ، ومنها المبهم الغامض الذى يستعصى على التفسير ، لم أر أصلى إلا مصغيا ، مضموما ، الحق أننى ضقت منه ولم أرض عنه ، صحيح أنه لم يهن ولم يفش مكتماته ، صحيح أنه من الطبيعى فى حال وحدته أن يقعى ، أن يلملم أطرافه ، أن يضيق ما يشغله من مساحة ، أن يبكى حتى وهو فى منأى عن جلاديه ، ولكننى لا أفهم اعتصامه بالصمت عند مواجهة آسريه ، فالعذاب واقع ، واقع ، والألم لا مهرب منه ، لماذا يصمت الإنسان إزاء ما يثق من وقوعه ؟

أذكر مقام الضنا فأردد مرة أخرى ، لماذا رضى الجد العجوز بحمل جثث أحفاده ؟ لماذا استجاب لقتلته ؟ أظن أنهم سيبقون عليه ؟ أظن أن الدقائق التى تسبق قتله ستمتد دهرا ، لماذا صمت جمال فى مواجهة الضابط عندما سب أمه ؟ أخشى مضاعفة الضرب ، ولو .. لكن أثره سيندثر ، أما الألم النفسى فلا يمحى ، يبقى فى غور عميق ، دفين ، وهذا ما عانى منه وشقى به ، ثم انتقل ذلك إلىّ ، لكننى لو رددت الإهانة بعد هذه السنوات كلها فهل يشفى الغليل ؟ لن يمحى هذا إلا شىء من أشياء .. أما الرد فى عين الوقت فهو الشاق ، لن أحيد عن قناعتى وخواطرى بإمكان القصاص بعد طول مدة ، غير أننى أحاور النفس ضاربا المثل بما فعله إبراهيم ، وهو واحد من صحبه الذين سبقوه ، حدث أن ضابطا شابا أخضر العينين ، أجرد البشرة ، مليح التقاطيع ، اعتاد فتح الأبواب

فجأة ليردعهم منتهكا هجعاتهم كذا التلصص على النيام العزل ، أو اصطناع اللطف فى البداية مع إبداء الرقة فى المحاورة ، ثم ينقض فجأة مسددا السباب أو الضرب بالعصا ، يحميه فى تجواله دائما حارسان غليظان مظهرهما يصدع القلوب الجامدة ، وأحيانا يجرد من ألقت بهم المقادير ، يبقيهم كما ولدتهم أمهاتهم ، يضربهم على ما بين أفخاذهم ، لن أطيل وسأمضى متجاوزا عن ذكر الكثير فهذا مخجل .

ظهر يوم إقتحم زنزانة إبراهيم ، أمر بإخراجه ، وطلب منه أن يقول بصوت مرتفع ، « أنا امرأة » ، فأبى إبراهيم ذلك . عندئذ أشار إلى رجليه ، فطرحوه أرضا ، قيدوا ساقيه ، تأهب لجلد باطن القدمين ، وقبل أن يهوى بعصاه ، قال إبراهيم هادئا :

« ماذا تريد منى ؟ .. »

ثم جاوب نفسه :

« تعذيبى .. إهانتى .. لا .. أنا سوف أريحك تماما .. »

رفع رأسه عن الأرض ، هوى مصطدما بالحجارة العتيقة ، وكان صدى غريبا مفزعا ، فى المرة الأولى فوجىء الضابط .. غير أنه قهقه ظنا منه أن فى الأمر تهويشا غير أن المرة الثانية كان لها وجه أشد فصمت ، وفى الثالثة أصغى من فى الزنازين إلى ما يجرى ، صمتوا صمتا يفوق سكون وحدتهم ، حتى النائمين عن الوضع أرهفوا سمعهم ، حياة على وشك أن تمضى ، شؤم محلق ، دان ، ينبىء بطبيعته حتى لمن هم خارج دائرة النظر ، مع ارتفاع الرأس تمهيدا للهبدة الرابعة يصيح الضابط ملون العينين ، « حوشوه المجنون .. » .

انقضا ، رفعاه مقيدا والدم غامق ، أيقنت خوف الضابط ، نزواته تتجاوز خطا محددا له ، وكل شىء هنا بقدر ، حتى كوب الماء الذى يتسلل به الحارس عند الفجر إلى الزنازين المدلى فيها من علقوا عرايا مجردين من كل شىء ، ممنوع عنهم الطعام والماء ، مثخنين بجراح شتى ، لو أن جمال أقدم وأتى فعلا يشبه ما فعله إبراهيم لرتق فتقا ومنع جرحا ، غير أنه كظم خوفا وخشية ، علمت هنا أن

الكتمان أورثه ما شيب سالفيه ، بسببه طق أول بياض فى شعره ، كثيرا ما حيره ذلك وتساءل عند النظر فى المرآة ، متى ولأى سبب ؟ أهى ليالى الوحدة فى إقليم المنيا عندما نقلوه قسرا ؟ أهى لحظات غضب أبيه وانصرافه طافشا ، هائما ، وخروجه للبحث عنه ؟ ولهذا أمر يطول شرحه ، أهى أوقات غامضة يصعب تحديدها ، عكمته خفية وأورثته شيبا ثم وهنا يصعب رصده الآن ؟ لطالما فكر وقدر ، رغبة فى تعيين لحظة انسلاخ اللون الأبيض من الأسود ، فلما كان الليل أصلا والنهار منفجر منه ، لذا كان الشيب تابعا .

ألا يولد الأطفال سود الشعر ومع مراحل السفر وتقدم العمر يبدأ التحول ، أصل الألوان الأبيض ، والأسود وما عداهما برازخ تتولد من امتزاجهما ، فيظهر من ذلك الحمرة والخضرة والغبرة إلى غير ذلك من الألوان ، من هنا كان الأسود كظلام الليل ، والليل ستر وغطاء ، فإذا جاء الصبح تكشف شمس الحقيقة ما ستره الدجى ، فوقوع الشيب انكشاف ، والبصر والفكر لا يدرك كنه المكشوف عنهما لذا لم يستطع أصلى التحديد ، ولأنى عابر ، ولأنى غير مستوطن .. فقد أحطت علما ببعض وليس بكل .

وقفت على الشعيرات التى انكشفت بعد سماع العذاب .. وليل سقوط البرد ، ولحظات وحشة النفى ، وهنا حديث يطول لو فصلته لخرجت عن قصدى ، أما الآن فأقول : إن كتمانه لم يرقنى ، وحذره لم يرضنى ، وصمته فى مواجهة من سبه باعد ما بينى وبينه قدرا ليس بالهين . مع التنبيه على أن موقفى هذا مخالف لما أنا مأمور به ومكلف ، إنما أنا مأمور بإطاعة الأفعال والتزام الجانب قدر الطاقة ، وقد أطلت ذكر ما عانيت ، وإن كان جل ما دونت لا يساوى إلا مقدار ما التقطه الطائر بمنقاره من البحر العميق .. فعندى من الكتمان كثير .

حدث فى صباح خريفى أن مررت بالقلعة ، لم يكن قد مضى علىّ زمن طويل فى هذا الكون بعد بدء معراج أصلى . رحت أعاين مبانيها ، تجولت فى زواياها ، وألقيت النظر مرارا على مدخل السجن الجهم .. بعد فراغى من الطواف بظلال مسجد الناصر محمد بن قلاوون عليه الرحمة وطيب الهجعة ، خرجت منه

وعندى مالا أقدر على ذكره وإلا انكشف بعض المستور وبان ما ينبىء بالهوية ، مرة أخرى رمقت المدخل المؤدى إلى السجن ، لسنوات شغل أصلى بمحاولة تحديد موضعه من القلعة وأستدل بعلامات من فترة حبسه . منها موقع المئذنتين عند ذهابه وعودته من دورة المياه ، واتجاه الأصوات ، وقراءة التواريخ المنبئة الدالة ، غير أنه لم ير مدخله كما رأيت ، إذ جاءوا به فى عتمة الليل من سجن طرة القديم . وعند مطلع الطريق المؤدى إلى جبل المقطم .. تطلع إلى صحبه ، إلى صبرى ، إلى عبد الرحمن ، إلى كمال ، إلى سيد ، وتبادل معهم حديثا غير منطوق ، ثم حوّل البصر إلى الطريق .. استوعب التفاصيل التى لا تلفت الانتباه فى الأوقات العارية ، هذا المقهى ورواده ، وتلك البضاعة المصفوفة أمام البقالة ، رأى سائق نقل عجوزا يغطى رأسه بطاقية من الصوف ، رأى خدشا عميقا فى سور العربة ، وسيمافور الخط الحديدى المهمل حولى ينبىء بمروق قطار لن يجىء أبدا ، وضوء بعيد يلمع أعلى الجبل ، تساءل : هل سيقدر له أن يرى ما يراه مرة أخرى ؟ .

عندما أنزلوه فى الضوء الكابى الذى يعتم المدخل الضيق ، وقف قريبا من ضابط الحراسة الذى أخرج خطابا رسميا دونت به الأسماء ، وتعليمات تنص وتشدد على نقلهم من طرة إلى معتقل القلعة تحت الحراسة المشددة .. مشددة ؟! دارى ابتسامة وأخفى ضحكة ، الوقت ليلى ، أما زمنى أنا فنهارى .

توقفت متطلعا وعندى من الفضول قدر عظيم ، مقدار من عمر أصلى قضى هنا ، فماذا تبقى منه وأين ولىّ ذلك ؟ لو يممت وجهى شطر اللامكان هل أبلغه ، إنى مردد عين ما أقض مضجع أصلى قبل بدء معراجه ، واكتمال نأيه .

كم تعاقبوا على هذه الزنزانة ؟ كم قضوا فيها ؟ وأى آلام تنز بها جدرانها الصفراوية ، الكنه مستبهم ، وما مضى انقضى ولم ينقض ، انتهى ولم ينته ، فماذا يمكن توقعه ؟ أرثى لى وأشفق علىّ ، أصلى لم يوجعه استرجاع الأيام العجاف ، أو إلغاء اسمه ، والصفع والركل ، وتجريده مما يغطى سوأته . أبدا ، إنما ما عقد المرارة فى أغواره ، ظلال أصوات مجهولة المصدر ، وظلال رؤى ، وصوصوة عصفور لم يره

كان يجيء فى ميعاد معلوم .. ظهيرة كل يوم ويقف على باب الزنزانة الخارجى ، يؤنسه ثم يتخذ طريقه فى الفضاء سربا ، والمعلوم أن أقسى المنافى والحبوس ما قام فى قلب العمار ، وأصعب الوحدة ما تمت واكتملت فى قلب الزحام . وحبس القلعة المقيت كان قريبا قصيا ، سهل الوصول .. وعر الاقتراب ، الطرقات مؤدية ، لكن حيلت دونه ، البيوت قريبة لكنها لا تتواصل معه ، فهو فى موقع الغريب النافر .

مسجد محمد على قريب مطل عليه بمئذنتين من أربع ، تجيء الرحلات المدرسية صباحا فتسرى حيوية فى الفراغ المحيط اللامرئى ، يتنادرن ، يمرحون ، عند انصرافهم تبعد ، تضمحل ، فيقع خواء وأشده ما يعقب الونسة ، كالفقد بعد غياب الإلف وقديما قيل : ليس أطول من يوم الفراق ، الأبواب لا تؤدى إلى معلوم إنما الأبواب هنا تؤدى إلى أبواب ، والفتح فى الوقت عينه إغلاق والقفل إلى قفل ، والقيد ينفى السراح ، والضيق يؤدى إلى انفراج ، ولكن هنا المكان ينفى المكان ، فالزمان مندغم ، الأصوات تنقلب معانيها بمجرد وصولها الى فراغه ، تصبح مهمومة ، تشير ولا تدل ، تنبيء ولا تفسر ، تفصح عن جمع وليس عن وتر ، كل صوت يحوى صداه ، أصل وظل معا ، لا برزخ بينهما فيبغيان ، يطغى الحس الغروبى ويفيض . لكم أشعره ضجيجهم أنه بعيد ، معزول ، محاصر ، هذه الأصداء المبهمة من أشد ما نكل به ، كذا نداء تردد مرة واحدة ، شخص يدعو شخصا أو يتحداه أو يدعوه إلى نزال ما ، نداء بدد وحدة عصر غميق ، وإغفاءة كالإغماء ، مرة واحدة ، لم يتكرر ، كذا ضجيج مطلع النهار ، تدفق العربات فى طريق صلاح سالم القريب ، الأصوات لم تبدد وحدته القسرية إنما حددت معالمها ، مع مجيء العصر تبتئس اللحظات ، يثق من استحالة حدوث شيء حتى صباح اليوم التالى .

مع مطلع النهار يسرى هسيس أمل .. فالضباط المحققون الآن فى مكاتبهم ، والأوراق تتداولها الأيدى ، والافراج لا يتم إلا نهارا فى الأغلب الأعم ، التحقيق يجرى ليلا ، كذا الترحيل من سجن إلى سجن ، أما العصر فما أهمده وأثقله على الغريب ، المحاصر ، فى معتقل طرة القريب من حدود الصحراء ، فى

ساعة بعينها عند عمق الليل وبعد انتصافه بساعتين ، آخر قطار قادم من حلون أو متجه اليها ، يطلق صفيرا يضفى على الليل عمقا وبعدا بعد البعد وانقطاع صلة ، تلك أصوات آلمته . لم يرتعب لاحتمال عودته ، إنما يرتجف لاحتمال تقييده واصغائه الى مشتملات الدنيا مرموزة فى أصوات وشظايا أصداء ، إنى مرجىء حديثى عن الرؤى ، فمن لا كشف له لا يثبت ولا يقدر ، انما ذكرت بعضا من بعض لا أريد أن أثقل ، فما أنا إلا ضيف ، والضيف ينبغى أن يبقى خفيفا فلا يمل مضيفه ، ولأنى ضيف فأنا مرتحل ، غارب ، ولو أقمت لما صحت لى الضيافة ، إنما سأصير أهلا ، وهذا عين الاستحالة عندى . أنا عابر ، ماض دائما وأبدا ، فالشوق ملازمنى ، والفقد من سيمائى ، عند تأهبى للنقلة من طور الى طور لمحت دليلى ، أقبلت نحوه ولكننى لاحظت أنه بمقدار اقترابى منه يكون ابتعاده عنى ، شغلنى ذلك ، غير أننى انتبهت عندما نطق ..

« أبك جوىً تكتمه ؟ »

أقول :

« عندى منك .. »

متطلع هو ناحيتى لكنه ناء . ما أوسع الشقة ، كأن أصلى لم يعرفه ولم يشهد أيامه ، كأن ما يفصله عنه أمد سحيق وليس سنين معدودة ، يصمت ولا أكف :

« ألم يجر ذلك فى زمانك ؟ .. »

ثم أقول :

« ألم يؤد ذلك الى زمن الانكسار ؟؟ » .

أشير بأصبعى الى اللاجهة ، أرى فى عينيه عتابا ولوما ، يقول :

« ليس الأمر كما تظن .. »

ثم يقول :

« إنه قديم وسيطول .. »

أتأهب للمجادلة .. غير أنه يشير محذرا :

« انتبه .. فما يعرض لك لن تلمحه ثانية أبدا .. »

أرد الى السطح فإذا بى غير مقيم .

« هذا ما كنتم به توعدون »

قران كريم

فضاء بلا حد ، وجهات صعب الوصول الى بداياتها ، سماء تمت الى زمن انقضى ، أما الأرض وما عليها فمن زمن مغاير ، أما الأم القاعدة أمام باب الغرفة فتمضى فى زمن ثالث يصعب علىّ تحديده ، ألمح أطراف شجرة باسقة ، منمنمة ، تمتد الى زمن سحيق أنأى من الأزمنة الأخرى الثلاثة ، غير أننى لم أحط علما بالبعد ، صوب مستقبل أم الى ماض ؟ كل فرع ينتهى بثمرة من نوع مغاير لما انبتته بقية الفروع ، كل ورقة خضراء نضرة أو صفراء جافة تمت الى وقت مغاير . فكيف جرى الائتلاف ؟ وكيف اقترن البعيد بالقريب ؟ تتجاور الأزمنة ، تتداخل ظلال من عصور مختلفة ، وهذا من أعجب رؤاى منذ بدء سفرى وإتمام إقلاعى ، أما أنا فعندى زمنى ، أحتويه ويحتوينى ، يبيدنى وينشئنى ، أنا منه وهو منى ، بدأ معى وكان قبلى ، يندثر برحيلى ويبقى بعدى ، أنتبه الى دليلى ، يقف عند نقطة من الفراغ أعلى منى ، كأنه يقف عند قمة درج غير مرئى ، أسأل بالنظر من بعيد ..

« أين أنت الآن ؟ »

يجاوبني بالنظر :

« محاصر .. »

« أي حصار .. فلكم حاصرت وحوصرت .. »

« حصار الحرب .. »

« وماذا عنك ؟ »

« آخر من يأكل ، وآخر من ينام ، وأول من يستيقظ ..

يغيب صوته عني مقدار لحظات ، ثم يجيئني ..

« القصف شديد والمدد منقطع .. »

أقول ملما :

« كان الأجدى أن تحكم الحصار على من عادوك وهم كثر .. »

« لكنهم يقولون بقسوتي .. »

« هذا صحيح ولكن على من أتبعوك .. »

يقول وصوته واهن :

« هذا تقدير .. »

أكف حتى لا أحدد ولا أعين ، أرسو عند لحظة من أقدم اللحظات التي بقيت مصونة فى وعي أصلي ، وقد عاينها فى بدء أسفاره ليلة من ليالي الحقبة المندثرة ، أشعر بوجود دليلي فى موضع لا أقدر على تحديده . أو رؤيته بإمكانية بصري ، المدينة معتمة ، ليل الحرب يضج ، نجومه أغزر ، أما ضباب المجرة فَسَرْمَدِيٌّ غميق ، أكاد أشغل بما أنا فيه محاولا النفاذ إلى المغزى وتوسم علامة ، ما هي كينونتي وماهيتي ؟ كذا مقارنة السماء التي داومت التطلع اليها فى زمني الأول

مجتهدا فى تتبع نجومها وتقصى مصائر شهبها وتحديد مسارات رواجمها وتأثير بعضها فى بعض ، هنا وجب تنبيه ، لم أكن عالما بالنجوم فى نشأتى الأولى ، لكننى كنت منشغلا بها ، ولأننى ممنوع من التصريح لذا أكتفى بالتلميح ، فلأطو سرى فى قرار مكين .

قال واحد من الأجلة .. كل من أخفى السر سرعان ما يفوز بمراده ، عندما تختفى الحبة فى الأرض فإن سرها يجعل البستان مخضرا ، إذا لم يكن الذهب والفضة مختفين فكيف ينضجان فى أغوار المناجم ، إذن .. اجتهدوا فى فهم ما أقول ، وتفحصوا ما أرمز اليه من إشارات ، ولا تظنوا بى السوء ، أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين المتعالين !

من أجلها تركى القرار وخفضه
وتجشمى مالم أكن أتجشم
ولقد كتمت غداة بانت حاجة
فى الصدر لم يعلم لها متكلم

لا أعرف اسم النهار السابق ولا الغد اللاحق ، أصلى لم يع ذلك ، ولم يحتفظ بما يدله ، وأنا مقيد بعلومه حتى عن ذاته ، فبئس المصير ! ، إنه العام الثامن والأربعون ، منه تبقت أول علامة فى طريق سفره ومشقته ، والسفر هو الظهور ، سمى السفر سفرا لأنه يسفر عن أخلاق الرجال لما فيه من تعب ، وطريق أصلى وعر ، قبل هذه اللحظة أحاطه غمام فكأنه لم يكن ولم يغشه ولم يمر به ، لذلك كان دائم التطلع الى إبنه وهو ابن عام أو عامين ، يقول لنفسه ، إن ما يراه محمد الآن لن يبقى معه ، سينساه ، سيمحى منه ، سيتلاشى من رصيد وعيه تماما ، فهو يعيشه ولا يعيشه .

فى أول الطريق يكون الطفل متلقيا ، حتى اذا قطع فى السفر مدى ، ربما عامين أو ثلاثة فيستعيد شيئا أو ملمحا مما استقر عنده ، وكلما أوغل وَبعُد ..

تزايد تراثه ، حتى اذا قرب تمامه ودنا اكتماله وقرب المحط إنكفأ على قديمه .. فيرى عندئذ مالم يره من قبل لحظة وقوعه ، ويعلم مالم يعلمه فى الحين عينه . انها اللحظة الأنأى ، الأبعد ، هذا ظنى ، الأب مستيقظ والأم قاعدة ، يبدو أنها حامل ، لم أتحقق ، لم أتأكد ، طفل فوق السرير الحديدى أسود الطلاء ، طفل واحد ، فقد رحل كال ومن قبله خلف ، لهما حسن العقبى يوم التناد ، من ؟ إنه أنا من ناحية ، وأصلى من ناحية أخرى ، يقوم الأب متجها الى الباب ، يشد المزلاج الخشبى ، تقول : الى أين يا أحمد ؟ تخالف خروجه الى السطح ، منذ أيام سمعت امرأة تحكى عن حادثة جرت بالعطوف ، إذ خرج رجل حلاق الى الشرفة بعد إطلاق صفارة الإنذار ، وفجأة شقت شظية ساخنة طريقها الى رقبته ، ذبحته من الوريد الى الوريد ، ذبح الشاة ، أخطر ما فى هذه الغارات تلك الشظايا الضالة المندفعة كالمصير ، خطر يقربها منه ، ماذا كان يمكنها أن تفعل بدونه فى تلك الليالى الغاصة بالموت ؟ .

تستعيد الآن ليالى الحرب الكبرى ، عندما كان الألمان يغيرون كل ليلة على مصر ، كان السكان ينزلون الى الطوابق الأرضية ، يفترشون الأرض أمام الغرفة ، فى الظلام تحتك الأيدى مصادفة ، إحدى الليالى لجأ جماعة من بيت قديم مجاور الى الفناء ، اضطر الى فتح الباب لدخول بعض الجيران الأقربين الى الغرفة ، أم هدد وابنتها غير أن رجلا أو صبيا — لا تدرى ولا تعرف كيف دخل — اقترب منها هامسا « أنت عطية ؟ » ، ارتجفت خوفا ، « أحمد .. أحمد » أجابها غير بعيد متسائلا مستفسرا ، غير أنها قالت ، « لا شىء .. لا شىء » تخشى غضبه ، وقد يتطور الأمر الى ما تكره وتبغض ، لذا كتمت والكتمان طبع غلب عليها وطغى ، فكم أخفت ، وأضمرت ، وصانت ، اذا ناءت بحمل أو تعاظمت أثقالها ، ربما تبدو منها كلمة أو آهة أو ايماءة . لكن فى الأغلب الأعم نظرة دالة ، أعمق تعبيرا وأمضى تأثيرا .

عيناها اتصلتا بشفتيها دائما ، فنظرة العكارة يصحبها زم ، أما السرور فله الانفراج والوسع ، صلة بين ممكن وواجب ، بين ضرورى ومحتمل ، غير أن ثمة

لحظات استعصت على فهم أصلى ، ولم يلق لها تفسيرا ، تضيق ملامحها فجأة ، تفضى فى ندرة ، « إنى فى ضيق » تخرج الى الشرفة ، أو تقوم لتروح وتجىء ، تبدو وكأنها على وشك انهيار غريب ، يتطلع أصلى صامتا ، لا يلح ولا يحاول النفاذ ، يعرف أنها لن تفضى ولو بشذر ، ما الذى أقلقها ؟ ما الذى جعلها تنتفض فجأة ؟ هذا ما لن ألقى الإجابة عليه ، فقد أتمت رحيلها بعد معراج أصلى ، وقدر لى أن أعايشه وأشهده ، وهذا حديث له تفصيل وموضع .

فكم من المكتمات ذهبت بصحبتها ولن تنكشف أبدا ، تلك كوة أغلقت ، ونبع اندثر ، ونسيم لن يهب أبدا . وأيام زالت ، فلها الرحمة ، وطيب المثوى ، وحسن العقبى إن كانت هناك عقبى ، وأطلب الرحمة بالأخص لصوتها لحظة لفظها كلمة « ياولدى .. » ، فلم أشهد فى قديمى أو محدثى صوتا أوتى قدرة على تحميل نقطة واحدة بشتى المعانى والعبر مثلها ، هذا مترسب فى خاطرى وفى دمى ، صعب شرحه ، غامض نبره ، فليس الذى يجرى من العين ماؤها ، ولكنها نفس تذوب وتقطر ، يثقلنى استعادة ملامحها الهادئة ، تثير عندى أحاسيس شتى ، هى محل تكوين أصلى ، وأول موطن له ، وآخر محل آمن ، احتواه وضمه حتى سواه كائنا يسعى ، أخرج من الغرفة الى السطح ، غير عابىء بالشظايا ، فأنا مضاف الى هذه اللحظات ، لست منها .

يقف الأب أمام الحجرة ، سماء مزدحمة بالنجوم ، لم يرها هكذا أبدا حتى فى أيام هجاجه بالحقول ، ومبيته قرب الطريق الوعرة فى خلاء قفر ، تبدأ انفجارات متباعدة ، ينشطر ظلام الأفق ببرق لاهب ، صيحات من ناحية قصر الشوق تأمر بإطفاء الضوء ، يقولون إن الطيار يرى لهيب عود الثقاب ، الأب يتململ بتأثير غامض ، خفى ، ليس بتأثير الحرب ، يوشك على الصياح « من هنا ؟ » . كأنه يصغى بشكل غامض الى صدى وجودى ونفاذى الى هذا الزمن ، أضواء الكشافات تشق سواد الليل كنصال كونية ، تمسح الظلمة إذ تمر بها ، خلال بريقها تبدو أطراف من المدينة ، ملمومة ، متضامة ، متحفزة ،

متأهبة لصد أذى ، تتجمع حزم الضوء المستطيلة عند نقطة بعينها ، هدير يعقبه آخر ، ضوء ثم صوت ، برق بعده رعد ، يعلو صوت من الحارة آمرا سكان الطوابق العليا بالنزول ، المكوث خطر .

يرجع الأب الى الغرفة ، يوقن أن غريبا فى السطح ، ربما أنس وربما روح هائمة ، لا يفصح خوفا على امرأته الحامل ، الولد مستيقظ ، منكمش بجوار أمه ، لا يبكى ، هذا الصبى ما هو إلّاى ، أنا ، أتطلع اليه فى الغبشة ، أى علاقة بين هذه الكينونة وبينى ؟ ، بين الملامح التى أراها وتلك التى ستتغير وتتبدل ، بين هذا الحيز المكانى الذى يشغله الآن ، والأماكن التى سيرحل إليها ويشغلها ويطأها بقدميه هاتين ؟ .

بين الصور التى تشغل ذهنه الآن هو المتلقى لا غير وبين الأفكار الهواجم والبواده والواردات التى ستقلقل سكينته ؟ ماسر العلاقة ؟ ما الفرق بين الإنسان فى محط السفر هذا والمحط الذى يليه ونقطة التوقف النهائية ولحظة الوصول التى تنعدم الأمكنه والأزمنة بعدها ؟ هل يقع التغير والتبدل ، أم أنه الإنسان هو هو عينه ؟ إنى من الحيرة والله لفى حيرة ، فمتى ألقى الإجابة ؟ .

يتردد نداء « الهجرسى » ، إنه باشجاويش فى المديرية ، يحض الأب على النزول ، تنقطع خواطرى ويسكن عندئذ ميدى ، أنتبه حتى لا يفوتنى من الأمر شيء ، الليلة ليست مثل الليالى السابقة ، بيت إنهار فى العطوف ، وآخر اشتعلت فيه النيران قرب الكفر ، الخطر قريب ، البيت كله عند أحمد عمر ، لو أن الأمر يخص الأب لما نزل درجة واحدة ، ألم يمنع ابنه عمر من الصعود الى السطح لنشر الأبسطة القديمة فى الشمس؟صحيح أن صلحا تم فيما بعد ، عندما توسط بينهما حسن أفندى . تساءل صاحكا : ألا تعرف أن أحمد عمر من طهطا ؟ فأقسم الأب أنه لا يعلم ولا يدرى ، من أى بيت فى طهطا ، قال أحمد عمر أنه من بيت الذهبى ، قال الأب ، أتعرف فلانا ؟ فيقول الرجل نعم أعرفه ، عندئذ يذكر الأب طرفا من السيرة ، بمن تزوج من أنجب حتى تعجب أحمد عمر

وقال ان الغيطانى يعرف عائلتى أحسن منى ، صحيح أن الود اتصل ، ولكنه لم يقبل بصعود أحد الى السطح فكيف ينزل الآن ويدخل شقته مع امرأته وابنه ليحتموا داخلها ؟ الهجرسى يلح ، الأمر خطر ، الهجرسى عنده ولدان ، شافعى وشعراوى ، هما الآن يجاهدان متطوعين فى فلسطين . إنه عالم بمخاطر هذه الغارات وأهوالها ..

« لابد من النزول .. »

ينظر الى جمال ، إلىّ ..

« هل أحمله ؟ »

تقول الأم :

« إنه .. يقدر على المشى .. »

لحظة تجاوزهم الباب ، بالضبط تلك اللحظة ، لحظة رؤيته النجوم والأضواء الكاشفة ، لحظة لسع البرد للوجنتين ، وسماع صفارات نائية منبعثة من أماكن شتى بالمدينة ، ورنين جرس سرعان ما كف ، فيا هذه الموجودات من عابرة ومقيمة ، قدر لك أن تبقى حية فى هذه الذاكرة التى سنطفىء عند حد بعينه ، قدر لك أن تكونى أول وعيه عندما يتذكر قديمه ، أما ما سبقك فتوارى ، اندثر داخله ، فكيف حاله لو وعى وأدرك انها ستبقى معه أبدا ، وأنه سوف يستعيدها فى بقاع شتى ، وأزمنة مختلفة ، لكن أنى له ذلك .. خلق الإنسان جهولا ، وإنما العلم كسبى ، حتى ما أظنه باقيا لا يبقى ، إنما تومض اللحظة عند استعادتها لا غير ، ثم تنطفىء . ويوما ما ستعتم الذاكرة ، تنطفىء ، فأى الصور الأخيرة ستتراءى قبل الإغماضة الكبرى ؟ أى اللحظات أى ؟ .

أتبع النازلين . أراهم فى شقة أحمد عمر ، إنها المرة الأولى التى يشهد فيها أصلى مسكنا من داخله فى هذا البيت ، إلى اليمين غرفة فسيحة خصصت للنساء . أما الصالة فالرجال يصطفون حولها قعودا ، تبدو الوجوه نائية بملامحها فى

ضوء المصباح الذى غطى بورق أزرق شفاف ، أصلى يؤثر الانضمام الى الرجال ، يلتصق بالأب ، يصغى الى أحاديث شتى ، تتداخل مخارج الحروف ، تتوه الجلسة فى أخرى ، أرى ليالى عدة فى حيز واحد ، يتحدث الهجرسى عن ولديه .. شعراوى لم تصل أخبار منه ، أما شافعى فأرسل خطابا ، انه فى المجدل ، يخبر عن دبابة اسمها النمر ، ومدفع يشطرها نصفين ، وعن شبان عرب تنفد ذخيرتهم فيلقون أجسادهم على الحديد المدجج ، ونساء اليهود يحاربن كالرجال ، أطرف بعينى ، هذه آرائك مفروشة بقماش ملون ، رائحة مبيد حشرى ، الباب المؤدى الى الشرفة مغلق ، مسدلة ستائره ، لكم أتمنى الخروج الى الشرفة ، أرى الليل ، السماء الملتهبة ، والمدينة التى تتخفى .

صفارات الأمان ، طويلة ، ممتدة ، مع أن الأمان فى السفر قليل والمخاطر غالبة ، تتبدل المرئيات ، أوقن اننى مقبل على أمر سيثير دهشتى ويزلزل ما ايقنت منه دهرا ، أرى امرأة بدينة . لا تساعدنى الرؤى وطبيعة الضوء على التيقن من ملامحها ، إنها مريضة ، تلازم فراشها ، والأم تزورها ، تصحب أصلى معها ، أتوقف ، أدقق ، من أى منظور اتطلع الى هذا الرقاد ؟ هل أنا واقف .. هل أنا قاعد .. هل أنا محمول ؟ لم أدر .. من أى زاوية أنظر ؟ لم أحط علما ، هنا أتوقف فقد لزم التنبيه ، ثم التعديل ، إذ عاش أصلى على يقين أن أول الصور الباقية فى ذهنه ، أول ما لم يدركه المحو ، أول ما استعصى على التوارى ، تلك اللحظة التى أفضت فيها وتكرر ذكرها ، لحظة خروجه بصحبة أبيه وأمه ، ليلة هذه الغارة ، لكن مهلا ، إن ما تكشف لى مغاير لما استقر عليه وعيه منذ أمد ، لماذا ؟ لأن هذه المريضة الراقدة هى نعيمة ، امرأة بيومى الحلاق ، الممرضة ، صاحبة أم هدهد ، إنها تقطن شقة الطابق الثالث التى سكنها الهجرسى وأولاده بعدها ، أما هى فانتقلت الى بيت آخر فى ميدان بيت القاضى ، لم تكن نعيمة من سكان البيت فى ليالى الحرب من أجل فلسطين ، اذن .. ما موقع هذه اللحظة ؟ من أى جهة تطلع أصلى الى المريضة ؟ كم عمره وقتئذ ؟ أم أن الرؤيا نتاج أحاديث جرت على مسمع منه ومرأى ؟ لا ألقى الجواب ، إذ تعز العلامات

وتندر الإشارات عند هذه النقطة من الطريق ، لماذا تبقى لحظة دون أخرى ؟ . ما طبيعة العناصر التى أبقت هذه حية ، وجبت ما عداها ؟ أتكمن فى المتلقى ؟ أم فى المصدر ، أم ترتبط بحدود الامكان الانسانى ؟ أكاد أضل ، خاصة أن المعالم منطمسة ، لكم أنوء بعجزى وَهمّى اذ يغمض الأمر ويعسر ، لكم كنت فى وجودى العتيق أكثر قدرة ، حتى دليلى غائب عنى ، عزيز المشاهدة ولولا أنى مأمور مكلف لانصرفت وما أتممت .

وأذكـــر أيـــام الحمـــى ثم انثنـــى
على كبـدى خشيـــة أن تصدعـــا
فليست عشيات الحمـــى برواجـــع
عليك ولكـن خل عينيك تدمعـــا

عند هذا الحد لاح ما يخفف عنى ، ويطرى قلبى ، أليس اليسر يعقب العسر ، وبعد الليل انبلاج فجر ؟ ، والتخفيف عنى يكون بظهور امرأة ، إما فى دائرة بصرى ، أو فى أيامى ، هكذا رأيت بنية باسقة ، لوجودها رحيق وأزيز ، أدرك أنها ظهرت لمؤانستى وإن كانت لا تخصنى ، رأيتها من موقع اللحظة المندثرة فرغبتها وأججت عندى شهوة مندثرة ، فأحيت أرضا من بعد جدب فانتعش أمرى ، كنت عند العام الثامن والأربعين ، هذا موقعى فى السفر حيث اللحظة التى أطلت المكث عندها ، لم تكن قد ولدت بعد ، وهذا غريب .. غير أن ما عجل ظهورها ضيقى وحيرتى ، خاصة أننى ما زلت فى أول المسعى ، وموقع ذلك فى الترتيب بعيد ، لكن عجل بظهورها للتخفيف ، وهذا من مظاهر اللين والرحمة بى ، ها هى ذى تمثل أمامى ، منفجرة الحضور ، قبل أن تولد ، قبل أن تتكون فى رحم أمها ، فكأننى أشتهى العدم ، وأعشق المحال ، ولكن هذا ما تقرر لى ، وقد حاولت التقريب جهد الطاقة ، فمن لم يدرك ومن لم يفهم فالذنب ذنبه لا ذنبى ..

﴿ وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى ﴾

قرآن كريم

.. ها هو ذا أصلى ، أراه مكتملا ، يقف فى مطار بأرض غريبة ، يتحدث الى امرأة عجوز تتكلم اللسان العربى بصعوبة ، الى جوارها يقف رجل أحمر الشعر يمسك قبعته بين يديه ، يومىء برأسه وإن بدا عليه أنه يفكر فى شىء ما ، مخالف ، مغاير لما يدور حوله الحديث ، أحار ، ما العلاقة بين وجود أصلى فى هذا المكان وبين البنية الهيفاء التى رأيت من جمالها بشارة وقبسا ، غير أن قلقى لم يعجل أمرا ، فكل شىء يمضى بقدر ، أرى البعض يمشى ، والبعض يقعد ، شابة تقرأ كتابا فى لغة لا أفقه منها حرفا . وبائعة جميلة ترتدى ثوبا بنيا قاتما تقف خلف صوان عرض نظيف ، به أكواب عصير ، وأطباق الطعام الجاهز السريع ، وقطع حلوى ، ورائحة طيبة منبثة فى فضاء المكان ، أسمع صوتا بلسان غير مبين يتردد عبر مكبر الصوت ، فيتأهب قوم كانوا جالسين ، إذن .. هذا تنبيه بإقلاع وشيك ، أكاد أشرد ، غير أن هاتفا خفيا يردنى إلى أصلى .. أرى عينيه تتطلعان ونظره مستنفرا ، أتبعه فأراها هى .. هى ، القامة السيسبانية والشعر الصفصافى المنسدل يؤطر الملامح ويحددها ، أراها الآن أوضح وأقرب ، تتلفت حولها ، ثم تحسم أمرها فتجلس فى مواجهته تماما ، وعندما تطلعت اليه نفذ وجودها اليه ، فامتزج عبيرها بثناياه ، وتغلغلت فى اعضائه فانتفض ميله وتفتحت عنده طرائق ، واتقدت رغبته ، وتكأكأت الأمنيات على خواطره .

يعاود النظر فتتعانق عيونهما ، يتأكد من وقوع الأمر ، يود لو أنه بمفرده ، لو انصرف الجالسون معه ، تقوم واقفة فينهض معها صدى قلبه ، ينتفض داخله ومظهره ثابت ، يتحرك ما فى أعماقه ويسكن خارجه ، فأى جهد ، أى عناء ، تغيب تاركة حقيبتها فوق المقعد الجلدى الوثير الذى ما زال يحتفظ بحرارة ملمسها ، لا يطول غيابها ، ترجع فكأنه يراها من جديد ، ينبهر بطولها المتناسق ،

قامة دالة مفصلة ، قدت من استواء واستدارة ، هذا السريان الخفى ، ينبعث من جسدها فكأنها تمشى فوق الماء ولا تبتل ، أو تخطو فى الفراغ ولا تطأ اليابسة ، كأن داخلها وتر مشدود يوشك أن يرمى ولكنه لا يرمى : كأنها تطاول شيئا خفيا يحلق على مقربة ، تجتهد فى الابتعاد عن جذرها إلى أطراف لا يمكن رصدها ، دعاه صحبه الى صالة الطعام .. تبعهم صاغرا وعنده تشب حسرة ، غير أنها بعد لحظات ولجت فراغ المطعم ، واجهته من المنضدة المقابلة ، أيقن أن فى الأمر قدرا وتدبيرا ، وأن فى أفق المجهول بشارة ، اتصل النظر ، وعبر ما عبر ، فما أعجب الأمر الخفى وأندره ، فيه ما يصعب الإفصاح عنه ، أو تفسيره .

بنظراتها حركت أوضاعا ، وبعثت عنده خدرا ، وأورقت فيه المنى ، فما أحلى ، وما أجمل وجود الأنثى فى هذا الكون ، بها يبدأ الكمال ، وتستمر الديمومة ، ويقع اللطف ، وتنتشى الراحة ، وتتولد الطاقة ، وينفجر الانبعاث ، ألم يقل الهادى الأكبر الشيخ محيى الدين أنها محل التكوين ، بقدر تأجج رغبة أصلى واتقادها فإن إشتعالها يصاحبه حزن ، لا يغيب عنه أبدا ، إن ما بدأ سينتهى ، قد تنصرف بعد لحظات ، حتى اللحظة لا يدرى عن وجهتها شيئا ، غير أن أساه هذا لا يتعلق بهذه البنية تحديدا إنما هو طبع جبل عليه ، وعنصر من خصائصه ، لحظة تقبيله الثغر العذب الريان ، وإيلاج لسانه متحسسا فم المحبوبة من باطن ، إنما يفكر فى عظام الجمجمة الخاوية التى سيؤول إليها هذا المصير ، والعدم الذى سيخلف الرونق الدافق ، وعظام الساعد الملتف المعانق والترقوتين خلف النهدين ، والحوض الذى يكتمل عنده الاتحاد ويتم إيلاج الكل فى الكل ، وهيكل هذا الخصر إذ يعثر عليه يوما بعيدا منفصلا عن تاريخه الحى ، وكل ما مر به ، وما تردد عبره ، وما شدا حوله حقا .. إن العدم كفر ، إن العدم كفر ، أما الزمن فغالب مبدد ، مهلك ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

وعندما أوشك أصلى على الفهم وإدراك الكنه .. تبدد .. ونفى إلى أرجاء الكون ، لا تجتمع منه ذرتان فى موضع واحد ، ورثت عنه كافة عذاباته ، هو الذى لم يستكن أبدا ، ولم يرتح باله أبدا ، ولو قر قراراه لحظة لظن أنه الأبد

الصامت .

ها هو ذا منعقد الجبين ، ساهم ، لا يدرى من بقربه ، من يفكر فيه ، ترى .. من هى تلك الحسناء الباسقة التى تنأى بعدا عن الثرى منبتها ومثواها ؟ ، عند كل خطوة منها تبدو كأنها ستشب ، ستقلع ، تمضى عبر الفراغ كطير نادر ، فما لب القصة ؟ .

يرتفع نداؤه .. اقترب وقت الرحيل وتحدد ، يودع رفاقه ، يضطر الى التحول بعينيه عنها ، تغيب عنه ، تشب عنده حسرات ، يتجه بطيئا ، مثقلا صوب باب الخروج ، طابور ممتد ، بوابات التفتيش منتصبة ، أين ؟ لا يراها ، تعبر العربة ساحة المطار ، الممرات ممتدة . لماذا تبدو الأرض هنا كأنها على عتبة السماء مباشرة ؟ ، لماذا ينأى الأفق بعد غيابها عن بصره ، تتوقف العربة .. يحدق ..

تقف عند عتبة السلم .

تنتظر دورها فى الصعود ، تقصد البلد الذى يسعى اليه ، هى بعينها ، تستدير قليلا فتواجهه وعندها ابتسامة ، تقف بكينونتها الفارهة .. كالحقائق الأزلية ، كالمشرق والمغرب ، لا أقول كالشروق أو الغروب لأنهما غير ثابتين ، غير دائمين ، فلهما أجل ، يبصرها بالتوالى ، مرة غير مصدق ، فلكثرة ما رغب ولم ينل ، لطول ما تمنى ولم يصل ، ولشدة الإخفاق الذى أصبح تراثا مكتملا .

لم يتصور قط أن الأمور ستمضى هكذا ، طيعة ، هينة ، تلتفت ، يلتقى بها بالنظر ، خلسة فيها الاستفسار الأتم ، وغمامات بعيدة مسكونة بالطل والوعد بغيث منهمر ، ستضمهما الطائرة معا ، غير أن مخاوف تتجدد ، فى أى مكان سيكون مستقرها ومرساها ، ستشغل أى حيز ، ستجلس الى جوار من ؟ ستسبقه الى الدخول ، هل سيجد المقعد المجاور خاليا ؟ كيف يمكنه الاقتراب منها ؟ غير أن جرأة تواتيه لا يعرفها فى أرض موطنه ، وانى لمتسائل ، لماذا لا تتبدد حواجزه الخفية الا فى أرض غربة ؟ لماذا لا يتحرك الا فى أرض غربة ودار سفر ..

مع أن الغريب ضعيف ، ربما لأنه ناء ، قصى عن البِنْية المعتادة .. والستارة القمعية والعيون التى تعرفه ؟ .

إنه يلج الطائرة وأمره فى ثبات وحاله مترقب ، يقطع الممر الضيق بين المقاعد ، متمهلا ، محدقا ، متجاهلا المقاعد الخالية المتاح له الجلوس فيها ، ها هى ذى إلى جوار النافذة المستديرة ، تضع حقيبتها فوق المقعد المجاور ، لتمنع جلوس أى شخص آخر . هذا جلى إذ تتطلع مرحة ، مبتسمة ، يومىء ، فتومىء ، يحييها تحية من كتب له وقدر عليه أن يقابلها منذ مولدها ، تحية القادم من بعد سحيق ليتقاطع وقته بوقتها ، وفى الحيز المحدد ليلتقيان ويتجاوران ، كل شىء بقدر .

اعلموا أن اللقاء أثناء السفر له خصوصية . لأن فى الأمر قدرا من الغربة .. اذ أن الغريب للغريب معاضد ، وعند الانتقال تدنو الأخطار ويكمن اللامتوقع ، المجهول ، خاصة اذا أسرعت الوسيلة وضاقت المساحة ، يقول القائل لنفسه : ربما ألقى حتفى كذا جارى الذى لا أعرفه ، فيبدأ عندئذ الاقتراب ، ويدنو الفرد من الفرد .

أول ما وصله منها رائحتها ، انبعاث وجودها ، عبيرها الأنثوى ، إشاراتها الخفية الى العالم الخارجى ، لحظة استنشاقه لها بقيت عنده حتى بدء معراجه ، وذهاب مدته ، ثم انتقلت عندى ، لكل أنثى أريجها ، اعتاد الاحتفاظ فى خزانته حتى اذا انقضى العهد وتمت العلاقة استعادها مرات ومرات ، لا تهن مع مضى المدة ، ولا تحب رائحة أخرى ، وفى الأغلب الأعم تكون مفتتح الذكرى الى طرائق وسبل لا حصر لها .

يمد يده ، تلتقى أصابعه القادمة من بعيد بأصابعها ، يسرى اليها وتسرى اليه فيخفق قلبه ويدب عنده انتشاء فتنتشر آلته ، لم يخش ظهور أمره ، لم يخجل ، تقرّب وجهها منه ، تشير الى صدرها ، تقول بلسان عربى غير مبين : « أنا » ، تتوقف ، لم تكمل ، تفتح حقيبتها ، تخرج دفترا صغيرا ، بنى اللون ،

الى مستقبله ، يسأله عن محل إقامته ، يطلب منه التمهل لحظة ، يخط عنوان الفندق وعنوانه ، يفترقان ، كل الى سبيله .

طوال ليله الأول يتساءل ، هل سيراها مرة أخرى ؟ لو أنه فى إجازة لما فارقها غير أنه اضطر ، عندما أغفى ، أثناء اجتيازه البرزخ الفاصل بين اليقظة والنوم ، استعاد رائحتها ، وحضورها الهامس ، وملمس شعرها السيال الناعم المنسدل ، عندما مال عليها وفكر أن يلثم وجنتها . تردد ، ليته فعل ، غمره حضورها الأنثوى فبدد تعبه وانتزعه من تخوم النوم الى أتون الرغبة واليقظة .

فى وحدته هذه ، حام حولها ، جردها ، قبلها ، مرغ رأسه على نهديها ، حاد بها ، ضمها وهى نائية حتى كفى ذاته بذاته ، هذا لم يرضنى ، لم أتقبله منه ، لم يكفنى ، وهنا دهشت لما وقفت على المرات التى اعتصر فيها خياله وأرهقه مستدعيا ساقين عاريتين أو مطلع فخذين انحسر عنهما ثوب ، أو مرأى جارة شابة ناهدة الصدر . عصر كل يوم تخرج الى النافذة ، تنحنى مطلة ، ذراعاها سخيتان ، ومفرق نهديها باد ، ثوبها يتوارى فى مفرق ردفيها ، فيتحدد الأمر وتبرز التقاسيم ، يشعل هذا فيه حمى ويبعث هذيانا ، يناجيها عبر النافذة بداية بالكلام الرقيق ثم يثنى بما يمكن التفوه به عند المضاجعة ، حتى أنه ليخور ويزوم ويطلق صرخات بدائية وحتى تقييدى هذا لم تعلم الجارة بما فعله بها ، كان اذ يلقاها فى الطريق يومىء محييا فتبادله ، ضقت بذلك ، تراث طويل من نكح اليد ، وارضاء الذات بالذات ، وعندما ضاجع أول انثى بعد الثانية والعشرين لم تكن تخصه ، إنما أجرت فرجها وأحضانها لقاء قدر معلوم ! . أتعجب من ظروف تؤدى إلى هدر الإمكانية ، وتؤدى الى فساد البنية .

فى نشأتى الأولى لم أعرف هذا الحرمان والتصحر ، وبرغم سخطى ، إلا أننى أشفقت على أصلى البائس ، ورثيت لضياع عمره الغض بدون ارتواء ، أطلعت على ليال عدة لا حصر لها . يغمض فيها عينيه ودماغه كوعاء لماء يغلى ، والرؤى الشهوانية تعصف به وتبليه ، كأنه ارتد الى أيامه النائية تلك فى هذه الليلة ، لا

مذهب الحواف ، تقلب صفحاته ، تشير الى سطر يحمل إسما وعنوانا ورقم هاتف ، تقول بفرنسية : « صاحبى » ، لا تعرف من الإنجليزية التى يلم بجانب منها إلا كلمات معدودات ، أما حصيلتها من العربية فنادرة ، علمها صاحبها أسماء الأعضاء الجنسية ومواضع الشهوة فى اللغة الدارجة .

فى الطائرة عرف أنها تقصد البلد الذى يسافر اليه فى أجازة مدتها أربعة أيام ، تلك عين المدة التى سيقضيها ، لن تزيد أو تنقص ، عندما جاءت المضيفة بالطعام قدم إليها الصينية المغطاة بورق شفاف ، ساعدها فى ترتيب الملعقة والسكين ، يبدى ودا ، يظهر عناية ، تقول ممتنة : « شكرا » . لم ينظر اليها أثناء تناولها الشطائر ، كما خشى أن تبدر منه علامة نهم غير مستحبة .. فراح يقضم قطعا صغيرة يمضغها بتأن ، يختلس النظر الى من يمكن لهم رؤيته . هل يرقبه أحد ؟ هل ينظر اليه أحد ؟ أبدا ، الكل لاه .

تتطلع عبر النافذة ، غيوم وكون رمادى ، تتقلص ملامحها ، تقول ما يعنى رداءة الطقس ، هكذا قدر ، وحتى إقلاع أصلى من فاس المباركة لم يدر ولم يقدر على إدراك كيف اتصل حوارهما رغم شحة اللفظ ، وندرة اللغة ، لو طلب منه استعادة اللحظات بعد انقضائها وشرح هوية التواصل لما استطاع . ولكل أمره .

إسمها اليزابيث ، تعمل فى متجر يبيع الأدوات الكهربائية ، على وشك التخرج فى احدى مدارس اللغة ، تنوى الإلتحاق بمكتب للسياحة ، حيث الوضعية أفضل ، إنها من الريف ، أمها تعيش فى قرية صغيرة يمر بها نهر صغير صافية مياهه ، تشى بما يستقر فى قاعه من حصى ، القرية قرب الحدود الجنوبية لكنها جاءت الى العاصمة تستأجر غرفة صغيرة ، ضيقة جدا مع امرأة عجوز ، تدخر مالا كل سنة لترحل الى بلد غريب ، انها تقصد هذا البلد أول مرة ، لا تعرف صاحبا أو صاحبة هناك ، أما جمال فماض للمشاركة فى مؤتمر ، البعض ينتظره فى المطار ، أحدهم يرفع لافتة كتب عليها إسمه ، يتقدم نحوه مبتسما غير غافل عن موضعها فى الطابور المصطف أمام مكتب الجوازات ، يقدم جواز سفره

أدرى كيف نام ؟ ، لكننى رأيته لحظة استيقاظه ، يفتح النافذة ، إنه قريب من الطريق ، الأرصفة رمادية ، المنزل المقابل مغلق النوافذ ، ثلاث شجرات .. لخضرة أوراقها بريق وزهاء ، امرأة شابة تمشى مسرعة ، تميل إلى أمام ، لسبب ما ، ربما يكمن فى لون الضوء ، فى طريقة مشى المرأة ، ربما بتأثير الشجرات ، أو الستائر المسدلة خلف النوافذ الزجاجية . لسبب يستعصى على الإدراك ، فاجأته وحده وأدرك بحدة أنه غريب ، مرقت فتاة أخرى تضم كتبا ، من ؟ من أين جاءت ؟ الى أين مقصدها ؟ لن تقع عيناه عليها مرة أخرى ، هذا مؤكد . إنه يتساءل ــ وإنى قلق معه ــ هل ستجىء ؟ هل ستفى ؟ .

ها هو ذا فى مطعم الفندق ، يجلس الى ثلاثة من صحبه سبقوه فى السفر ، يقضم كعكة مستديرة ، من المدخل الرئيسى للقاعة تهل ، تبدو ، تجىء ، تسرى عبر المناضد اليه ، صوبه مباشرة كأنها تعرف موقعه ، يعتذر لصحبه ، يقول أحدهم وهو عجوز أشيب « مرحى بالشباب » ، يسألها : « هل تناولت إفطارها ؟ » . تنفى ، تلفظ « لا » كالشكوى ، إذ فرغا من الشاى بالحليب ، إنصرفا ، خط اعتذارا ، لن يحضر الجلسة الافتتاحية ليحدث ما يحدث ، أعجبنى منه ذلك ، يمضى بجوارها ، أولى خطواته فى العاصمة التى كادت تمحى فى الحرب العالمية ، الحرب التى ولد ليلة توقفها ، أول أيام السلام ، وإنْ خلت حياته منه ، عرف التاريخ والمصادفة على حين فجأة .

ولذلك قصة .

إذ اعتاد التردد على متجر قريب من البيت يبيع الورق القديم ، صاحبه جنوبى من قرية مجاورة لجهينة ، يقلب الصحف والمجلات القديمة ، أحيانا يعثر على ثمين الكتب مقابل قروش زهيدة ، فى إحدى المرات رأى عددا من صحيفة الأهرام ، عددا نحيفا من أربع صفحات ، استسلام ألمانيا وانتهاء الحرب فى أوروبا ، فى صدر الصفحة رسم لامرأة تمسك سيفا بيد وغصنا للزيتون بيد أخرى ، وصورة لجنرال ألمانى يوقع وثيقة فى مدرسة مهجورة قيل إنها بنيت من طوب أحمر اللون ، التاريخ ، التاسع من مايو عام ألف وتسعمائة وخمسة وأربعين ، سأل الأم :

هل ولدت يوم أربعاء ؟ قالت : فى الفجر .

فيما بعد تساءل : لماذا معظم حالات الولادة فجرا ، كذا الموت . احتفظ بالعدد سنوات طوالا ، فقد منه ولم يدر أين ؟ ، إنه يحث الخطى بجوارها ، تبدو عليمة بالمدينة على الرغم أنها رحلتها الأولى ، ينظر الى المبانى متقاربة العمر ، مدينة بُنيت بعد دمار ، قامت عماراتها وشقت طرقاتها فى زمن واحد ، كيف كانت تبدو أثناء الغارات ، وعند الاجتياح ، كيف حالها صبيحة يوم مولده ؟ .

عند ناصية رأى لوحة سوداء ، عليها أسماء بالقلم الغريب ، أمامها باقة زهور نضرة ، لا يخلو شارع من لوحة مماثلة ، يتوقف ، تنظر إليه دهشة ، يتطلع الى الأسماء ، التاريخ يعرفه ، قبل مولده بعامين ، يستغرقه الأمر وهذا عجيب ، فكأن خياله لم يلتهب بمرأى من تقف الآن ، ينتبه اليها ، يبتسم ، يرفع يدها الى شفتيه ، يقبل شفتيها الورديتين فيتمكن من رائحتها وملمس ضواحيها ، يتحسس شعرها برقة مبديا الحنان ، بينما الرغبة تشب عنده وئيدة ، فى عربة الأجرة أبرزت عنوانا ، استأجرت غرفة عند عائلة ، هذا أرخص من فندق ، تبتسم ربة البيت ، بدينة الى حد ما ، ثوبها أزرق ، لا يفهم لغتها ، غير أن ملامحها تفيض بالود ، مسكن غير فسيح ، ثلاث حجرات لا غير ، الطابق أرضى ، عبر النافذة يرى ساحة فسيحة تمتد بين أربعة بيوت ضخمة ، طفلان يجلسان على درج عند الناحية الأخرى ، تومىء ربة البيت ، تغلق الباب ، إنهما الآن منفردان ، متواجهان يقترب فيدنو كوكب من كوكب ، تتصارع الجاذبيتان ، تتسارع أنفاسه ، تمسك طرف قميصها تروم قلعه ، غير أنه يمسك يديها ، فلتكف ، بيديه هو ، على مهل ، ليس أعظم لذة من البداية ، بداية السفر ، بداية الحب ، بداية الأمر .. أى أمر .

لم ينس قط لحظة تلاقى جسديهما ، إغماضها العينين ، ضمها شفتيها وإغلاقها منافذها لحظة أسر كل منهما للآخر ، تنفجر البداية من سحيق المجرة ، يتجاوزان أفلاكا لم ترصد ، ويلسعان شهبا ، يستقران قدرا لا يمكن تحديده فى روض منمم ، عندما دنت من الذرى ، زلزل زلزالها ، بدأ ارتجافها ، منها انبعثت

دوامتها ، فكانت هى المركز ومحيط الدائرة والقرار المكين ، شرقت وغربت فى نفس الاتجاه ، طلعت ونزلت فى حركة واحدة فتخففت من أحمالها ورمت أثقالها ، محققة لحظة الدمج الإنسانية ، أدهشه ذلك فنظر ، فحدق ، فتمكن ، فأحاط بها من كافة جهاتها . هذا ما حيرنى منه .

فى قمة نشوته لا ينتشى ، إنما يعى بحدة ، لا يغيب ، إنما يحضر ، هنا تذكر بنية فتية لا تزال بعد فى أول طريق التجربة ، عرفها زمانا بعينه وكأن لها عنده شأنا ، بمجرد ملامسة مشارف عالمها إنتابها ما يشبه الفواق ، تتابع خروج أنفاسها فى شهقات سريعة ، متلاحقة حتى ظن بالأمر سوءا ، وعندما فتحت عينيها حدقت فيه : كان مرتكزا الى ركبتيه مدققا بصره فى ملامحها ، متفحصا ذروتها ، متعته فى إدراكه أنه فاعل ذلك ، للحظة بدت صامتة كأنها فوجئت به ، ثم تغيرت ملامحها ، انقلبت الى خوف ثم رعب ، صرخت مولية وجهها بعيدا عنه « ماما .. ياماما » ، إرتدَّت بكامل أنوثتها المتفجرة الى طفولة مرعوبة ، لم يفلح انحناءه عليها ، وهدهدته إياها ، وتقبيله شعرها وعنقها ، وضمه لها ، ورفقه بها ، وحتى تمام مدتهما وافتراقهما ، ومضى كل منهما الى سبيل .

لم تفصح له عما أخافها منه ، لم تصرح .. مع أنه عرفها وعرفته مرات بعد فزعتها تلك ، ها هى ذى اليزابيث تتطلع اليه ، يلثم صدرها ، ما زال متمكنا منها ، غير مفارقها ، يرفع يده المتدلية المستسلمة ، يقربها من شفتيه ، ابتسامتها تحوى وَهَناً كأم فرغت لتوها من ولادة فبدا عليها نصب العناء ورضى من أعطى الحياة الدنيا مددا .

فى عينيها الواسعتين ، الغريبتين وسن مزهرى ، مخملى ، فى نظراتها طل ، والطل هو أول نشء المطر ، إذ أنه ضعيف ، أما هو فقد أطلعت على ما دار عنده ، يقول لنفسه إن فى عناق الرجل بالأنثى ذروة الحياة وتجددها ، وفيه الموت أيضا ، فبعد تشييع النواة إلى الأعماق ، يجيء الهمود والسكون ، بل قد تنشأ الرغبة فى المفارقة ، ينسحب منها ، يتمدد الى جوارها ، يفرد ذراعه لتتوسدها ، لم ينأ عنها ، لم يولها ظهره ، قديما نصحه خبير مجرب ألا يفعل ، تضيق المرأة

بانفصال سريع يعقب اتصالا وثيقا ، إنما يؤثرن الود والهدهدة ، هذا حسن منه غير أنه مختلق ، لذا لا يدوم ، سرعان ما يتململ وينتابه ضجر ممض ويختلق الحجج للانصراف ، واذا سأل سائل ، ماذا عن لور التى لا يرغب فراقها والابتعاد عنها ؟ الوحيدة التى احتضنها وأغمض عينيه مستغرقا فى نوم كالقطيفة ، مع أن عادته التوحد عند النوم ، أقول إنه عايش ذلك فى نشأته البديلة ، ومن شاء الاستزادة فليرجع إلى المقامات ، اذ فصلنا الأمر وجليناه فى مقام الاغتراب ، إنه الآن صامت ، هى ساكنة ، غير أنها تفيض رضا ، أما سكينتها فلا تعكرها شائبة ، صمتها رضائى ، يشعر أنها وحيدة تماما ، لم تصرح له ، لكن فى رقدتها قضية ، يلمح نهديها المشرعين كالجهر بالسر ، وحلمتيها المشرعتين وأخمص بطنها المنخفض ، يولى وجهه صوب السقف الأبيض المنخفض ، تلك الأنفاس ستكف يوما ، وهيكل هذا القوام سيتمدد عندئذ فى حفرة قصية بعيدة عن الموضع الذى سيحتويه هو ، قد يعثرون على عظام ساعد منه ، أو قطعة من ترقوته ، أو ينظرونه مكتملا ، متصلا ، فمن أين للرائى المتفحص العلم أن هذا اتحد بذاك يوما ، وأن نشوة انبعثت هنا والتقت بنشوة هناك ، من أين لهم إدراك ما مر به من دقائق ، من استجابات وغير ذلك ، حقا .. إن العدم كفر ، إن العدم كفر ومذلة ، هذا حق .

مصغ هو الى أنفاسها ، كأنها لو تركته ستبقى أبدا ، يقوم جالسا فى الفراش ، يلمح أطفالا يلعبون فى الساحة ، يتقاذفون كرة لا يراها ، ضوء حليبى اللون ينبىء ببرودة سارية ، ينتبه الى اقترابها منه ، عارية ، فارهة ، تشير بيدها وملامح وجهها بما يعنى استمتاعها ورضاها ، ثم تشير اليه ، تلمس صدره بطرف أصبعها ، تسأل .. وأنت ؟ ، فيكون جوابه الحناءة وتقبيلا ، نقطة الوصل والاتحاد ، تبتسم ، تبدى سرورا ومرحا ، غير أنه راغب فى الانصراف الآن ، يود الانفراد ، الجلوس داخل مقهى ورؤية المارة من وراء زجاج ، أو التيه فى شوارع المدينة على غير هدى ، حتى اذا تعقد أمره يركب عربة أجرة مبرزا عنوان الفندق .

هذا دأبه عند نزول مدينة لم يطأها من قبل ، يشير الى ساعته ، الى جهة

ما ، يجب الانصراف ، تومىء مجيبة ، يرتدى ملابسه بسرعة ، يمسك حافظة نقوده ، يبدو عليها انزعاج ، ماذا سيفعل ؟ ، كلا .. إنه يود تقديم مقدار من المال يسير إلى صاحبة البيت مقابل تردده ، إنها تفهم ، تضع الورقات المالية الثلاث تحت لفافة بسكويت ، تودعه ، يؤكد لها أنه سيجىء فى الغد ، بعد انتهاء جلسات المؤتمر ، تقريبا .. فى الثالثة ، تقبله ، تقول انه رقيق ، ومعان أخرى لم يدركها بالدقة وان عنت الثناء والود ، ينصرف ، تودعه ربة البيت مبتسمة ، مرحبة ، يجتاز الممر والمدخل الرئيسى ، ينتبه الى العلامات التى تمكنه من العودة ، المبانى متشابهة ، يتحسس الورقة التى خط عليها العنوان ، عند المنحنى راقه الشجر الأخضر ، وتأمل بلاط الطريق القديم فحن ، هنا محطة للانتظار ، هذا المنحنى من زمن ما قبل الحرب ، أخطأته البلايا ، بيوت ضاحية ، طابق أو طابقان سقوف القرميد المحدبة .

فيما بعد استعاد وقفته تلك طويلا ، كذا مدخل الضاحية ، وبيوتها القديمة المتضامة ، وعمارتها الحديثة الشاهقة لحظة عبوره الجسر الحديدى فوق النهر هب عليه حنين ، لماذا فارقها بهذه السرعة ؟ لماذا وأيامهما معدودات ؟ ضايقه أنها بدت مصدقة لما قاله ، لكل ما يقوله ، لماذا ادعى كذبا أنه ماض الى المؤتمر ؟ لماذا فارقها وحيدة فى تلك الغرفة الضيقة ؟ لم يعن حتى بسؤالها ، كيف ستقضى ليلتها ؟ . عجبت من أمر صاحبى هذا ، كلما مضيت قدما فى هذا الحال يبدو لى منه ما يحيرنى ، ما يثير عجبى !

أعرف بكينونتى الأولى أن الحيرة تلزم الهوى ، وكل من يتصف بالهوى والميل يتصف بها ، غير أن ما يلوح لى منه ليس حيرة وليس هوى ، أخشى أن نكون ضدين فيستحيل اجتماعنا ، هذا يقضنى ويرمينى فى شتات ما له نظام ، عند محطة لا يعلم اسمها أو موضعها ، يغادر العربة ، ينثنى راجعا ، تستقبله ربة البيت باسمة ، تتقبل منه باقة الزهور بود وترحاب ، للزهور شأن عظيم هنا . تشير الى الغرفة ، يدفع الباب ، يتوقف ، مستغرقة فى نعاس ، متكومة فى الفراش ، ملمومة ، تلامس مقدمتا ركبتيها صدرها ، تنشأ عنده شفقة ، ويبدأ رثاء ، وحدة

مكتملة ، مقطوعة عن الصلة ، والإنسان يبدو ضعيفا فى نومه ، مستسلما ، ألم يقل الشيخ الأكبر أن النوم هو الموت الأصغر ، تفتح عينيها متمهلة ، كأنها أمضت لحظات حتى تبينته ، أى مفاجأةُ ؟ تلثم وجنته اليمنى مرتين ، ثم اليسرى ، تشب فرحة ، تدعوه للجلوس .

الساحة خلت من صيحات الأطفال ، من الأصداء ، من اللعب ، هذا أوان العصر ، فكأن المكان بدل تبديلا ، موحش ، والفراغ مشحون بنذر شيء ما ، غامض الكُنْه ، ربما بوادره الليل المقترب ، ربما تأثير النهار المولى ، لو أنه استمر فى طريقه لكان متمددا فى الفندق الآن ، يبدأ اغفاءة العصر التى اعتادها منذ القدم ، لو اتصل نهاره كله يقضى ليلا ضنكا ، مرهقا ، وهذا مغاير لما جبلت عليه فى نشأتى الأولى ، يضيق بالبقاء ، لكن كيف سيبدو فى نظرها لو أنه انصرف الآن ، الحق أن عجبى يعظم واستنكارى يدب ، يقترح تناول الطعام فى الخارج ، توافق بلا تردد .

عصر اليوم التالى جاءها .. إنها منتظرة ، ترد اليه الوريقات المالية ، أبت ربة البيت أن تتقاضى أجرا مقابل تردّده ، هذا العصر بدر منه ما فاجأه هو ذاته ، مع اليزابيث يجتاز حواجز عتيقة طال نصبها ، ولأنه سلك طريقها بالأمس فقد بات عارفا ملما ببعض علاماته ، أما هى فكانت تقترح عليه مسارات وعبور دروب شتى ، وورود منابع سخية لم ينهل منها قبل الآن .

بعد فراغهما كان يأتيه من عالم أنفاسها التحية والأخبار المطمئنة ، اقترح أن يخرجا معا ، أشارت الى ما بين ثدييها تكنى عن هويتها « أنا » ، تدعوه الى العشاء ، تبسم ، كيف يمكن أن يخطر لها ذلك ، هو الداعى ، أبدا ، تشير بيدها الى أعلى ، مطعم للسمك فوق الجبال القريبة من المدينة ، الطريق اليه بديع ، ليتهما يقطعانه قبل الغروب ، تتوزع قرى صغيرة على السفح ، لا تبدو للناظر الطرق الفرعية المؤدية ، فكأنها منقطعة عن الاتصال ، كل قائمة بذاتها ، عوالم متباعدة ، قصى كل منها عن الآخر ، منزل على الطريق ، وحيد ، خشبى ،

أمامه تخطو امرأة عجوز متمهلة تحمل سلة ، ترتدى معطفا وتحيط رأسها بطرحة قاتمة ، يتابعها أثناء حركة السيارة حتى أنه يستدير الى الخلف حتى لا تغيب عن بصره ، بينما المنزل ينأى والمرأة تتوارى ، تتطلع اليه صاحبته دهشة ، ما الذى يدعوه الى التحديق ؟ لا يبدى إشارة تشرح ، أو حتى إيماءة تفسر ، أما أنا فتساءلت أيضا عن الدافع ، انشغلت به غير اننى لم أقف على التفاسير ، وإنْ شكلت هذه الرؤية العابرة فى تراثه علامة ، إنهما يغادران العربة عند محطة قرب منحنى ، للصمت الجبلى هيبة ورسوخ ، طريق ترابى مهدته الأقدام وتوالى السنين ، يمر بغابة تنحدر أشجارها وحشائشها وزهورها ، يتنوع الضوء من بقعة الى أخرى ، يعبق الفراغ برائحة رطوبة ، رائحة نباتات خضراء شتى ، ندية فأستعيد وجدا قديما كان ممكنا ألا يبعث أبدا لولا إيابى وحلولى عند أصلى هذا .

هنا يبدو المكان لناظرى غريبا ، كأنى فى وقت ، ونظرى يقع عليه فى وقت آخر ، كأنى يقظ وأراه ، فالأرض مترقرقة ، موجة إثر موجة ، والأشجار من ظلال وأصداء ضوء ، والأصل أشرف من الظل ، لأن الظل تابع ، وقد يوجد الإنسان أو الشىء بلا ظل ، لكن لا يمتد الظل إلا فى أثر أصل ، وربما يكمن هذا وراء حنقى الذى يهب فجأة على جمال ، فلولاه هو لما جئت أنا ، ولولا معراجه لما كان نزولى ، ولولا ذهابه لما صار إيابى ، وما تم من أفعاله لا حيلة لى فيها ، ولا قدرة على تبديلها ، أما ما تبقى فمحكوم بما انقضى من المدة .

ها هو ذا يظهر فجأة ، عاريا تماما كالحقيقة الناصعة ، على وجهه تعابير لم أطلع عليها أبدا فكأن كل ما مر به من أحاسيس ومشاعر شتى ورقائق لا تبين وتجل عن الإفصاح . كأن كل ما تردد داخله أخذ أقصى مداه فلم يغد هناك مزيد ، تضيق قسماته بما يعتمل داخله فيصرخ ويطلق أصواتا غريبة كالطبيعة عندما تستعصى على الفهم .

أرى صاحبته تعدو أمامه ، تمد ذراعيها فى اتجاه ذراعيه ، كأنهما يتعلقان بخيط لا يمكن للرائى إدراكه ، أرى إدراكه لها ، تقلبهما فوق الحشائش الخضر ،

تنفذ إليه رائحة الأرض الخصبة والندى المتكون على الأوراق والمختلط بالتراب المبتل ، والثمار المتساقطة التى لا تمتد اليها يد فيتغير لونها ، يمرغ رأسه على صدرها ، بسرعة خاطفة يلثم حلمتيها ، يتقلب فوق ذراعها الممتد ، ينتقل الى الأرض فيستمر وكأنه لن يتوقف أبدا ، يزعق ، يجعر ، تبدو منه أمور يخيل للناظر من بعيد أنها متنافرة ، تتسرب إليه رائحة اليزابيث فتمتزج بعبير الزرع والبلل ورائحة الطير الساكن ، يذوب هذا كله فى رائحة مالا يمكن إدراكه بالنظر ، يعتبر هذا دليلا على سلامة مشروعه ، وعلامة على صحة وجوده ، وبرهانا على حقيقته واتساق نظامه ، انه يتدحرج مبتعدا عنها، ملتصقا بالأرض ، متشربا ذراتها .

عند حد بعينه يبدأ غوصه وتواريه مع كل دورة يدورها ، حتى يغيب عنى تماما ، بينما تقف صاحبته متطلعة ، متجردة ، مثال على النشأة الكمالية ، متممة لما حولها من عناصر ، مستوعبة وملخصة لها . أعجب فوق عجبى ، فمن لى بالإيضاحات المكنونة ؟ ، ما أطلع عليه من تراث يمت الآن الىّ ، غير أن علمى به شاحب ، وعندى منه شبهة ، فجل من أوضح الأمر وكفى الإنسان مشقة السؤال ، غريب أصلى فكأنه جمع الفوق والتحت معا ، فلا جهات له أو عنده ، إنه ينبوع أمامى أراه ثانية فكأنه لم يغب عنى أبدا ، يجلس إلى صاحبته هذه فى مطعم السمك النائى .

يرهف أذنيه لخطى مجهولة تدنو وتبتعد .. إنه يجاهد لرصد مرور الوقت ، ليس فى تغير المظاهر وانتقالها من طور الى طور ، من ليل الى نهار ، ومن نهار الى ليل ، ولكن الوقت السارى ذاته ، تبتسم ، يبدو أنها تستفسر ، هل أعجبه الطعام ؟ يشير الى المرق الأصفر المزز الطعم ، أسمعه يقول : من أجل هذا المرق سيجىء مرة أخرى الى البلد . يطلب مقدارا آخر ، ينهم حتى يشرع فى شرب كوب منه بلا خبز ، توقفه ، فى المرق زبد ودسمه شديد ، هذا ضار ، أما النبيذ الوردى المثلج فاجتاز به المدى وطفا ورقق من قسوة الموجودات وكشف عن قبس مما يختفى خلف الأشياء مما يصعب إدراكه بالبصيرة الإنسانية ، هذا حاله ،

يأكل المتاح له ، لا يأنف ولا يمتنع ، حتى اذا واجه الطعام المتقن تمهل وتقصى وتمعن ، فكأنه اعتاد ذلك وجبل عليه ، ان قلبه يخفق ، وهلعه يشب خوفا على اللحظة أن تنقضي ، فيرفع الصوت بغناء شجى راجيا تمهلها ، ومضيها هونا ، تلك اللحظة بالذات ، اللحظة الاستثنائية ، غير المدرجة فى الخطة ، غير أن الحال لا يدوم ، الوقت حاد ، وقانونه الأبدى الفوت ، وفهمه مستعص على الكافة .

أراه يمشى فى طريق عريض تحفه مبان شاهقة تحجب المدى الأتم والأفق الأوفى ، هى إلى جواره ، تحمل حقيبتها الصغيرة ، منذ قليل اتحدا ، تضاما ، تمددت فوقه بعد هموده ، قبلته ، ناغته بلفظ مجهول عنده وإن ألمح الى مدلوله ، رأى عينيها تترقرقان ، فوقع به كمد ، قدمت اليه صورتها ، خطت عنوانها وعنوانه .

الآن يقترب افتراقهما ، سترحل بعد ساعة ، هى فى اليوم التالى ، بالأمس عقد النية على اصطحابها حتى المطار ، أما الآن فيود الانفراد ، الفندق قريب ، يبدى أسفا واعتذارا ، المؤتمر ! ، لقد نسى جلسة ما بعد الظهر ، آهتها حسرى ، تقبله دامعة ، ملامحها أصدق منه ، يتمنى انتهاء اللحظة ، غير أنه يبدى الجزع عند الافتراق ، راغب هو فى ولوج غرفته ، فى اغلاق بابه ، أن يغفو اغفاءة الظهيرة ، ولكم ضيعت منه هذه الإغفاءة ، ولهذا تفصيل وشرح سيأتى فى موضعه .

تتراجع بظهرها متطلعة ، ملوحة ، معلنة بدء الهبوط ، تلثم يدها تجاهه ، تصطدم بفتاة مسرعة ، تنتبه ، تولى وجهها شطر السفر ، حتى المنحنى التفتت خمس مرات ، ولوحت خمس مرات ، دارت عند الناصية ، والنواصى تحجب الرؤية ، وتضع الحدين الجمع والفصل ، ولما اختفت نزلت به سكينة ، والسكينة جمود ، وهى مطالعة الأمر بطريق الإحاطة من كل وجه ، وما لم يتم ذلك فالسكينة لا تصح ، وكما خيرها العرفاء ، أصحاب الطريق ، هى الأمر الذى تسكن اليه النفس لما وعدت به ، أو لما عرفت منه ، وسميت سكينة لأنها إذا حصلت قطعت

عنه وجود الهبوب الى غير ما سكنت اليه النفس ، ومنه سمى السكين سكينا لأن صاحبه يقطع به ما يمكن قطعه ، وهذا اللفظ كما أوضح الشيخ الأكبر محيى الدين مشتق من السكون وهو الثبوت ضد الحركة ، فالحركة نقلة ، والسكينة تعطى الثبوت على ما سكنت اليه النفس ، ولو سكنت الى الحركة فليس ذلك حقيقتها ، ولا يكون ذلك إلا عن مطالعة أو مشاهدة .

هذا ما جلاه الشيخ وأوضحه ، غير أن سكينة أصلى غريبة ، هى ليست نهاية أو استقرار أمر ، إنما بداية فورة ، وعتبة مؤدية ، ليست بداية طمأنينة .. ولكن نهاية ، إنها أشبه بصمت المحزون المفجوع قبل تفجر حزنه فى صراخ أو نواح ما بعده بعد ، فهى اذن الى البهت أقرب ، إنها لحظة الصمت الذى يسبق الدوى ، أو سكون ما قبل الزلزلة .

بعد اختفائها ، وإدراكه فجأة انقطاعها ، تنفذ برودة الى صميم نخاعه ، يمر به كثيرون لكنه لا يرى أحدا ، فارقته .. انه المعنى الوحيد الذى طن وعم وطم داخله ، يتساءل بصوت مرتفع غير عابىء بمن حوله ، كيف ضاق بها ؟ كيف التمس الحجة ليعتذر عن آخر وقت متاح للرفقة ، للصحبة ، للقربى ، كيف ؟؟ .

يعدو منقلبا الى حيث ولت ، اختفت ، موجودة وغير موجودة ، راحت وراح الوقت الذى حقق فيه ما حقق واتحد وانطلق ، كأن الوقت لم يكن ، يرقب الوجوه ، نساء ، فتيات كثيرات ، لكن ملامحها تائهة ، بينه وبينهن هوة سحيقة .. يجول الطرقات ، يلج باب الفندق عند الغروب ، فى حلقه مرارة ، وفى صدره وحشة ، أما روحه .. ففى خلاء ، بمخيلته حاول أن يعيش وقتها ، سفرها ، اجتيازها البوابات ، وصولها ، إذ يستعيد لحظة دخوله غرفتها ورؤيتها متكومة ، متوحدة ، منفردة ، يسب ذاته ، يضيق بما سلك .

فى هذه الليلة حكى لصحبه عنها ، داعبه البعض ، وأصغى اليه الآخرون وفى عيونهم حسد ورغبة ، وقبل مغادرته البلد خط بطاقة اليها ، شيعها صندوق البريد فى المطار ، وما بين يوم وصوله ونهاية الأسبوع الأول ، خط كل يوم خطابا

أودع سطوره ماتيسر من كلمات أجنبية يتقنها ، مشى أمام المتاجر هونا ، يتوقف عند كل شيء انثوى فينوى شراءه وإرساله اليها ، فاذا رأى ثوبا مليحا تخيلها فيه ، واذا لمح حقيبة أودعها يدها ، واذا عاين قرطا ذهبيا استدعى إلى ذهنه أذنها الرقيقة التى يشف تكوينها عن الشعيرات حاملة الدم داخلها ، بل إنه مضى الى مكتب البريد واستفسر عن ارسال الطرود وأسعار الرسوم ، ومقادير الأوزان .

فى المقهى حدث الصحب عن وقته معها ، وأثناء حكيه لا يصدق ما مر به ، كأنه يقص عن شخص آخر ، فيعيد الرواية ممعنا فى ذكر التفاصيل ، كأنه يود أن يصدق نفسه قبل أن يصدقه الآخرون ، وعندما تسلم أول خطاب منها مشى فى الأرض فرحا وبسطها كل البسط ، ولما قرأ أنها ستتعلم العربية حتى تكتب اليه ، وأنها سوف تنتظره بصبر ، دمعت عيناه تأثرا ، وهجم عليه حنين طاغ ، فاستعاد ملامحها عند بلوغ وهجها اكتماله ، كان ملتاعا بالفقد ، فلما رأيت حسرته واطلعت على دقائق كلومه ، واستوثقت صدق أوجاعه ، وقع عندى النفور منه ، فتمنيت لو أخلعه عنى ، وأن أطرده منى ، أن أهج منه فلا يكون لنا إجتماع قط .

لماذا لا يكون إدراكه للأمر الا بعد الفوت ؟ ، لماذا يصل الى مشارف الجفوة ، حتى اذا مرقت منه اللحظة وصارت الى عدم محض عاط واستغفر وسعى وتأثر ، تمنيت الفراق ، أن أمضى الى حالى ، وأن أدعه ، فهذا طبع مغاير لما جبلت عليه ، مخالف لميراثى ، لكن إلام يصير الأمر لو أنفضت الصحبة ، وما قدومى الى هذه الحياة الدنيا ، وما نزولى ، الا لأكون هو ، وهذا أمر دقيق ، عسر تفصيله ، وعر شرحه .

لم أدر أن ما ينتظرنى فى هذا الحال أفدح ، وأن ما سيتقلب علىّ أصعب ، إذ ألممت بما تعاقب عليه خلال ثلاث سنوات أرضية من مشاعر ورؤى تخص هذه البنية ، وما عنده تجاهها ، قرأت الصفحات المتبادلة ، تابعت فى الوقت عينه جهدها ودأبها لتعلم اللسان العربى ، حتى رأيت منها خطابا وصله خطته هى بالفصيح من الكلمات ، أكبرت عزمها ، وقدرت جهدها .. كفاحها

تقصيت جهده ، وادخاره المال حتى يتم سفره وسعيه اليها ، حتى تلك اللحظة ، وأصبح إقلاعه اليها وشيكا ، ميعاد الطائرة لم يتغير ، أما المطار الذى نزله وكان نقطة عبور فقد صار هدفا له هذه المرة ، إنه يتأمل الطريق المؤدى الى المدينة ، يراه لأول مرة ، وما أمتع إحساسه وتلقيه لأرض يطؤها أول مرة .

اليوم سبت ، تبدأ العطلة الأسبوعية ، يرن الهاتف فى مكتبها وما من مجيب .. اذن .. فلينتظر حتى صباح الغد ، الوقت الآن متأخر والليل يدنو . يخشى أن يضل ، يؤثر البقاء بمفرده ، ناء بالوحشة ، لا يعرف أى إنسان فى هذه المدينة عداها ، يشتد وَطْءُ الغربة ، عرف مثل هذه الدرجة من بغض الانفراد عندما اغترب عن أهله أول مرة لما أصدروا أمرا بنقله من عمله فى القاهرة الى المنيا بوسط الصعيد ، وألزموه التنفيذ فى أربع وعشرين ساعة ، وهذا أمر يطول شرحه ، وله موضعه ، يتضاعف إحساسه أنه منبوذ ، بعيد عمن يعرفهم ، عن الألف والإيلاف ، زحام الناس فى الطرقات ، وأصوات حديثهم فى الفندق لا تزيده إلا شجنا وحسرة وإحساسا بالغربة .

فى الصباح الباكر كتب العنوان على مظروف خطاب ، حتى يوحى لمن يسأله أنه يحمل رسالة يريد توصيلها ، بدأ يستقصى ويستفسر ، ركب الترام العتيق البطىء حتى يدخر ماليديه وهو قليل ، مشى مسافة يتابع أرقام البيوت ، المنازل قديمة ، متساوية الارتفاع ، جهمة الواجهات ، مغلقة النوافذ ، يعلو بوابات بعضها تماثيل وزخارف جصية ، يتوقف أمام مدخل فسيح يحمل رقما ، الثامن والثلاثين ، الى هنا كانت تصل رسائله ، امرأة تمسك مكنسة ، تومىء مجيبة ، تشير بيدها ما يعنى طول القامة ، الطابق أرضى ، مصعد عتيق معطل ، تراكم عليه غبار كثيف ، أنا فى لهفة وتوق حتى أرى ما يكون من أمره عند اللقاء ، تفتح الباب صبية فى العاشرة ، اليزابيث غير موجودة ، ذهبت الى المتحف ، ستجىء بعد ساعة ، يعود ليمضى الهوينا فى الطرقات المستقيمة المتقاطعة القريبة ، يجهد لتثبيت علامات فى ذاكرته حتى لا يضل عودته ، مثل هذه اللافتة الزرقاء ، والصيدلية عند الناصية ، يطرق الباب مرة أخرى .

الساعة الآن ، الواحدة والربع ، على مهل تبدو ، فى ضوء المدخل الواهن مبتسمة ، مرحبة ، هى ، هى ، قدر لعينيه أن تقعا عليها مرة أخرى ، الثياب مختلفة ، أما أنفها فيبدو أطول قليلا ، لا يتقدم ، لا ينطق ، تقول بلسان عربى ذى عوج « تفضل » .

فى كينونتها دعوة ، تبدو منبسطة كمروج أخضر ، هادئة كلحظة وصول ، يدخل ، يعبر صالة تعبق بالقدم والبعد عن ضوء الشمس ، غرفتها قرب المدخل ، ضيقة ، أريكة النوم لا تدع الا فراغا محدودا لا يتيح الحركة ، حقيبة يطل منها ثوب ، مظاريف خطابات ، طوابع بلدان مختلفة ، قعدا متجاورين ، لا يتكلم ، يهدىء رفيف قلبه ، تقبله ، تقول إن خطابه وصلها صباح الأمس ، يقول دهشا انه أرسله منذ شهر أو أكثر ، ياطول المدة ، يتطلع اليها ، كأنها تدرك مقدار اشتياقه فتفك قميصها ، تزيح تنورتها الى أسفل ، يضطرب أمره ، فاللهفة تشغل الملهوف ، غير أنها تضم رأسه الى صدرها العارى ، يبدأ عنده سرور اذ يستعيد عبيرها الذى لم يكن الا مجرد ذكرى غير متيقن من تنسمه مرة أخرى ، تقول إنها آسفة ، لن تستقبله فى البيت اذ أن صاحبته تأبى وتمنع تردد أى صاحب ، يقول : لكن فى هذه البلاد يحق للإبنة أن تصطحب صديقها على مرأى ومسمع من والديها ، تقول إن هذا صحيح ، ولكن لهذه العجوز طباعها وقد اشترطت عليها ذلك ، عند استئجار الغرفة ، تقول إنها ستجىء اليه ، ما من مشكلة فى الفندق ، يسألها : هل تناولت طعامها ؟ تومىء ، يقول إنه جائع ، سيمضى الى أى مطعم ، يصمت ثم يسألها عن صاحبها العربى ، وكأنه باستفساره نكأ جرحا ، اذ اعتمت عيناها الواسعتان فجأة وبدت عكارتهما ، وحاولت جاهدة أن تحوش دمعا أطل ، قالت إنه رحل منذ شهر واحد ، أتم دراسته انتهت فترته ، يطغى حزنها على ملامحها ، تقول إنهما عرفا بعضهما منذ أربع سنوات ، رعت شئونه ، إذا دعا صحبه أعدت هى المأكل والمشروب ، فى كل أحد يخرجان معا ، وأحيانا تقضى الليل معه ، تساعده فى نسخ أوراقه ، تقول متحسرة ، إنه منذ رحيله لا تدرى ما تفعل ، ما من صاحب لها فى هذه المدينة ، إنها من

الريف ، الحياة فى قريتها رتيبة ، ظنت العاصمة تضج بالحيوية ، لكن الوقت ثقيل ، والناس متباعدون ، والرفقة ضرورة ، أيام الأجازة تخشاها ، تمضى بدون أن تخاطب إنسانا ، وعندما تضغط عليها الوحدة توشك أحيانا على الصراخ ، لكن من سيحنو ، من سيدرى بحالها ، الناس بمعزل عن بعضهم البعض ، وكل منهم ينأى عن الآخر ، يتساءل ، لماذا لم تسع الى صاحب آخر ؟ لماذا لا تتزوج ؟ تقول دهشة ، الأمر ليس سهلا ، أما الزواج فصعب ، ولابد من وفاق ومدة وترتيب .

أستنكرت منه هذا السؤال ، استفسار غريب ، كذا ضقت بما يبدأ عنده الآن ، انه يراجع نفسه ، بل .. يلومها ، أمن أجل هذه اللحظات أمضى ثلاث سنوات من اللهفة والتأجج والكد وتفصيل الخطة كى يراها مرة أخرى ، كم من اللحظات خيل اليه أن ما مضى بينهما لم يتحقق فى عالم الواقع ، إنما خيال مر به ، أو رواية أصغى اليها من صاحب له ، ها هى ذى الآن أمامه ، عارية ، ضعيفة ، مهجورة فى هذه الحجرة التى لا منافذ لها ، أما حديثها اليه فشكوى الى ذاتها ، كأنها لا تسعى الى المجاورة ، إنما الى من يصغى اليها ، تفض حملا طال عليها ثقله ، تبكى صاحبها الراحل بعد ترحيبها بقدومه ، بل إن حسرتها على من رحل تفوق فرحها بمن جاء ، يبدأ تحامله عليها ، يسيىء الفهم ، يقصر عن الإدراك ، والمعروف أن كل محب لا يشغله وجود المحبة عن وصال الحبيب ، وفراقه تكون محبته معلولة ، أتمنى لو سعى فى هذه اللحظة الى سد جسور الوصل ، فاقترب منها ، وكفكف شجوها ، ولثم شعرها ، وحنا ، وترفق ، وددت لو أنه أصغى ، لو حاول مداراة الجرح ، ربما تفتحت له طرائق لم يدر بخلده أبدا وجودها ، ربما تغير الترتيب ، غير أنه لزم الصمت ، صار فى شرق وهى فى غرب ، والشرق فى محل والغرب فى محل ، لذا لا يجتمعان ، لأنهما نقيضان .

لم أدر كيف فارقها ، أراه فى طرقات المدينة بمفرده ، فى المقاهى ، فى مطعم هنا وآخر هناك ، فى محال الوجبات السريعة ، الغريب أنه يحدق فى وجوه الفتيات وهو ظامىء ، لكنه لا يتحدث الى أحد ، يحصى الأيام المتبقية على رحيل الطائرة

التى تقلع كل أسبوع الى موطنه ، لحظة دخوله الفندق يتسلم رسالة جاءت ، سعت اليه ، الرفقة متاحة ، ويومه كله يدور فى الطرقات قاطعا ممرات الحدائق العامة متأملا الغرباء عنه ، حيث لا صلة ولا جسر ممتد فما أعجب أمرك أيها الانسان ، اذا كان الإعراض عن المجالسة يورث موت القلب ، فكيف يكون الإعراض عن الألف .

يلوم نفسه لأنه شغل بها ، لأنه لم يعدها مغامرة عابرة ، ورؤيا مارقة من رؤى السفر ، كان يجب أن تنقضى مع تمام وقتها ، يمضى نومه معتما ، ثقيلا ، بلا أحلام ، كاره نافر من المدينة الغريبة عنه ، غير أنه استيقظ صباح اليوم السابق على سفره تماما وقد انقلب حاله ، لم يستطع أن يتذكر تفاصيل حلم غامض عاشه وصحا متأثرا به ، حلم محوره هى ، لكن أين رآها ؟ .. فى أى حالة ؟ لم يتبين ذلك ، هرع إلى الطريق ليلحق بها قبل خروجها ، الوقت باكر ، والصباح مندى .. هذا ضباب الغربة ، كل ماض فى طريقه ، مشغول بأمره ، يفيض أمره حتى يحدث نفسه بصوت مرتفع ، غير عابىء بالناظرين ، « لكم أنا أحمق ، غبى ، كيف ضيعت هذه الأيام الثمينة كيف بددت ما بددت ؟ » .

عند ناصية الطريق يجرى ورائحة بن قوية منبعثة من مقهى قريب ، زحام تحت مظلة المحطة ، يتمهل حتى يتفحص القادمين الواقفين لا .. ليست بينهم ، هذا ما تراه صباح كل يوم عند خروجها ، يتخيلها إذ تخرج وحيدة ، مسرعة ، تحمل حقيبتها الصغيرة ، تخرج الى يوم من أيامها المكرورة .. المعادة ، المصعد ما زال جاثما ، طفل صغير يحمل حقيبة ممتلئة بكتب وكراسات . فوق ظهره ، يتردد رنين الجرس ، الرطوبة عميقة والضوء غميق فى هذه الساعة المبكرة ، وحركة الطريق تبدو نائية مع قربها ، بعد فترة يفتح الباب ، العجوز تبدو غاضبة ، مزمومة الشفتين ، يلفظ اسمها « اليزابيث » ، مستفسرا عنها بنظراته وملامحه ، تقول باختصار كالبتر « ماتت .. » .

تغلق الباب ، لم تتح الفرصة لكلمة ، أو التفوه بحرف ، أراه ثابتا ، غابت اللحظة وما تحوى وبقى المعنى ، امحت الصورة وانطمس الظل ، أنا لم أدر ، هل

أشفق عليه أم ألعنه فى وقفته الجامدة هذه ، أم أوبخه لو أتيح لى ذلك ، تابعت خطوه المتعثر ، وكدت أبرك لثقله الذى حط عليه وداهمه ، أليس حمله حملى ؟ لم يصدق المرأة ، غير أن إحدى زميلاتها أخبرته عبر الهاتف أنها انتحرت ليلة الثلاثاء ، أول أمس أى بعد ساعات من مجيئها الى الفندق .

عند هذا الحد أبيت الاستمرار فى المشاهدة ، ورجوت من بيده الأمر تقلب الحال علىّ ، أشهدت هذه البنية تخفيفا وتيسيرا لأمرى ، غير أن ما عاينته انقلب علىّ ، فزادنى كمدا . أيتها النفس اجملى جزعا ، إن الذى تحذرين قد وقعا ، بأى شىء أدرك هذا وأعقله ؟ ، العقل ، القلب ، اذا سمينا العقل قلبا ، فذلك ليس العقل ، واذا اعتبرنا الروح قلبا فذلك ليس القلب ، واذا قيل إن العلم قلب ، فهو ليس بالقلب ، اذن .. لا توجد منه إلا العبارة ، فبماذا أعقل واستوعب ؟ .

تغمرنى الرغبة أن أطلع على طفولتى ، أن أصير أولا ، لا أعى قديمى لأنه ما من قدم يمكن الوعى به بعد ، لا أنشغل بالخطر المحتمل ، غى لا أعى الجفوة وقسوتها ، لكن أنّى لى ذلك وأنا مثقل بحاضرى ، وحاضر غيرى ، وماض يخصنى ويخص غيرى ، ومستقبل أنا جاهل به ، فحظ المشاهدة ما أبصرت وما سمعت وما طعمت وما شممت وما لمست ، وحظ الكشف ما فهمت من ذلك كله ، وما فهمت فهو أمانة ، وإن كان البنيان على اليقين أحوط ، ذلك أن مذهبى فى كل ما أورده أنى لا أقصد لذة بعينها دون غيرها ، مما يدل على معناها إلا لمعنى ، ولا أزيد حرفا إلا لمعنى فما فى كلامى بالنظر الى قصدى حشو وإن تخيله النظر ، فالغلط عنده لا فى قصدى ! .

بلى ، ولكن ..

.. ثم أنى وجدت نفسى فى زمن لا يمكن تعيينه ، رأيت دليلى ، فهممت نحوه ، لكننى لم أتقدم ولم انتقل . فعرفت أننى معاين فقط ، رأيته يقف بساحة الجامع الأزهر ، وسط الصحن المكشوف ، تحنو عليه مئذنة قايتباى ، ومئذنة الغورى ذات الرأسين ، والبوائك كلها ، وعلى مرمى النظر داخل الجزء القديم المغطى ، تحت المحراب ، والمنبر الذى أعلن منه الجهاد عام الحرب التى شهد أصلى أيامها ولم يعش وقائعها ، إنه يرتدى لباسا أبيض ، والناس يهرعون اليه ، يدخلون ويبايعونه فلما خفوا ، أتانى الأمر فتقدمت نحوه ، وأخذ بيدى ، قال لى :

« أتعرف من ينادى كما أنادى ؟

أبدى الغفلة ، وقلة الفهم .. يقول :

« ابن أحمد الغيطانى ، من هو أنت ..

أقول :

« نعم ..

يقول :

« إنا أمرناه بأمر ، فقل له ، ياجمال ، انهض لما أمرك به دليلك .. »

أقول :

« لكنه راحل .. »

يقول :

« ألست مقيما فيه ؟ »

أجيب :

« بلى »

يقول :

« إذن ، لا تحد عن الخطة »

نصير بمفردنا ، إنها المرة الأولى التى تخلو فيها ساحة الجامع الأزهر من كل مخلوق منذ أن خط بنيانه ، يبتسم ، يبدو رقيقا كلحظة ميلاد الندى الفجرى ، رأيت طلّاته التى صارت قديمة ، وقوفه فى الشرفات متطلعا الى حشود جمة ، إنتظام الخلق على جانبى طريقه ، واختفاء النواصى بالكثافة البشرية ، إذ يهل ينبثق من الجموع تهليل وتكبير ، هذا الانبثاق أين ولى ؟ هذا الغرس أين راح ؟ ، أكف ولا أفيض حتى لا أكشف ما طلب منى ألا يهتك سره .

يقول :

« بلغ الرسالة ولا تحد .. »

أستفسر معاتبا :

« لماذا قسوت ؟ »

يجيبنى :

« ما كان كان .. »

أهم لأستأنف المجادلة ، لكنه يقول بنبر فيه عتاب وتحذير :

« من دليل من ؟ »

أنتبه الى تجرؤى ، وإبدائى عزم القناعة ، تلك خاصية لم تكن بنفس القدر عند سلفى . فعندما أتبع سيد الشهداء ، ومن بعده سيد العارفين الإمام الأكبر ، لم يبدر منه إلّا التساؤل ، وخشية التابع من المتبوع الذى هو أعلى منه مرتبة ، وليس له أن يسأل عما يظهر منهم أو يعرض لهم ، فما عندهم ، وما ظهر منهم

يخصهم وليس له أن يدخل فيه ، غير أن حالى مختلف ، إنى قادر على المجادلة ، وابداء الحجة ، ذلك أمرى ، ربما تعلق التصرف بالمرتبة ، فلسيد الشهداء السبق المطلق والمنزلة الأعلى ، يليه الشيخ الأكبر ، ثم .. دليلى هذا ، تفاوتوا ، لكن جمع بينهم طريق الجهاد الأعظم ، وقد ثبتوا فيه وتمكنوا .

هنا .. عند هذا الحد من ذلك التقييد خرج الأمر عن طوعى ، وبدأت أتلقى ما يملى علىّ ، فأكتبه بلا مجادلة ، وكان الأمر كذلك ..

« .. لما كانت الأمور مقسمة إلى مراتب ودرجات ـــ أنظر الى تركيب العالم ـــ لذلك كان المسبب والسبب . من هنا كانت هذه اللحظات المارقات الأولى . المتبقية فى وعى سلفى وأصلى ، السابقة كل ما عداها لذا كانت لها الأولوية والسبق ، ولأنها مرتبطة بهذا السطح كانت أقرب إلى السماء ، الى الأفق النائى ، وقد فرغت من تأمل لحظة موقعها هذه الليلة من ليالى حرب فلسطين ، ولحظة أخرى لم أدققها ولم أتمكن منها ، وإنى لماض الآن الى لحظة متبقية ، ما قبلها وما بعدها مطموس الملامح ، لكننى على قدر طاقتى واجتهادى سأحاول ، فذلك شرع لى ، حتى وان كللت ، فكل مذكور من الناس إذا ما فقدوه ، صار فى حكم حديث حفظوه فنسوه ، هذا أصل ومنطلق ! .

إنى ملازم الآن هذا السطح ، غير بارحه ، أحيانا أراه بعينى سلفى ، وهو طفل بعد ، إذا به فسيح ، يقطعه فى خطى عديدة متتابعة رأسه لا يبلغ سوره ، لا يرى ما وراءه ، أراه أحيانا بعد بلوغه العمر الأشد . فإذا به ضيق يمكن قطعه فى ثلاث خطوات ، وإذا به رث ، بال ، تتخلل الشقوق حجارته ، طلاؤه تقشر ، وذرات الرمل تفككت ، انكشفت جذوع الخشب العتيقة التى تصلب البيت ، تأهبت للنزول الى الطوابق السفلى ، لأرى جيران العمر الأول ، لكننى تذكرت الأمر ، ان ألزم الخطة ، فعرجت الى تلك اللحظة ، انها بين بين ، لا شتوية غائمة ، ولا صيفية حارة ، ولا خريفية تميل طورا إلى صيف وتارة إلى شتاء ، أرجح خريفيتها ، والخريف فى موطن أصلى فيه حنية على الخلق ، تهب نسائمه

رقيقة لطيفة فتبعث مكنون الذكريات ، يخطب بها الود ، وتميل عندها القلوب على بعضها ، إذن .. استعصت هذه اللحظات على الفناء .

أعلموا أنه ما من زمان يذكر أو يستعاد إلا ومكان ملازمه ، فلابد من مكان يحتوى الزمان ، ولابد من زمان يوجد فيه المكان ، وإلا كان الهباء ، وإلا صار العدم هذا مقطوع به ، فانتبهوا إلى ما أخفيته بين سطورى ، فكثير أشير اليه ولا أبسطه .

تلك إذن الغرفة ، الباب مغلق ، رائحة الجير قوية ، لم يجف بعد ، لذا حذر الأب من الالتصاق به ، أو الاستناد الى الجدار ، خاطب بذلك الأم والطفل الذى هو أصلى ، أو بمعنى آخر أنا ، الوجود لأربعة ، الرابع اسماعيل ، عمره أربعة أو خمسة شهور ، انه العام الثامن والأربعون من هذا القرن الذى ولد أصلى قرب منتهى نصفه الأول ، ولا أدرى الآن هل أنا متمه أم لا ، فلا علم عندى بما قدر له أن يسعاه ، لا تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت ؟ .

لون الطلاء قريب من زرقة سماء صافية بلا كدر ، هذا لون مالت اليه الأم وارتاحت اليه ، الشريط المستطيل المحاذى للأرض ، أزرق غامق ، هذا عصر ، الضوء واهن ، والأصوات ضعيفة ، الأب يمسك أحد أعمدة السرير الحديدية ، ها هو ذا أصلى ، من هو أنا . مرتديا جلبابا أبيض تتخلله خيوط بنية اللون ، خط عريض وخط نحيل ، يبدو أن أصلى حاول المساعدة ، لكن الأب أبعده ونحّاه ، تلك ملامحه بعد إقصائه ، خشية عليه من سقوط عارضة السرير فيمسه أذى ، الأب والأم ينصبان السرير ، أربعة أعمدة سوداء اللون ، كل منها ينتهى بغطاء مخروطى الشكل ، نحاسى أصفر ، فى ركن الحجرة ثياب مكومة بترتيب ، إنها فراش لإسماعيل ، لا يتقلب ، إنما يحرك يديه وساقيه ، ملفوف فى رداء أسود ، عيناه واسعتان ، تتعلقان للحظات بالسقف ، تستديران حولهما ، تتحولان إلى نظرة جانبية ، أى شيء يرى ؟ وكيف يرى ما يرى ؟ ، هذا ما لا يمكن معرفته

أبدا ، لا أرى الأخ الأكبر كمال لأنه رحل ، وهنا ورد علىّ قوله تعالى ، « وجوه يومئذ ناعمة ، لسعيها راضية .. » .

وكان ذلك إيذانا بسماعى صوت الأم ، أصغيت وأنا أنظر الى أصل نفسى : لا تنس كمال أخاك ، أطلب له الرحمة ، واقرأ الفاتحة . اللهم ارحم الراحل الصغير الذى لا أعرف ملامحه ، ولا أذكر طرائق لعبه ومرحه ، وكيفية تعلقه بأمه وأبيه ، يقف أصلى ممسكا بشىء لا أتبينه .. لا أعرفه ، غر ، لا يدرى أحوال أمه وأبيه ، أو طول حزنهما على فراق شقيقه كمال ، وأوجاعهما لرحيله المباغت ، غير مطلع على مكتمات الأب المحجوبة عن أقرب الأقربين ، أنا جاهل بنظرة الى الدنيا فى تلك الحقبة عموما وهذه اللحظة خصوصا ، فما أقرب الصلة وما أبعد الشقة ، ما أمتن الجسر وأعمق الهوة .

السرير مكتمل ، متين ، مرتفع ، الأم تعلق الستارة الدائرية المسدلة على جوانب السرير من أعلى ، أتأمل الشقيق الرضيع ، أطلع على سبب لفه فى هذه الخرق السود ورسم دوائر من البن الغامق على جبينه ، ووجنتيه ، وتفصيل ذلك حين جاء إسماعيل بعد سنة من رحيل كمال ، عندما وصل الخطاب من البلدة تسلمه الأب لحظة ظهيرة ، عبد المقصود أفندى قرأه له ، عند هذه المقصورة فى مدخل فندق الكلوب أصغى الى النبأ ، أتجه الى ضريح الحبيب ، وبين الركعة الأولى والثانية عزم وتوكل ونوى تسمية المولود الجديد : إسماعيل ، اذ تردد فى وعيه ترتيل كريم ، أصغى إليه والظلال خاشعة والحضور خفيف والقلب حسير .

« يا أبت افعل ما تؤمر ... »

« وفديناه بذبح عظيم ... »

بعد فراغه من صلاته ، وخلوه إلى وحدته ، تمعن فى مجىء إسماعيل ، فى مغزى الأخذ والعطاء ، استعاد ماوراه الشيخ عبد اللطيف فى البلدة ، بعد أن انجبت هاجر اسماعيل كان بهما ظمأ شديد ، حرك قدميه كسائر الأطفال ، ضرب كعبه الأيمن الأرض فتفجر نبع مبارك ، إنه بئر زمزم ، جعلنا الله من

الموعودين ، المصطفين ، الشاربين منه ، المرتوين من سلسبيل مائه . فى فراغ المسجد المغمور بالظلال ، المبتل بالسكينة .

فى هذه اللحظة قرر اسم المولود ، مجىء اسماعيل ذكره بميلاد المرحوم كال رحل صغيرا فله طيب المثوى ، معفى من السؤال والحساب ، يطلب له الرحمة ويتلو الفاتحة على روحه ، فسبحان من أعطى ، وسبحان من استرد ، إنه يسامح من قلب صاف ، مندى ، غير قادر على احتواء الضغينة ، كما أن اليقين غير محدد ، هل يجزم أن صدره عند باب البك كان سببا فى فقدان الولد ؟ . صحيح أن لكل شيء سببا ولكن الأعمار والآجال مقدرة ، بهذا آمن وسلم .

فى البلدة تطلب الأم من الجدة ألا تخبر بحقيقة المولود ، ترجوها إخفاء أنه ذكر ، أن تخبر عنه أنه أنثى ، واسمها فاطمة ، يكفى حرقة قلبها مرتين ، مرة على خلف ، ومرة على كال .

هكذا ألبست إسماعيل رداء أنثى ، ولم تناده أمام الأغراب إلا بفاطمة ، على وجنتيه ، وضعت دوائر البن المحروق لتخفى ملامحه التى بدت جميلة ، لم تكتف بذلك .. إنما زارت الشيخ أبو درية الرجل المبارك ، صاحب والدها ، المنبىء ، الموقن بعودته ، طلبت منه أن يعد حجابا يقى ابنها شر العيون ويحميه من سوء الواردات ، طلب الشيخ مرارة حمامة بيضاء خالية من أى لون كدر ، وقطعة من سعف نخلة أنثى ، أتته بما طلب ، أعطاها حجابا مثلثا طلب منها أن تعلقه الى صدره عند موضع القلب ، ألا يفارقه أبدا ، أن تخفيه تحت جلبابه بشرط ألا تقع عليه عينا امرأة أبدا ، خاصة اذا كانت ثيبا ، عندما جاءت به الى مصر ، أخفته عن العيون ، لم تكف عن تلطيخ وجهه بالبن خشية الحاسدين ، وشرار الخلق أجمعين .

أرى لحظة مندثرة ، الأب متمدد ، عن يمينه أصلى ، والى يساره إسماعيل ، يقول أصلى : لماذا لم تسمنى باسم أحد الأنبياء كما سميت أخى اسماعيل ؟ ، يقول الأب : سميتك اسم أحد المجاهدين ، جمال الدين الأفغانى ، يتساءل أصلى : أهو

نبى ؟ ، يجيب الكريم ، المغترب الى الأبد ، « إنه مجاهد كبير .. » ، فيمتعض أصلى وينزوى حاسدا شقيقه على اسمه .

عند هذا الحد تجلت لى الأم ، وادعة الملامح ، عليها سدول حزين ، عاتبة المظهر :

« أذكر شيئا عن أخيك كمال .. »

أتطلع اليها حائرا ، فالماعون ناضب ، وما من صور متبقية ، تقول :

« هذا أوان مناسب ، بعد ذلك لن تذكره أبدا »

أدقق البصر ، إنى راغب فى إرضائها ، ألا ترتد عنى خائبة لأننى لم ألب رجاءها ، أدركت أنها لم تتعرف الى حقيقتى ، لم تدرك جذر هويتى ، إن الماثل أمامها صورة ولدها ، لم تعرف أننى مكلف ، مأمور بإتمام مدته حتى يقضى الله أمرا .

تقول بأسى :

« يعنى ما من ذكر لكمال ، ما من شىء عنه »

أقابلها بصمت .

تقول وعتابها أشد :

« نسيته كما نسيت سورة يس .. »

فوجئت ، كأنها ضبطتنى لحظة ارتكاب جرم ، كأنها فتحت الباب ورأتنى عندما كنت أنكح يدى تهدئة لجوى شهوتى واتقاد مراهقتى مع انعدام الوليف ، وهذا أشد ما كنت أخشاه واحتاط حتى لا يقع ، غمرنى خجل ، وحيرة ، آن لى أن أقر ، أن اعترف بالنسيان ، باكتماله عندى ، ذلك أنى بعد رحيلها الذى قدر لى أن أشهده ، فى أيام المرارة التالية والأحزان عفية بعد .

قال أخى على الأصغر إنه رأى الأم فى الحلم ، جاءته بادية الشجن ، وطلبت منه إبلاغ جمال رسالة منها ، أن يقرأ من أجلها سورة يس مساء كل خميس ، أفضى إلىّ على بذلك فكدت أنوح لولا حرصى إبداء الجلد أمام الأشقاء ، وعندما خلوت الى نفسى بكيت ، فأحيانا يكون طلب الأحبة المغتربين عنا هينا ، ميسورا ، بسيطا حتى ليثير الشفقة وغوامض الأحاسيس الأسيانة مع سرعة البت فى التلبية مساء كل خميس وقبل شروعى فى النوم أبدأ التلاوة ، داومت على ذلك عاما وشهورا ثلاثة ، لم أتقاعس حتى مع سفرى ورحيلى خارج الديار . ثم بدأ الوهن يدركنى ويتمكن منى ، فكنت أقبل على التلاوة كفرض أنا مكلف به وليس كتلبية شأن الفترة السابقة ثم اكتشفت صباح يوم جمعة أنى نسيت ، فالتمست لنفسى أعذارا ، اضطربت المواظبة ، حتى جرى انقطاعى ، ولم يعد تبينى النسيان يوخز ضميرى ، ويؤنب داخلى .

اعلموا وفقكم الخالق ، البارىء ، الأعز ، أن الانسان حيثما ولى وجهه صاحب فوت ، لأن الأمر لا يتناهى ، وكل منكم فى الفائت المستأنف ، أما الماضى فلا يرجع إذ لو عاد لتكرر ولا تكرار فى الوجود أصلا ، لذا يتبدل كل شىء ، يتغير ، ويصير المحدث قديما ، ويلف النسيان كل شىء ، ليست المعانى والصور والخيالات وكل مالا يدرك بالحواس فحسب ، إنما الموجودات المادية ، ما يعرف منها وما لا يعرف ، تضل الملامح فى الملامح ، حتى يصير التعرف الى أصل الثمرة أمرا مستعصيا .

هل يقدر أحدكم على تحديد شكل الشجرة من رؤية الثمرة معزولة عنها بعد قطافها ؟ ، هذا صعب . الثمر فى الفروع مخالف للأصول مع أنه كامن آت من الجذور المتوارية ، والثمر ذاته يجب أن يجف ويضمر وأن يتلاشى متى تؤخذ منه البذور ، الفروع لا تثمر الا اذا بعدت عن الجذور ، وفى طرحها تتغير الملامح وتندثر وان ظل جوهرها خفيا ، المصاحب لهذا كله النسيان ، وما كان عزيزا يهون ، وإلا فهل مرور عام واحد على رحيل الكريم المجاهد يماثل الثانى أو الثالث ؟ فادفن ما عندك ، إن مالا يدفن لا ينبت ! . عند دنو اليوم الذى به تكتمل

السنة الأولى ، ألم يطابق اللحظة على اللحظة ؟ ألم يسع فى الصباح الحار الى المثوى والمرقد ؟ أما فى الرابعة فقد تباعدت الرؤى ، ودنا الفراق من النواصى .

فى العام الأول مضى أصلى لزيارة المثوى ، غير عابىء بصهد الطريق ، وقفر الناحية ، وقسوة الشمس ، لكنه فى الرابع تقاعس ، تكاسل ، ولم يقم بالزيارة الا بعد يومين من تمام الذكرى ، هذا ما جرى .. ما كان ، أما أحلامه التى هى رؤاى .. فلم يعد الوالد يطرقها إلا لماما ، وكأن المغترب الكريم يشعر بدبيب النسيان فينأى بنفسه حتى عن الدنو عند الغفوة ..

منذ يومين طبقا لميقات هذه الدنيا التى سميت دنيا لدنوها وسرعة زوالها ، كنت مجتمعا بالأشقاء ، قال إسماعيل إنه اذ يتذكر أباه الآن فيخيل اليه أن البون شاسع ، وأن الزمن الفاصل سحيق ، كأن أربعين عاما انقضت وليس أربعة ، أمّنت الشقيقة ، قالت أنها لاتراه إلا نادرا ، وإذا زارها فى الحلم يقوم بينهما حاجز غير مرئى ، حدثونى وهم يجهلون كنهى ، ولا يعلمون أن شقيقهم غرب وأقصى .

أصغيت كما كان يصغى ، حتى شرود عينيه صاحبنى ، غير أن ما ألقى فى معارفى لم أصرح لهم به ، لم أكشف عنه ، أخبرنى دليلى ، أن الإنسان اذا تم رحل ، وأنه كالراحلة يمر بمحطات ، واحدة إثر الأخرى ، لكل منها مقدار من الصعب أن نحسبه بقياسات هذه الدنيا ، كما أنها تختلف من إنسان الى آخر طبقا للاستعدادات ولإمكانيات القبول العرفانية ، والقدرة على ثبات المدرك ، وطول الصون ، ظن أصلى أن أساه سينزف أبدا ، غير أن طوارق شتى نالت منه ، من مرض ، وغدر صحاب ، وعسر حال ، وقلة مال ، ومضايقة عسس ، وبزوغ ملذات .

مما عرفته أن المراحل تكون أربعا أو خمسا ، لكنها لا تزيد على سبع أبدا ، وعند بلوغ الأخيرة تنخ الناقة وتبرك الراحلة ، ولا يكون لها قيام صوب الاتجاه عينه ، قد يوازى ذلك فى دنيا الحس إختفاء آخر انسان فى عالم الحس يكتنف فى وعيه عبارة أو ذكرى أو لحظة تتعلق بمن وفىّ وتم ، عندما أتساءل — ومن طبعى

ألا أكتم أبدا — حتى وإن أودى ذلك بى . ألم أطرد من مقام عزتى لأجىء غريبا ، لأصير من أجهل ، لاكتشف نفسى خطوة إثر خطوة بعد أن كان الأمر ملء يدى ، وجلّه معى ، أتساءل الآن فأقول : ما حكم الإنسان الذى يسعى ، ألا ينحدر من جذع لا يدرى عن جذره شيئا ، لم يرها ولم يطلع عليها ، ثم ما حكم هؤلاء الذين لا تغفى عنهم العيون ولا تنام ؟ لا تنساهم الأفئدة ، وقد عرفت بعضا منهم ، أما بالقربى أو المصاحبة ، ومنهم ، مولانا سيد الشهداء ، وشيخنا إمام العارفين محيى الدين ، كذا نصير المستضعفين جمال بن عبد الناصر .

هنا يتلى فى مسامعى وفى قلبى :

« يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار .. »

هذا خوف الزمان .

وهنا أصغيت الى من ينشدنى بعضا مما فاض به مولانا جلال الدين الرومى ، وهذا ما ناسب حالى ، استسمحكم واستأذنكم فى ذكر بعضها تبركا وتزيينا لهذا التدوين ..

استمع الى الناى كيف يحكى
ويشكـــو آلام الفـــراق
منذ أن اجتزونى من منابع القصب
بكى الرجال والنساء من تصبرى
أريد صدرا ممزقا من لوعة الفراق
حتى أبثه ألم الهجر والاشتياق
كل من وقع بعيدا عن أصله
يطـــلب أيـــام وصلـــه
لقـــد نحت فى كل ناد

وأصبحت قرين التعساء والسعداء
ظن كل واحد أنه صار صديقى
بيد انه لم يقف على ما يكنه قلبى

عند هذا الحد تجلى لى دليلى .. قال لى :

« عد الى ما أنت فيه ، أقصد حال الجهات الأربع .. »

ثم قال لى :

« إن ما شاهدت وما أبصرت وما سمعت وما طعمت وما شممت وما لمست ، وحظ الكشف ما فهمت من هذا كله ، أما ما فهمته فهو أمانة يجب أن تؤديها .. » .

ثم قال :

« إسع .. »

ولم يكن بوسعى إلا أن ألبى ..

★ ★ ★

حال الجهات الأربع

﴿ يومئذ يتذكر الانسان وأنّى له الذكرى ﴾

قرآن كريم

قبل إيغالى فى هذا الحال . تجب الإشارة الى أن حال الفوت مازال غالبا ، مسيطرا ، إنه فى موقع المجرة بالنسبة لشموسها ، أو الشمس التى تأسر كواكبها وتشدهم فى دوران أبدى اليها . لذا لزم التنويه . أقف فوق السطح ، الممتد ، المغطى بالصهد فى الصيف ، المنبسط الغائم فى الخريف والشتاء ، سماء رمادية ، غمامات قصية ، حدأة محلقة تتحين الفرصة للانقضاض فوق دجاجة شاردة ، أو قطة وليدة ، أو جيفة ملقاة ، من هنا تلوح الجهات والمشارف ، الأزمنة والأمكنة ، إليه تترامى أصداء الأنغام ، وضجيج المدينة ، تبرز أغنية لاأدرى مصدرها ، أدركها فى مجملها ، حروف الكلمات مطموسة لها بزوغ إشراقى ، الشمس تطل دامية ، وتنتهى فى الغرب قانية ، فما أقرب البداية الى النهاية ، فسلام من أصلى الغائب ومنى الى هذه النجمة الأولى الوافدة ، النجمة التى تبدو فى الفضاء السحيق قبل كل النجوم ، التى تجىء وحيدة فى سماء قاحلة ، حتى إذا بدأ قدوم الأخريات أصبح من الصعب تبينها وكشفها ، وعند الرحيل تبقى بمفردها ، بلا أنيس .

فيا أول البادين ، وآخر الراحلين ، لك الإيماء ، وتحية عابر غير مقيم ، غالب عليه حال الفوت ، مامن أنيس له أو صاحب ، منفرد مثلك ، لك ناصع البريق ، وطيب الهجوع ، والصبر على المصير المعلق ، والدوام للألق المنفرد ، اذ يتم الظلام تجىء النجوم ، فرادى وجماعات وعناقيد ، تقول الأم ، هذه أرواح الصالحين البررة ، أما الشهاب المارق فروح تهوى ، إنسان أوفى وأنجز فرضه ورحل ، لكل منا نجمه ، ثابت مادام يسعى ، يبدأ أفوله مع دبيب الوهن ، اذ يتم الأجل يهوى إشارة الى سقوط ورقته من شجرة الخلق التى وقف عندها أملى واطلع

على بعض منها قبل سلوكه مقامات الطريق ، « والنجم إذا هوى ، ماضل صاحبكم وماغوى ، ومانطق عن الهوى ، إنْ هو إلا وحى يوحى ، علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى الى عبده ماأوحى ، ماكذب الفؤاد مارأى ..» «مازاغ البصر وماطغى» بل صدرى ماتلى عندى ، فأدرت النظر ، وثبت البصر .

فى فضاء المدينة الليلى تبرق لافتات إعلانية متباعدة ، أوضحها لافتة دائرية ، ألوانها زرقاء وحمراء وبيضاء ، أعلى عمارة ناحية غمرة ، يقول الأب إنها قريبة من بيت خلف بلك ، أرى أصلى الى جوار أبيه ، يحمله حتى يشرف ويرى ، الأفق ناء ، ولهيب برتقالى متصاعد ، ودخان أسود سائل صاعد ، يقول : هذه نيران ناحية الأوبرا ، يشير الى لهب آخر : هذا قرب الظاهر ، يدرك أصلى خوف غامض ، هل تطولهم النيران إلتى تبدو بعيدة ، يقول الأب : البلد يحترق .

فى السماء الغروبية حامت طائرة غريبة المنظر ، تخالف الطائرات التى اعتاد أن يرقبها طوال النهار ، طائرة بلا جناحين ، بطيئة كجرادة ، فوقها مروحة تدور كمراوح السقف ، يقول الأب بغموض : طائرة غريبة ..، اذن ، يمكننى تحديد اليوم ، السادس والعشرين من يناير ، عام ألف وتسعمائة واثنين وخمسين ، هذا ظلام مكتمل ، يعبر أصلى السطح صبيا بصحبة أبيه ، يؤنسه حتى يقضى حاجته فى دورة المياة المعزولة ، المنفصلة ، البعيدة عن الغرفة ، عبر المسافة القصيرة يرقب السماء وجلا ، ماذا تخفى العتمة ، وهذا الفضاء العجيب ؟ .

أتلفت فأرى الناحية الأخرى أبنية قديمة ، خرابة ، يبدو سقف المسافرخانة العتيق ، وهذا السقف البارز الأحدب الذى يعلوها ، حذرته الأم من الذهاب الى هذه الجهة ، قالت إن غولة تأكل الأطفال تسكن هناك ، لطالما حدق من وراء السور ، متخيلا امرأة يكسو الشعر جسدها ، بارزة الأنياب ، متحفزة لاختطاف أى طفل تطوله ، هاهو ذا يمر أمام دكان صغير يبيع اللبن ، مجاور لمدرسة عبد الرحمن كتخدا ، أول معهد تلقى فيه العلم ، يرتدى جلبابا وصندلا

بنيا ، إنه صغير ، تلك ملامحه فى طفولته وقد ولت الى أبد ، احتفظ سنين ببعض من صور تسجلها ، تلمح إلى ماكان ، غير أن هذا الضابط الغتيت بدد مابدد ، لعنه الخالق .

هاهوذا يمشي وحيدا ، يرتدى جلبابا ، يتطلع الى مبنى من أربعة أو خمسة طوابق تحته علّاف ، يبيع الفول والقمح والذرة واللوبيا والترمس الجاف ، بجواره محل لتجليد الكتب ، فى مواجهته رفاعى السباك . لم يره إلا منحنيا على موقد غازى .. أصابع يديه مكسوتان دائما بهباب أسود ، يمر وينثنى عند المنحنى ، يختلس النظر الى البيت القديم ، يتمتم «بسم الله الرحمن الرحيم» ، يمد الخطى ، إن مايثير خوفه «غية» حمام من صفيح وخشب ، يؤدى اليها سد نحيل، لايذكر من قال إنها مهجورة ، وأن عفريتا يسكنها ، يجرى ، يجرى ، لايهدأ له قلب حتى يصل الى مدخل الحارة .

أمام موضع آخر يجب الحذر منه ليلا ، ثمة عفريت من شرار الجن يبدو للمنفرد المتأخر وقد يسد عليه الطريق بحاجز غير مرئى ، تماما كما جرى مع حسن أفندى على ، فوق السطح يقف الأب ، ولولا خشيتى الاطالة لوضعت فصلا مطولا فى هذه الوقفة ، تناولتها فى ذاتها وميقاتها ، فيما تراه عيناه فى الظاهر ، ماتراه فى الباطن ، مايمر بخاطره من شوارد ، فالحال عسرة والزاد صعب ، لولا ماترسله الجدة من دقيق وسكر وسمن وبلح مجفف وملوخية وارغفة وأوزة مذبوحة لبان الجوع وألح .

فى هذه الفترة يقترب أصلى من العمر الذى يجب أن يلتحق فيه بالمدرسة ، أبناء البلدة يهزون رؤوسهم ويقولون إن هذا قصر نظر فالتعليم له مصاريف ، ولايكلف الله نفسا الا وسعها . لماذا لايلحقه بورشة ليتعلم حرفة يمكنه بعد اتقانها أن يساعده ، لم يجبهم الأب الا غاضبا ، مامر به لن يسمح لمثله أن ينال من أولاده ، أبدا لو أن أجل أبيه امتد ، لو أن أمه لم تقتل ، لعرف الطريق الى سر الحروف ، لتجنب الشقاء العظيم الذى حل به .

صباح يوم مجهول اسمه الآن ، وفى ساعة مندثرة ، انطوت فى المجهول ، مضى الى مدرسة عبد الرحمن كتخدا ، التقى ابراهيم أفندى ، رجل يرتدى جلبابا فوقه جاكته من الصوف ، وغطاء رأس أحمر ــ طربوش ــ وعلى جبهته آثار وشم عتيق ، أصغى الى الوالد الكريم ، ابراهيم أفندى من المصلين دائما فى مسجد الحسين ، وكثيرا ماتجاورا ، وتصافحا عقب انتهاء الفرض ، أوضح المطلوب ، بيّن القصد ، الأوراق وكيفية تقديمها والتاريخ الذى يجب ألا يتجاوزه ، أما مقدار الرسوم فجنيه واحد ، جنيه لاغير لكنه مشكلة وقتئذ ، توفيره صعب ، وأن يفيض عن الحاجة ليس بالأمر الهين ، واقتراضه عسر ، أما ايجار نصف الفدان فمازال متبقيا عليه سته شهور حتى يبدأ محاولات الحصول عليه . قال ابراهيم أفندى : يمكنك أن تكتب شهادة فقر ، غير أنه أبى ، هذا نذير سيىء ، أن يبدأ رحلة ابنه بورقة استجداء وطلب اعفاء ، إنه يتطير من ذلك ..

عند ذلك الحد تجلى دليلى ، قال آمرا :

«لاتثبت ..»

ثم قال لى :

«لاتكن كالماء الراكد ، فان ثباته يجعله نتنا ..»

ثم قال :

«كن سيالا كجريان الماء الذى لايثبت على شىء الا زمن مروره عليه ..»

فوليت الوجه .

الجبهة الجنوبية

.. يختلف الضلع الجنوبى من السطح عن الجهات الأخرى ، ذلك أن الغرفة تقوم فى هذه الناحية ، الى جوارها دورة المياة فتلك مسافة ملغاة من السور ، يتبقى جزء صغير لايتجاوز طوله مترين ، يشكل مايشبه الشرفة مع ضلع السور الشرقى ، من هذه المسافة القصيرة يؤدى الفراغ الى الأفق ، أفق مغاير ، مختلف عن الغربى ، ذلك أنك أينما وليت النظر فثمة مآذن رمادية ، تحدد وتؤشر

الطريق المؤدى الى أعلى عليين ، عند حد الأفق تقوم مآذن مهيبة ، ظلال أبدية ، تصل السفل بالعلو ، تنتهى بجواسق وأهلة ، وقرب منتصفها الأعلى أعمدة نحيلة يتخللها الضوء ، فتبدو الفراغات محددة ، يقول الأب ، إنها مآذن الرفاعى والسلطان حسن ، ولأن أصلى كان غرا بعد لايعى ، ظن وجود صلة مابين هذه المآذن وعم رفاعى السباك العجوز .

عند نقطة أخرى من عمره المبكر ظن صلة أخرى بالرفاعى الذى يستدعونه ليخرج الثعابين من جحورها ، أو يمشى فوق جمرات الفحم المتقدة ، ويبتلع الأمواس ، وقطع الزجاج ، وحتى وصوله الى سنّ متقدمة لايذكر مسجد الرفاعى الا وتتموج فى ذهنه صور مضببة قديمة لعم رفاعى ، ومما يناسب ذلك نادرة لابأس من ذكرها ، فعندما كان اسماعيل ابن عامين أو ثلاثة ، أصغى كثيرا الى الوالد الكريم اذ يذكر اسم النحاس باشا ، وعند خروجه من حارة الطبلاوى ومروره أمام دكان مبيض أوعية نحاسية قرب مدخل الحارة ، اذ يرى الرجل يستند الى الجدار يدور داعكا الوعاء بقدميه ، يقول لنفسه : اذن .. هذا هو النحاس باشا !

هذا حال الطفل ، الغر ، الذى تختلط عناصر العالم عنده ، من واقعية وغيبية ، وقصية ودانية ، ذلك عين حال من دنا وقارب على اختتام الطريق ، بداية الدائرة هى نهايتها ، غير أنى لاأقول بالكل أو بتشابه الأحوال ، فكل انسان كون بمفرده .

حدث ياكرام أن أصلى سعى بعد هجرة الوالد الهجرة الكبرى الى عزيز أحبه وظل على صلة دامت عمرا به ، فهو سبب جريان رزقه ، وقد مر ذكره ، فى تلك الأيام . كان احتراق قلبه متقدا ، فى أوجه ، ولهيبه فى اتقاده ، ونار حسرته حامية ، كان يخيل اليه ، بل يكاد يوقن أنها لن تخبو أبدا ، كان يمضى الى من عرفهم الراحل فيسلم ويهديهم التحية الطيبة ، ويجلس فى نفس الموضع الذى كان يقعد فيه الوالد ، ينحنى عين انحناءته ، ويشير اشارته ويتحدث بايقاعه ، بل يسلك نفس الطرقات التى اعتاد المرور بها وخلت منه الى الأبد .

يمر أمام مبنى وزارة الزراعة فيدمع ، ويرنو الى المعابر والمفارق والنواصى التى وطأتها القدمان اللتان لم تتركا أثرا بعد ، ويردد : ياحسرة على مافرطت ، ليتنى زرته يوم أن تكاسلت ، يوم أن تقاعست ، من بين الذين مضى اليهم هذا متمهلا ، وتفحص الجدران التى وقعت عليها العينان اللتان انطفأتا ، لن ينعكس فيهما شىء بعد ، اذ ولج غرفة الرجل المريض شم رائحة بول ، لم يفارق الفراش منذ شهور ، بجوار السرير رأى أنبوبة التبول المعوجة ، كان نحيلا ، مترجرج النظر .

قال أصلى مخاطبا المريض : أبى يسلم عليك ، قال الهرم الذى أقعى وحط رحله : أحمد لايسأل عنى .. حتى هو ؟ . قال أصلى مغالبا جواه : برد ألزمه الفراش . قال الرجل محدقا فيما لايرى ، ولايبين : أحمد لم يستسلم لمرض أبدا لم يقعده إعياء .. هل استسلم للكبر ؟ . قال إنه يود رؤيته ، يود الاستماع الى حكاياته ، ولو سمح الزمن بصحبته الى ضريح سيدنا الحسين لصلاة الجمعة ، ياسلام .. هذا عين المنى ، قال إن جلسة مابعد صلاة الجمعة عند الصاوى تبدو كحلم عصى الآن ، لم يتخلف عنها أبدا .. أبدا . ومنها تعرف الى الأب ، ثم قال : إن هذه الجدران منذ أن تبدلت تغير كل شىء . طعم الأيام ، ولون الغروب ، ومذاق طلعة النهار ، وهناك وهن الجسر ، قال إنه يريد الخروج من هذه القرية الضيقة الى العالم الفسيح ، يريد العودة الى السقف الذى أظله فى مصر ، حار أصلى ، عن أى قرية يتحدث ؟. مال الإبن الأكبر هامسا ، إن الأماكن تختلط على أبيه ، والأزمنة تتداخل عنده فجأة كذا الأسماء ، شخص واحد لم يغب عن باله ، لم يأفل أبدا فى وعيه ، هو أحمد الغيطانى .

وانصرف أصلى الى الشوارع موجوعا ، لو أن الوالد قام بهذه الزيارة لأدركه حزن وأسى ، أهذا ماانتهى اليه الرجل الذى كان سببا فى جريان رزقه ، الذى اقترب منه ونأى ، الذى أحبه وأبغضه ، كان الوالد يردد دائما أن البك لو رحل فلن يطول به المقام ، قديما بدأ أمرهما والبون شاسع بينهما ، ولولا مشاعر شتى ودقائق تستعصى على التفاسير المتاحة للكنه الانسانى لانتهى أمرهما منذ أمد بعيد .

بعد أن عمل الأب فى وزارة الزراعة وتقلب بين أقسامها ، استقر فى قسم الشئون القانونية ، كان البك وقتئذ ذا حول وهيبة ، والوالد عاملا أمره ضعيف ، يمكن لأى موظف أن ينهى خدمته ، أن يقطع رزقه بجرة قلم ، لكم كظم فى نفسه وحاش روحه عن ابداء انفعال خشية أن يلحقه أذى ، غير أن مايجب تثبيته والتدقيق عليه أنه لم يأت مايعتبره مهينا لكرامته ، أو حاطا لقدرة فى نظر نفسه وربما هذا ماجعله يلزم عمله كعتال زمنا ليس بالقليل ، يحمل أجولة البذرة فبرغم الجهد الجثمانى الشاق ، الا أن عمله هذا جنبه التعرض لمطالب الموظفين الصغيرة .

أبدا .. لم يتمكن منه الاحساس بالضعة ، لم يأت ماينقص من قدره فى حق ذاته . ايضاح الأمر هنا دقيق ، صعب ، لكن .. ربما اتضح بضرب المثال . اذ اعتاد بعض من زاملوه أن يمضوا الى بيوت من يرأسونهم لقضاء الحوائج ، وأداء الخدمة أما هو فتجنب ذلك ، تحاشاه قدر الطاقة ، اذن .. لماذا كان يتردد على بيت البك ؟.

أقول أنا الفقير الى المساعدة لمواجهة هذا الكون الغامض علىّ ، أن خطاه لم تقده بتأثير ضعة أو عن خضوع وامتثال ، إنما بتأثير شعور متصل بضرورة رد الجميل والمودة والرغبة فى القربى ، هنا لابد من الاشارة الى نقطة دقيقة حرج أمرها ، ذلك أن البك كان بمثابة الحامى له من مضايقات الموظفين كان الوالد فى مواجهة مضايقاتهم ، واستهانتهم بشأنه ضعيفا ، أى غضب أو اضطهاد يعصف به ، يهدده ، كانت صلته بخلف بك سندا ومعاونة ، واستمر الأمر بعد انتقاله الى العمل كقاض من القضاة .

هل أدركتم ماردده الوالد دائما ، لو أن إبن عبد الناصر لم يفعل الا حماية الضعيف فى مواجهة القوى لكفاه وحسبه ، غير أنى أعود الى الزمن القديم ، أكرر الحيرة ، لماذا استمر فى التردد على البيت ؟ لماذا .. حتى بعد وفاة ابنه الأصغر كمال ، مع اصرار الأم على أن المقابلة السيئة هى السبب فى رجفة الولد ، وخضته

لماذا ، هل يستوى البحران ، هل يلتقى الجمعان ؟ ، هنا تجلت لى الأم غاضبة ، تلك هيئتها التى عرفها أصلى ، اذ يعتم وجهها ، وتبدى ضيقها الذى اعتادت أن تكظمه عنه .. قالت :

«كف عن ذلك ، أنت تخوض فى سيرة أبيك ..»

شغلت عن سؤالها بتأملها ، هى الغاربة ، الراحلة ، التى يطويها الوقت بأسرع مما قدرت ، قالت :

«هذه فضائح .. لماذا تجرسنا بين الناس ؟»
ثم قالت مؤنبة :
«ألا تعرف ظروف أبيك ، أبوك كانت ظروفه وعرة ، صعبة ..
ثم قالت :
«طول عمره شقى ، وبسردك هذا تزيده شقاء ..»

مسافة تفصلنى عنها ، وثمة حاجز غير مرئى يقوم بينى وبينها ، وعندما أنتهى التجلى الخاطف ، المارق ، حرت ، كيف لم أدقق أكثر ، فى أى عمر بدت ، وأى ثياب ارتدت ؟ ، هذا فوت آخر ، نزل بى سكون ، وصمت ، وحيرة ، وددت ألا أعصى لها أمرا ، خاطبنى العقل أن أكف ، غير أن الحيرة لم تهدأ .

ماذا عن تأثير هذا الموقف الذى أفضى به الأب الى ابنه بعد مايقرب من أربعين عاما على وقوعه ، فى آخر زيارة قام بها الى بيته ، بدا وكأنه يقص ماجرى أول مرة ، ماسمعه أصلى فى هذا اليوم لم يبل فى خاطره حتى بدأ معراجه .

قال الأب : إنه كان بصحبة البك فى محطة مصر ، كان يقف على بعد منه ، كان البك يتحدث الى ثلاثة من صحبه جاء يودعهم ، فجأة التفت ناحيته ، اتجه اليه رافعا عصاه ذات المقبض العاجى المفضض ، انهال عليه ضربا على مرأى من الناس . هكذا بدون سبب ؟ . أجل .. بدون سبب ، قال الأب حائرا ، فى صوته دهشة كأن ماجرى وقع منذ لحظات قصار : وأنا لاأعرف السبب حتى الآن ! ثم قال : لم يبد منى أى تصرف يدفعه الى ذلك !، صمت ،

جلسا متواجهين ، يثقلهما عصر خريفى ، ويلوح زمن آفل على مقربة ، وغربة يتأجج اشتدادها ، ليست الواقعة الوحيدة التى حيرته ، ماذا عن هذا اليوم النائى ؟ .

حدث ذات غروب منقض أن رجع الى البيت مهموما ، ليس من عادته اخفاء منغصاته حتى اذا لزم الصمت فى البداية. ألحت الام فتكلم ، قال إن امرأة البك سألته بلهجة ذات معنى لايخفى ولايغيب ، هل رأى الملاعق الفضية ؟، ست من الفضة الخالصة ، كانت فوق المنضدة الرئيسية ، قال : ألم تسألى الطباخ ؟ قالت : انما أسألك أنت . صمت ، لم يفصل الأمر ، إنما انقطع عن البيت عاما ، اتصل به البك فى الوزارة ، أوصى الصاوى الخياط ، لكن الأب لم يصغ ، لم يلب ، أبدا .. لم تكن صلة بين تابع ومتبوع ، بين سيد وخادم . بالأخص فى المراحل الأخيرة من الرحلة ، كثيرا ماردد ، هذه السيدة لن تفهمنى . لن تعرف دوافعى لزيارة البك ، أبدا لن تفهم .

بعد انتقال البك من الوزارة ، بعد أن أصبح قاضيا ، لم ينقطع عنه ، كان يزوره ويصحبه الى صلاة الجمعة ، الى ضريح الامام الشهيد ، الا أنه يعود أحيانا غاضبا ، حزينا ، يقول : إنه لن يذهب اليه أبدا ، تسأل الأم وتستفسر ، غير أنه لايوضح ، وبعد لحظات قصار تعلن ارتياحها . لم تنس ماجرى لكمال ابنها ، لم يوضح الوالد بواعث كمده ، غير أن أصلى ألم بشذرات ، أحيانا تطلب منه الزوجة شراء أرغفة أو قضاء حاجة من السوق ، ينصرف وعنده ضيق ، غير أن القطيعة لم تدم ، يتصل به البك أو يسعى هو اليه ، واذ يطلب منه البك أن يمر بالكواء ليأتى من عنده بياقات قمصانه لايعد ذلك حطا من شأنه ، فى سنى الطفولة اعتاد أن يصحب عياله معه أينما ولى وجهه ، بقى فى وعى أصلى محل الكواء قرب ميدان الاسماعيلية . وكان ضيقا ، تنبعث منه رائحة بخار ، وهج قماش ساخن ، تؤدى اليه درجات ثلاث ، كواء تخصص فى تنظيف ياقات السادة ، بيضاء ، صلبة ، تثبت الى القمصان بزراير صغيرة لاترى ، لم يبد الأب تذمرا ، لم يفصح عن شعور يشى بوقع الاهانة .. لماذا ؟ هذا ماحير أصلى ، أالخلو

الخطاب من نبرة السيد ؟، اذن .. هلى استشعرها فى الزوجة ؟ ، ربما .. مامن يقين قاطع ، مامن نبأ دال ، غير أن ماعاينه أصلى وخبره عن قرب ، بروز الندية فى أمر العلاقة ، بتأثير دوام العشرة ؟ ربما ، أم أن ذلك نتيجة لهذا الخفى الذى لايرد ولايبين الا بغتة ؟ الذى يقبل ويدبر ، يكشف ويحجب ، ماتعارفنا عليه أنه الوقت ، الزمن ، الدهر ؟، ربما . مع العلم أن هذه المسميات كلها لاتحيط به ، هل قربها وساوى بينهما هذا القاهر ؟ ، ربما .

عندما طال المرض بالرجل سعي الى الموظفين القدامى بقسم الشئون القانونية ، حدثهم عن إعياء البك الذى عرفوه وعملوا معه، قال لبعضهم إن السؤال عنه فيه ثواب وأجر عند من يحتسب الأجر ، إنه وحيد فى رقدته ، ذكرهم برقم هاتفه ، بعد أيام قال لامرأته .. دنيا موحشة ، تصورى .. لم يسأل عنه أحد ، لم يتخلف عنه بعد بدء مرضه .

نبل بدء رقاده كلّ بصره وخفت نور عينيه ، اعتاد أن يمضى اليه صباح الجمعة ، يصحبه ، يمسك ذراعه ، ينبهه الى المنحنيات .. الى انتهاء الأرصفة .. الى حفر الطريق .. الى العوائق .. الى موضع مناسب لانتظار عربة أجرة ، يترقرق قلبه اذ يرى الرجل الذى كان عزيز الجانب ، مهابته تملأ العيون ، منيعا ، لايلين لسلطان عند نظره قضايا الخلق ، وله فى ذلك حوادث شتى .

هذا الرجل الذى تسبب فى جريان رزقه ، يلين له ، طوع يده ، يرتجف عند أقل بادرة لايتوقعها أو صوت مفاجىء ، الرجل الصارم ، من عرف بقوة حضوره ، عند اعتلائه منصة القضاء ، يبدو كطفل أسلم القياد ، هذا مما أوجع الوالد ، يخبره ويطلعه بين الحين والآخر على الشوارع التى يمران بها ، قد يتوقف البك ، يسأل عن مَعْلم معين ، أباق كما هو ؟ أحيانا يقول ، لماذا جئت بى الى هذا الشارع ، أريد أن أمشى فى طريق آخر . يقول الأب : لكن هذا أقرب ، عندئذ يغضب ، يتوقف . وقد يأبى الاستمرار .

مرة طلب منه أن يعود الى البيت ، نبهه الوالد الى أن صلاة الجمعة

ستموتهما ، لكن الرجل أصر ، راح يحدث نفسه بصوت مرتفع ، رثى حاله وتمكن العجز منه وقلة حيلته مع ضعف بصره ، قال إن أحمد يتحكم فيه ، يملى عليه ارادته ، أغضب ذلك الوالد ، كيف يخطر له مثل ذلك ؟، انصرف مضمرا النية على بدء القطيعة ، البك صار عصبيا ، لايطيق جدلا ، أما هو فصحته لم تعد تقوى ، حتى أنه لم يعد قادرا على المشى مسافات بعيدة ، وانتقال المسكن من الجمالية الى تلك الضاحية نأى به عن عادة الزمن القديم ، لكم مشى ، من جهينة الى طهطا ، من قرية الى قرية ، من مدينة الى مدينة ، من الجمالية ، من مسجد الامام الشهيد الى وزارة الزراعة بالدقى ، لكم سعى ، حفظ ملامح الدروب والعطفات والنواصى واللافتات وخصائص المكان وتوالى الحارات ، كان يستيقظ مبكرا ، يصلى ويمضى ماشيا ، هكذا يدخر مليمات التذكرة ، مالديه يكفيه بالكاد ، ومايدخره يحتاج اليه البيت ، لم يقلقل هدوء باله ، ولم يبدد يسر أحواله الا خلو البيت من زاد قليل .

مما أحطت به أن ظروفا عسرة مرت به ، جعلته يرتاد مهنا شاقة .. صعبة ، خاصة بعد مجىء الأولاد وتقدمهم فى التعليم ، وتزايد الحاجات ، لم يقل لهم أبدا أنه كان ينتهى من عمله فى الوزارة ليبدأ جهدا شاقا فى مخزن للقصب ناحية امبابه . يكسر العيدان ، يعدها للعصير ، لم يفض الى الأم بذهابه الى مرسى للقوارب القادمة من الجنوب محملة بالأحجار البيضاء المقطوعة من الجبل ، لم يقل أنه حمل الأحجار على كتفيه ، يفرغ القوارب مقابل قروش قليلة ، لم يحدّث عن هذا . لجأ الى أماكن نائية فى المدينة حتى لايلمحه أحد الجيران أو المعارف ردد بينه وبين نفسه ، العمل ليس عيبا ، ولكننى لاأريد أن أكسر نفس الأولاد .

لم يطق أبدا مجرد تخيل أنه سيضطر الى اخراج جمال أو اسماعيل من المدرسة بسبب ضيق ذات يده . بذل أقصى مايمكن لقواه الجثمانية أن تبذله ، غير أنه لم يهن ذاته أبدا ، هذا ماتجنبه ، مادافع عن نفسه حتى لايدنو منه أو يقع فيه ، ولو أنه أعطى الوسيلة الأفضل لما قصر ، لماتقاعس ، لكن شاء عسر الحال ألا أن يلازمه، إن يحرم تحصيل العلم ، فلم يعد بوسعه الا بذلك الطاقة وتقديم

القدرة المتاحة ليوفر مايكفى الأود ، أفهم ذلك وأجله ، غير أن كنه الصلة بينه وبين البك مما لاأقدر على الوصول الى لبّه وجوهره الدفين حتى وقت تدوينى هذا .

لم ينس أصلى تعابير وجهه الأسيانة ، وحزنه البادى عندما دخل الى البيت عصر يوم بعيد ، حط قاعدا ، ينوء بالهم ، قال إن البك تلقى خطابا رسميا بانهاء خدمته، آلمه لهجة الرسالة الجافة الموحشة ، الخالية من عبارة شكر أو مجاملة أو ايماءة حتى الى سنوات العمل الطويلة ، الحافلة بخدمة الدولة ، قال إن انتهاء الخدمة نذير بدنو الأجل ، بدا مكتئبا ، كابيا ، وخلال الأيام التالية تردد كثيرا على البك . يقول البك مخاطبا صحبه : أن أحمد من محاسيب سيدنا الحسين ، وأنه من زمرة سيد الشهداء ، قال هذا كأنه ملم بما جرى فى الأسفار والمواقف من هذه التجليات المباركة ، لكن أنى له ذلك ؟.

قبل عام من بدء الرحلة الكبرى ، جلس الوالد فى الشرفة صامتا ، قال بعد حين : أما من وقت عندك لتزور خلف بك ؟ ، تساءل جمال : أعدت اليه ؟ قال بأسى : الرجل مريض ، أجرى عملية جراحية بعد انحباس بوله ، دس يده فى صديريته ، أخرج أوراقا شتى وقصاصات ، اختار منها واحدة ، فردها ، مدها اليه ، هذا عنوان المستشفى ، ورقم الغرفة ، تناول أصلى القصاصة ، قرأها، ردها كان مشغولا بمواقيت عدة .

فيما بعد تمنى لو أنه زار الرجل ، كان الوالد يسر بصحبة ابنه فى كبره كما سر بذلك فى صغره ، لكن فى العمر المتأخر لم يكن الأمر بيده ، هذا من مساوىء أصلى التى لن أسامحه عليها ، ولن أتقبلها منه ، لو أنه بذلك الجهد اليسير ، لو قلل وقت جلوسه بالمقهى ، لو خصص الزمن البسيط لبعث سرورا وراحة عند من جاء به الى الحياة الدنيا ، وان كان هنا قبس يسير من حسن الأفعال يخفف حنقى عليه وضيقى منه مع عدم تسامحى .

مرة عرج أصلى على الوزارة لسبب غير واضح عندى الآن ، اتجه الى الممر حيث المقعد الذى أمضى عليه الأب أوقاتا طويلة ، صحبه الى الموظفين ، تبعه ،

قدمه فرحا، عند نزولهما الدرج رجاه أن يعرج على فلان ، فلم يعص له طلبا ، فى الممر توقف فجأة ، نادى على أحد المسرعين ، صافحه ثم التفت الى أصلى ، قال : جمال ابنى .

فى ليلة أخرى كان جمال فى طريقه من مكان الى مكان ، فارق عربة صاحبه ، ثمة عرس قريب ، لم يكن قد قرر الذهاب ، غير أن وصوله الى شارع قريب من مقر العرس دفعه الى المضى ، إنها ابنة ابراهيم أبو الفضل آخر من زاره الوالد ليلة بدء الرحلة والهجرة الكبرى ، دخل أصلى صالة النادى ، رأى جمعا جلّه قادم من جهينة والنواحى القريبة للتهنئة والمجاملة ، عندما نظر الى العروس ، استعاد ليلة مولية ، قصية ، صحبه أبوه لزيارة ابراهيم فى بيته بالعباسية ، جلسا ، دخل عليهما طفل صغير ، بدا غاضبا ، طبطب عليه والده وحنا ، بعد خروجه قال : الولد يغار من أخته ولابد من معاملته بالحسنى والرقة ، أومأ الأب مؤمنا ، هذه العروس المكتملة ، ناهدة الثديين كانت ابنة أيام لاغير فى هذه الليلة النائية ، عندما أنجبت امرأة أصلى ابنتهما ، قصد متجرا يبيع اللعب ، اشترى طائرة صغيرة وعلبة ألوان ، قدمها الى محمد ولده ابن السنوات الأربع وقتئذ قال له : انظر ماأحضرته لك اختك . غير أن نظرات الصغير بقيت سابحة فى الفراغ ولم يبد عليه أنه اقتنع .

عندما خلا بامرأته ورفيقة سفره ــ التى أصبحت امرأتى وصاحبة فترتى التى قدر على أن أقضيها بدلا منه ــ قال : انتبهى الولد يغار من أخته ولابد من معاملته بالحسنى ، لسبب بعيد . تذكر لهجة ابراهيم أبو الفضل زمان ، قالت امرأته مستنكرة : طبعا إنه محمد ، ثم كررت ، إنه محمد ، إنه محمد .

دخل الأب الى صالة الفرح مبتسما ، هذا حاله اذ يلقى نفسه بين جمع وصحبة ، غير أنه لم يركز النظر ، لم يسدد البصر تجاه ابنه ، لم يلح عنده السرور القديم بمجىء ولده ، بظهوره فى مكان يود أن يصحبه فيه . ولىّ هذا فلم يعد يؤثر فيه . لاحظ أصلى ذلك فتأسى ، كالاحظ نحوله ونقصان وزنه ، وترنح مشيه

وهذا مستحدث غير معهود عنه ، تزايد أساه حتى غمقت مداخله واعتمت مشارفه . التفت ابراهيم الى المدعوين . قال بصوت مرتفع : هذا بركتنا ، قعد ، غير ملتفت الى ابنه ، كأن حضوره عارض ، استثنانى لايعنيه ، راح يسأل المحيطين ، خاصة القادمين من النواحى النائية ، يستفسر عن رجال ، عن مصائر ، لكنه كلما ذكر اسما يقول أحدهم : تعيش أنت . فجأة صاح أحد المدعوين : اسمع ياعم أحمد ، أرح نفسك ، كل من تعرفهم ماتوا ! .

عندئذ لزم الوالد الصمت ، وبقى فى شرود ونظره ساع يمر عبر الفراغات التى تتخلل الحضور ، وعند الانصراف سلم شاردا ، صحبه أصلى ، مشى الى جواره فى الشوارع الهادئة ، المدثرة بظلال وأضواء متداخلة ، يتقدمهما ظلهما حينا ويتراجع حينا ، لايتبعهما ، إنما ينقاد الى مصدر الضوء الذى هو موجده وباعثه فجأة قال الوالد الكريم : تغير الزمن .. وتغيرت الدنيا . وكأن أصلى بوغت باللفظ يتلو اللفظ ، حدث الوالد نفسه ، فلو أن ابنه لايصحبه لقال ماقال ، يستوى وجوده أو انعدام رفقته ، والحق أن الوالد لم يبدأ الانقطاع عن الرفقة ، فعندما كان الأمر بيده لم يقصر أبدا ، إنما حافظ وصان ، وسعى ، وعندما خرج النظام عن طوعه ، واتخذ كل سبيله فى الحياة سربا ، سعى ، غير أن ذلك لم يدم ، أصلى هو الذى بدأ الفرقة ، والفرقة مضادة للرفقة ، قال سيد الخلق ، ان الله يحب الرفق فى الأمر كله ، فالعالم من علم الرفق والرفيق والمرفوق ، فمامن انسان الا وهو رفيق مرفوق به فهو مملوك من وجه .. مالك من وجه .

عند ناصية مؤدية الى طريقين متباعدين لن يلتقيا أبدا ، توقف الوالد فجأة ، مد يده فى وقفته المفاجئة رغبة فى النأى ، وسعى الى الانفراد ، وتصرف لم يكن ممكنا أن يأتيه أبدا فى الزمن القديم ، الحق أن أصلى كان فى هذه اللحظة راغبا فى الصحبة ، وكعادته عن اللحظات المؤدية الى الفراق تنتفض كل المشاعر المؤجلة ، ود أن يخطو الى جواره ، أن يصغى ، غير أن الوالد أدار ظهره ، قال إنه سيركب من هنا ، لم يتذكر العبارة فيما بعد الا واستدارة ظهر والده ملازمة لها ، وبعد وقت معلوم اذ يستعيد اللحظات لايرى أباه الا موليا عنه فى هذا الطريق .

قال كلاما يرجوه فيه أن يخطو متمهلا ، أن ينتبه عند نزوله فى مدينة نصر .

بعد يومين أثناء زيارته للبيت حكى لأمه عن العرس .. عن ابنة ابراهيم التى عهدها طفلة ، عن مرور الأيام .. عن ضيقه من ذلك الغشيم الذى خاطب الوالد قائلا أن كل من يعرفهم ماتوا . دهش عندما أخبرته أمه أن الوالد لم يرجع الى البيت ، أنه قضى هذه الليلة عند صاحب له فى الهرم ، أصغى ثم صمت ، لم يخبره حتى بمقصده ، فأى أبواب أوصدت ؟ .. وأى حواجز أسدلت ؟، يستعيد الخطوات المبتعدة ، الخطى المثقلة البطيئة ، يسعى صوب ليل أليل ، أمضى عمره ساعيا الى كل الجهات ، فلم يدع جهة الا يمم وجهه شطرها على قدميه ، ليس للانسان الا ماسعى .

كل انسان يبدأ رحلته ، يقطع منها المراحل وهو لايدرى ، يمشى حينا ، يبحر أو يطير ، يشرق أو يغرب ، لكن المدى واحد ، والسعى جوهره لايتغير ، الحثيث أو المتمهل ، ومع انقضاء كل مرحلة ينتهى شوط لايتكرر ، فالطريق ممتد وان دار ، مستقيم وإن تشعب وتفرعت منه الدروب ، والوالد الكريم من قلة قليلة قطعه كله مشيا على قدمين ، بلا دابة ، بلا راحلة ، بلا مركبة، وعندما بدأ الهجرة الكبرى سعى واقفا ، لم تختلط عليه الرؤى ، أبدا لم يرقد حتى يعافه أهله إنما أتم سعيه وأن سعيه لسوف يُرى . صحيح أنه وهن .. لكنه لم يقعد . صحيح أن بصره ضعف .. لكنه لم يكل . صحيح أن مشاعر من الزمن الأول انتابته ، ألم يقل للأم مرة : تهتمين بالأولاد ولاتعتنين بى . لكن مهلا .. حتى لاأنساق فيما أوغل فيه أصلى ، يجب ألا يغيب عنى أن جمال غيرى وأن كنته ، فالحذر ، الحذر .

ماقاله لها طرْحَ ظروف لايد له فيها ، كثيرا مارآه أصلى مهموما ، محملقا الى السقف ، ربما تبدر منه ضحكة مفاجئة ، يظل الباعث خفيا ، ربما خاطب الصمت متأوها «ياسلام» «آه يابوى» فما الذى أضحك ؟ وما الذى أبكى ؟ وما الذى أنطق ؟ وما الذى طاف بالحدقتين عند تواريهما عن العيون ؟ أن الصور المستعادة جالت ومرت فى أوقات الانفراد ونوء الوحشة وهجرة الصحبة ؟ أن هذا

مالم يعلمه أصلى ولن ألم به ولن أقف على شىء منه ، ليس لنا الا التساؤل والفضول اللامجدى ، لكم أشفق هو على خلف بك . فى التحول الذى لاراد له ولامانع للوقت كان يعى دنو الرحلة من نهايتها ، ينقطع عنه غاضبا ، لكنه بعد ليلة أو ليلتين يلوم نفسه ، يقول : كان لابد أن أكون أكثر صبرا ، وعندما قال ماقاله كان يجب ألا أرد . فالرجل صار عاجزا ، يجب احتماله . ثم يقول مخففا عن نفسه لكننى تقدمت فى العمر .. لم أعد مثل الزمن الأول .

فى صباح أحد الأيام مضى الى عمله عاقدا النية على مكالمة الرجل والحديث اليه مستفسرا عن أحواله ، عندما وصل الى مبنى الوزارة قالوا له ، خلف بك يرجوك الاتصال به . لم يسع الى هاتف .. انما مضى الى البيت قبل أن يتم يومه ، قال أصلى مداعبا : عدت اليه مرة أخرى ، قال الوالد مهونا ، مفسرا ، إنه سبب جريان رزقى ياجمال .

كان الوالد الكريم يحتفظ بأغراضه وحاجياته فى قفة من خوص مجدول يتناولها من حين الى حين ، يفردها ، ينفض التراب عنها ، فى حافظة عتيقة قصاصة من مجلة «المصور» ، حوار مع قاضى الخليفة وصورة له اذ يعلو المنصة متشحا بشريط أخضر ذى نجوم فضية ثلاث . كان يطلب من أصلى أن يقرأه ، ويبدو أنه حفظ عباراته ، حتى أنه كان يردد من ذاكرته بعضا مما قاله البك فى هذا الحوار . احتفظ بشال حريرى مطرز أهداه البك اليك إثر عودته من الحجاز مطرودا لأنه وقف ضد من أراد إنزال ظلم فى غير ذى وجه ، هكذا روى الوالد وهذا ماقاله .

مرة واحدة أحاط عنقه بهذا الشال الحريرى ومضى الى مكان ما ، فى مناسبة لم يدر عنها أصلى شيئا ، كذلك أنا .. غير أن مالم ينسه جمال أبدا من أمر هذه العلاقة لحظات بقيت حية واضحة اذ حدث أن مرض الوالد ورقد أياما ، مرة من المرات القلائل التى اضطر فيها الى ملازمة فراشه .

فى مساء مكتمل ، طرق باب البيت ، إنها المرة الأولى والأخيرة التى زار فيها

الأسرة ، بدا الوالد خجولا ، لايدرى مايفعل ، حتى أنه أنهى الرقاد وقام مغالبا إعياءه وأبدى فائض الترحيب ، وعند تأهبه للانصراف ...

هنا نودى على ، أرى الأم فى نفس موضعها الذى تجلت لى فيه ، ملامحها لوم وغضب صريح ، صارم ، غير ذى عوج ..

«جمال»

ماتزال تظننى ولدها ، لاتدرى فى دار هجرتها اننى لست هو وإن كنت هو ، فسبحان من أطلع بعض قومه على أسرار ، وأخفاها عن آخرين .. امتثلت وأجبت بالنظر ..

«ياجمال ، تعلم أن هذا يضايق والدك ، فابق شيئا مكتما .. اصغ الى مرة وأطع ..»

كدت أسألها عن الوالد ، لماذا لم يتجل لى ؟ لماذا لم يأمرنى هو ؟، كما استوقفتنى كلماتها أن أصغى لها مرة ، ألم يطعها أصلى أبدا ؟ هل خالفها بحيث لم يعد تقبل لمزيد ؟. هذه المرة كان صوتها مؤثرا ، وفيه نبرة لاترد ، فسكت ولم أتم ، وعلى مهل عاودت التحديق الى الجهة الجنوبية ..

«فهل ترى لهم من باقية»

قرآن كريم

.. تلك مآذن أفقى الجنوبى ، لكل منها حضور ألقى ظلا فى قلب أصلى ، منها السامق ، مآذن مسجد محمد على النحيلة ، المهيمنة عند الحذ ، ومآذن السلطان حسن والرفاعى المتقاربة المهيبة ، مآذن قصيرة غير أنها تعلو على البيوت المجاورة ، تعلن عن مثاوى أحباب مجهولين ، أو جند مجاهدين ، أو أغراب من أهل الطائفة قضوا هنا ، قمم بعضها مدبب ، والآخر مستدير ، وكلها حافة ، متحلقة بالمئذنة الأوضح ، الأول ، الألطف ، الأقرب الى الأفئدة ، الطالعة دائما ، مستمرة الصعود فى ثباتها ، إنها القائمة على مثوى الضريح القاهرى لناصر

المستضعفين ، لمن حيل بينه وبين الماء فقضى ظمئا ، الامام الحسين ، مئذنة يراها أول النهار وحتى غروبه ، فى ليالى رمضان يتقلد خصرها بطوق من ضوء أخضر ، فى ظهيرة حادة يتطلع جنوبا ، فى شرفة المئذنة الدائرية يرى شيخا يبدو ضئيلا فلا يخطر بباله أن الحجم يتضاءل بسبب البعد ، يرى يديه اذ ترتفعان لتلامسا أذنيه ، لايصل الآذان متصلا الى سمعه إنما متقطعا .. فلماذا ؟، مسافة منبسطة ، لايفصلهما بناء أو حاجز ، يدور المؤذن حول المئذنة ، ظهيرة بعينها بقيت فى وعيه ، استعادها مرات شتى ، فما الذى حدد ، وما الذى ميّز ، هذا مجهول عندى ، صعب الوقوف على أصله .

فيما تلا ذلك من سنوات علقوا مكبرات صوت ، اختفى الشيخ ، كثيرا ماأمضى أوقات الأصائل والمغارب قاعدا فى مقهى مواجه للمسجد ، مشرف على الميدان متتبع لحركة البشر وما يطرأ عليها من تغيير وتبدل ، حتى اذا حان أوان المغيب ، ارتفع صوت المؤذن عبر مكبر الصوت ، يصغى صامتا حتى وإن كان فى صحبة الى الابتهالات المتصاعدة الى السماء التى يتكدر ضوؤها بسرعة . الطف بنا يامولانا فيما جرت به المقادير ، عبارة تذكره بلحظة الظهيرة النائية ، المنقضية الى أبد . فما أصل العلاقة ؟. أما المئذنة فبقيت سامقة ، مزروعة فى بؤرة قلب الأب ومن بعده ابنه ، جذورها الخفية ضاربة فى صندوق فؤاد أصلى كذا فؤادى ، هذا الضريح القاهرى أداوم العروج عليه والتوجه اليه ، أتبرك وأتلمس والثم عتبات مؤدية الى قبلة لم يغب عنها الأب الا بالرحيل الأتم ، أتنسم أيام الصبا المولية ، ورفات العمر الجميل .

إعلموا ياصحب أن أصلى أينما ولى وجهه فلابد أن يرى الضريح واينما حط رحله لابد أن يطوف به ، إما بالحس عن قرب ، أو بالتمنى والخيال عن بعد ، هذا واقع لابد من اقراره ، والتنبيه عليه ، والاشارة اليه ، فالحسين حوى الأيام الغالية ، وما الصبا الا جزء منْ سيرته ، أما مافاض به قلب الأب وماتوجه به الى المرقد فلم يفن ولم يتبدد .

إعلموا أن الطريق من حارة الطبلاوى الى المرقد عزيز ، طريق جنوبى ، وسالكه من بعدى لن يقف أبدا على ماتركه من أثر وعلامات ، لذلك الحلم جل جهدى حتى أنوه وأنبه الى ماكان ، طريق قصير ، تمضى عبر شارع بيت المال .. ثم حارة الوطاويط ، يوما ماكانت مسقوفة ، يقولوك أنها كانت مسكونة بعفريت من شرار الجن ، يظهر قرب الفجر فى هيئة رجل يرتدى عباءة وطربوشا تركيا ، يستوقف المارة ، يستفسر عن سكة مؤدية الى العطوف ، واذ يهم المار بالاجابة يولى ظهره .. عندئذ يرى الناظر نصفه الأسفل جسم ماعز ، له حوافر وأظلاف بدلا من الساقين الآدميتين ، هنا تقع الرجفة ، ويضل العقل وتفسد الهمة ، تنسد الجهات ، ينعدم المخرج .

عند الخروج من الحارة يلوح الضريح القاهرى ، عمارة شاهقة عدها الوالد دليلا وعلامة على فساد الأحوال . اذ حكى فقال يوما أن تاجرا أجنبيا بنى عمارة على مقربة من المسجد الأزهر غير أنها بقيت ثلاثة أعوام خالية لايقترب منها طالب سكن أو باحث عن مأوى مع رخص ايجارها وسعة غرفها ، لماذا ؟. لأن التاجر الأجنبى شيدها من خمسة طوابق فارتفع بها عن المسجد ، خاف الناس سكناها أو العيش فيها ، ثم عمرت ببعضهم ، صار ماكان غير مألوف فى زمن .. عاديا فى زمن آخر ، حتى أن شخصا واحدا لم يستنكر ولم يلحظ حتى تجاوز هذه البناية لسطح الضريح الحبيب ومطاولتها لمئذنته ، ومن يدريك بما سيقع فى الأزمنة الأخرى ؟. أو فى الزمن القادم ، فالزمن واحد والأفعال متغيرة ، وإن كان الأمر غير يقينى ، فالبنيان هنا على الحيرة أحوط .

بالقرب من العمارة مقهى المجاذيب ، بعد صلاة الجمعة وخروج القوم يقف ثلاثة رجال فوق رؤوسهم العمائم. عازف كمان ، وعازف ناى، وضارب بالدف ، بجوارهم نساء ثلاث مكحولات الأعين ، أوسطهن بدينة ، أسنانها ذهبية ، تنشد المدائح ، صوتها قوى فيه شرخ لايبين ، كان أصلى يخافهن أثناء مروره بصحبة الوالدين ، قالت الأم : أن مثل هؤلاء يتظاهرن بالغناء ، لكنهن يسعين الى خطف الأطفال ، مثل الغوازى فى جهينة ، ينزلن إلى الأسواق ،

يرقصن ويعملن على إغواء الرجال ، وبعد انصرافهن ورحيلهن قد تكتشف أم اختفاء ابنها ، يصحبن الأولاد الى بعيد ليتعلموا السرقة وملاعبة القرود ، لهذا خافهن أصلى ، وكره الجلوس فى هذا المقهى حتى بعد تقدم العمر به ، بعد استقلال أمره وسعيه منفردا .»

على مقربة ، وفى نفس الموضع يظهر رجل قصير ، متسخ الثياب ، جلبابه أصفر ، تتخلله خطوط باهته ، حافى القدمين ، ذو لحية أحيانا يرتدى طاقية قصيرة ومرات يظهر هائش الشعر ، واذاماابتسم يبدو مكان أسنانه الفارغ ، سمع أصلى شذرات شتى عن عم أحمد العضاض هذا ، بعضها من الوالد ، والآخر من المقهى أو من الصاوى الخياط .

قالوا إنه كان ثريا عفيا، وتحت إمرته عالم ، وعنده ذهب وفضة ونحاس وزاد كثير ، وذات ليلة كان نائما فتحرك سقف البيت قليلا كأنما أحد يمشى فوق السطح ، فنادى من هذا ؟، فجاوبه صوت غريب عنه : صديق ، فقدت بعيرا أبحث عنه فوق السطح . فصاح : ياجاهل أتبحث عن بعير فوق السطح ؟، قال له الصوت : وأنت ياغافل تنام فى ثياب حريرية ، وعلى سرير من الذهب بينما ثأر الحسين قائم ودمه لم يجف بعد كل هذه الدهور ! فوقعت الهيبة فى نفسه واندلعت فيه جمرة ، فارقه النوم ، ولما طلع الصبح ذهب الى محل عمله ، ولم يمض وقت طويل حتى دخل عليه رجل مهيب لم يقدر أحد من الخدم أو الحشم على منعه ، تقدم منه وحدق فيه فقال له :

ماذا تريد ؟.
قال : أريد أن أنزل فى هذا المحل .
قال :
يامجنون ليس هذا لك وإنما هو محلى .
قال : لمن كان قبلك ؟.
قال : كان لأبى .

قال :

وقبل ذلك ؟

قال :

ملكا لفلان .

قال : أوليس هذا المحلماينزل به أحد ويغادره الآخر؟.. قال هذا واختفى، فازدادت حرقة قلبه ، وعند العصر سمع مناديا يناديه : قم الى سيدك الحسين والزم!. فنادى خدمه وقال : أعدوا لى الزاد ، ركب دابته ، أمعن وأوغل فى البرية فسمع مناديا يصيح به : إمض الى إمامنا الحسين والزم ! وبعد مرحلة سمع نفس الصوت من قربوس سرجه ، فأيقن أن الكشف قد وقع ، رمى كل ماعنده . ماكان خارجه أو داخله ، وراء ظهره ، ولى وجهه صوب الضريح القاهرى الشريف ، ومنذ أربعين عاما يطوف به ، ينام عند عتبة بابه ، يغتسل بمائه ، يستظل فى الهجير بسقفه وظله ورطوبة أرجائه ، قد يغيب قليلا فلا ينتبه أحد ، لايسأل عنه أحد ، لكنه عند ظهوره بمدخل دكان صامتا أو مبتسما تُلبى حاجته على الفور ، حتى لو وقف بمدخل محل الأسطى سيد الحلاق ، كان اذ يرى الوالد يبتسم مرحبا ، يضحك بصوت مرتفع ، واذا لمح ولديه معه يتظاهر أنه يود تقبيلهما أو عضهما ، ولأن لحيته طويلة ، ولأن موضع أسنانه المخلوعة يبدو فارغا ، ولأن عينيه محملقتان دائما الى مايتجاوز الواقف أمامه ، خافا منه وسعيا الى الاحتماء بوالدهما .

فيما بعد ، بعد تقدم عمر أصلى ، وسعيه منفردا فى طريق المشهد الحسينى ، كان يلمحه بجوار إحدى بوابات المسجد ، أو ماشيا على مهل ممعنا فى الهرم ، تلتقى نظراتهما فلا يعرفه ولايذكره ولايتقدم لممازحته ، أما أصلى فيرثى ويشفق على زمن منقض وليس على شخص بعينه . فى أيام شيخوخته تلك ، بعد نحول جسمه ، وتضاؤل حجمه وتباطؤ خطوه شوهد مرات عديدة يقف تحت المئذنة ، يطلق زعقات هائلة لاتتناسب مع حجمه وايغاله فى العمر ، ينظر اليه العابرون أو المقيمون ولاينطقون عن الهوى ، إنما هو وجد وجوى .

انتابني فضول ، أن ألم بأحواله ، أن أحيط بما مضى منه فى تفصيله وليس فى جملته اذ عرفت فى زمنى القديم مثله ، فهل من المعقول عندى أن يكون هو هو ؟ ومادلالة ذلك ؟ ماذا يعنى ؟ لم يظهر دليلى رغم تأجج حيرتى ولم أعرف مايشفى غليلى ، كم رغبت التحقق من لب الأمر ، لكن دليلى لم يتح لى ، انما سرى عندى أمره أن أتابع النظر ، ألا أقف فى رحلى ، فرأيت دكان الأسطى سيد ، حلاق قديم هنا ، دكانه ضيق لاجود له الآن وقت تقييدى هذا ، لم يحلق الأب فى البيت أبدا ، كان يصحب ولديه وهما صغيرين يافعين ، الأسطى سيد قصير أشيب الشعر ، شاربه على هيئة بصمة ، يبدو متأففا دائما ، يتحرك على مهل ، يرتدى معطفا نظيفا ناصعا ، يجلس الأب فوق المقعد الضخم المتحرك ، يجلس جمال واسماعيل فوق مقعدين دائريين صغيرين ، فى كل مرة يحذرهما الأسطى من التحرك حتى لايتسببا فى اتساخ أو كسر شيء ، يسحب فوطة من صوان نحيل أبيض ، مطبقة بعناية ، ينبعث منها عطر خفيف ، يفردها متمهلا ، ينفضها فى الهواء حتى تحدث مايشبه الفرقعة ، يعود متخللا ستارة الخرز الملون المدلى الذى يفصل فراغ الدكان عن الخارج ، فى زاوية المحل تحت الحوض علبة دائرية من الصفيح خصصها للبصاق ، مغطاة ، علبة أخرى لأعقاب السجائر ،من الجدار يبرز حامل متحرك مستطيل من الخيزران فوقه صحيفة مفرودة ليقرأها من يشاء بدون أن يثنى الجريدة ، مرة حاول أصلى أن يقرأها ، نهره قائلا «ستمزقها» . توارى عندئذ خجلا وعنده ضيق منه . اهانه ، لايعرف عنه حبه للقراءة ، وحرصه على الجرائد والمجلات ، بقى معى خجل اللحظة وضيقه من الرجل حتى اقلاعه من فاس المباركة أورثنى اياها . كثيرا مالام نفسه لأنه لم يرد عليه وقتئذ، نعم، إنه صغير ، لم يدخل المدرسة بعد ، لكنه أوعى من تمزيق مايصل الى يديه ، لم يدخل المدرسة بعد لكنه يقرأ ، يفضى مغاليق الحروف ، كيف ؟ الأمر فى حاجة الى تفسير حتى لو سبق ذكره .

أرى صباح يوم عطلة ، يوم جمعة ، أو عدة أصباح مندمجة ، متداخلة ، من الوعر استعادة خصوصية كل منها ، مع أن جلها من تراثى ، وأنا — عبر

أصلى ــ من عاشها لاغيرى . هكذا تتلخص الأيام فى يوم ، كل فى واحد وهذا يتبقى الا بعضه ، لايستمر العدد إنما يبقى المعنى ، نستعيد مشهدا يحوى ماعداه فأنتبه يالاه ، يامن تبدد مايمر بك من أزمنة وبقاع ، حاول أن تعرف أى لحظة من زمنك المنقضى ستبقى ولاتمحى من ذاكرتك الواهنة ، هأنذا قد نبهت ماجعلوا بالكم لما أشرت اليه وبسطته ، فالناس جلهم عنه فى عماية !

ماأبهج صباح الجمعة بعد الاستحمام ، يتم التضام ، التقارب ، نكتمل فالأب حاضر ، هذا يوم عطلته . اذا تيسر الأمر تقلى الأم فطائر أو زلابية ، ترويتا سكينة فالطوارق الدواهم نائيات ، قرب العاشرة يصيح عم محمد بائع الصحف ، فلاح من ريف قصى ، يرتدى صديرية بلدية ، وطاقية من لباد جلبابه قصير ، حافى القدمين ، تحت إبطه حافظة من ورق مقوى تبرز منها حواف الصحف ، صوته قوى ، ينزل الأب الطوابق الخمسة ، يرجع بالأهرام أو المصرى ، يتردد صوت عم محمد مبتعدا ، كان جوّالا ، لامقر يعرف له ، حتى اتخذ محلا له فى دكان منحوت تحت مسجد عتيق . حتى المشترى منه مضطر الى الانحناء ليخاطبه ، أما الداخل فلابد أن ينزل خمس درجات ليصل الى أرض الدكان ، فوق منضدة خشبية صف الصحف وصندوق سجائر وعلب حلوى .

أثناء تجواله تقف امراته ، بيضاء ، مستديرة الوجه حلوة التقاطيع ، أحيانا تظهر شقيقتها ، سمراء ، واسعة العينين ، صوتها مرتفع ، جرىء ، وقد توالت الأيام ، كل منها يقفو اثر الآخر ، وسمع أصلى برحيل عم محمد رحيلا أبديا ، حزن حزنا عابرا غير مقيم ، فى المحل يرى امرأته وحزن يعقد حاجبيها ، وبوجهها أسى ، على باطها طفلة صغيرة ، أحيانا تقف شقيقتها .

بعد زمن طويل ، قال حسن صاحب أصلى منذ طفولته الأولى أن سهرة تنتظرهما ، صديق له ترك له مفتاح بيته ، وأن امرأتين على ميعاد ، صالة البيت فسيحة والأثاث وثير ، وأثناء الانتظار الملول قال حسن ناصحا : عليك بالملاطفة ولاتكن جهما ، لكنه عندما رأهما تلجان البيت وقع عنده كدر عظيم الأولى

قصيرة صامتة ، والثانية طويلة عابثة ، مناغشة ، الأولى يجهلها ، أما الثانية فهى أنوار بعينها شقيقة امرأة عم محمد ، فما أغرب الرحلة لمن لم يقف على مراحلها ! .

هاهوذا الأب يتمدد فوق حصيرة مفروشة قبلى السرير ، يستند برأسه الى الجدار ، على مهل ، بتأن ، بصوت مرتفع يقرأ العناوين الرئيسية ، أصلى يتابع اشارة أصبعه الى الحروف ، من التؤدة تعرف على الكاف والنون والميم والحاء ، والواو ، وأمة الحروف كلها ، أتقن القراءة قبل أوان المدرسة ، فمن أبيه الأمى تعلم وفك المغلق ، فسبحان من يجلو السر ويشى بالسبب .

يفرغ الأب ، تتمكن منه روح مرح ، يقوم جالسا ، يفرد الجريدة ، يبدأ فى قراءة نص وهمى لاستقالة يرفعها الى وزير الزراعة ، يرجوه قبول استقالته لأنه غير راض عن الأحوال ، يتلو أخبارا قصارا عن مقابلاته ، أو سفره ، أو عودته من رحلة رسمية . يصغى أصلى وأشقاؤه ، بينما تنشط الأم ، ترتب جوانب البيت ، يطلب منها القعود فتومىء راضية مرضية هذا زمن أمن تبدد، احتملته السافيات الذاريات التى لاتبقى ، هل قصد الأب تعليم ولده القراءة ؟ لايمكن القطع أو الجزم ، غير أن الموثوق به عندى ، عزم هذا الرجل المجاهد الذى عرف النوب السود ولم ينثن عزمه عن تعليم أبنائه ، وتجنيبهم مارآه وعاينه واكتوى بجمره ، كذا البعد بهم عن الذلة ، وقد كان حرصه شديدا وجهده عظيما ، حتى أنه لم ينأ بهم عن الويلات فحسب ، إنما نأى بهم عنه هو ، كيف جرى ذلك ؟ كيف حادث عن قصدها الأحلام ، هذا من أجل المكتمات وأدقها وسأفصح عنها فى الحين المواتى ، كل شىء بقدر .

أما ماضايق أصلى فى هذا العمر النائى فزجوى الأسطى سيد ، صحيح أنه لم يتم السادسة بعد ، لكنه يشعر أن انتماءه الى الطفولة بالقامة والملامح ، أنه متجاوز كينونته ، وهذا حاله الذى لازمه فى مختلف أطواره ، لم يعش لحظة فى لحظتها أبدا ، ولافترة فى فترتها أبدا ، شاخ فى عنفوان شبابه وناء بهموم عظام قبل أن يتم

العشرين . بدأ زمن احتضاره فى الثلاثين ، وسعى مستكشفا طفولته الأولى وهو يخوض صوب الخمسين ، حتى اذا ماولى الشفق ، وبدأ اكتمال الغسق والليل وماوسق ، انتبه متأخرا الى لب القضية ، الى أن الباب يفتح من جهة واحدة ، خروج لاغير ، من باب الى آخر ولاعودة أبدا ، طريق للمضى الى الأمام فقط ، لاعودة ولااستعادة فيه، ولانكوص على عقبين ، «يومئذ يتذكر الانسان وأنى له الذكرى ، يقول ياليتنى قدمت لحياتى ، فيومئذ لايعذب عذابه أحد ، ولايوثق وثاقه أحد»، فياحسرة على مافرط من ذاته، فى حق من اكتملت لهم القربى ، وياحسرتى أنا المعنى وغير المغنى على مافرطت فى زمنى العتيق ، هذا حالى أنا أيضا ، كأنه أنا وكأنى هو ، كفانى .. فما أقدر على التلميح بمزيد ! .

هاهوذا أصلى فى ضيق ، كيف ينهاه الرجل عن متابعة القراءة فى الصحيفة المفرودة فوق الحامل الخيزرانى. لم يأنس للبقاء عنده، كان يراقبه، سنه للموسى على سير الجلد المثبت فى الجدار ، نفضه غبارا غير منظور عن المقاعد بمنشة ذات مقبض عاجى ، تمهله فى اغلاق علبة البودرة ، اعادتها الى نفس موضعها ، حركته الباعثة على الضحك عندما يبدأ تنعيم البشرة بالخيط المزدوج يمسك بطرفيه . يثبته بأسنانه. يقترب حتى يوشك على الملامسة ثم يتراجع ، يبتعد، يقترب، موسعا الخيط ، مضيقا اياه ، لينتزع ماتبقى من جذور الشعيرات . يغالب أصلى نفسه حتى لايضحك ، تردد الأم دائما ، الضحك بدون سببب .. قلة أدب . بعد الخيط يمسك قطعة شبة دائرية ، يدلك الوجه الناعم ثم يرش العطر من بخاخة مستودعها مطاطى ، لايسمح للزبون بالمغادرة الا بعد انتزاعه الفوطة ، ثم يمسك مرآة يرفعها ليرى المحلوق قفاه ومؤخرة رأسه ، ثم يضيق عينيه متأملا الوجه ، اذا لم يرض تماما يبدأ من جديد .

الأسطى سيد يحلق للبك ، لبعض الوجهاء ممن اعتادوا التردد على ضريح الحبيب القاهرى ، يتقاضى من زبائنه مايوافق مقدرتهم ، لاينظر ولا يحصى مايقدم اليه : ومما عرف عنه أنه يحلق بالمجان لبعض طلبة الأزهر وشيوخه والمجاورين الفقراء فيه ، لم يكن مزينا للشعر فحسب انما يداوى بعض الجروح ، ويدلى

بوصفات علاجية لمن يسعى اليه ، ولايجرى عمليات الختان الا فى أيام الاحتفال بمولد سيد الشهداء أجمعين ، يقف ببابه جمع من قصاده ، جلهم قادمون من ريف البلاد ، يحملون أبناءهم اليه تبركا ، لكنه لايسمح بدخولهم الى محله الضيق جماعة خشية اتساخ البلاط ، أو يزحزح مقعد أو وعاء عن موضعه ، أصلى ممن ختنوا على يديه ، كذلك اسماعيل وعلى .

أرى الأب يحمل أصلى ، يعده بالنزهة والحلوى ، يقعده فى حجرة ، يباعد مابين ساقيه ، هذا قضيب صغير رخو ، فأين منه تلك الفروج التى استضافته وحنت عليه وقبضته هونا إن فى شرق أو فى غرب !

ذكرت بالأخص تلك البنية الأجنبية عنه التى لم تكن قد جاءت بعد الى الدنيا ، أعض شفتى ألما اذ أرى الأسطى سيد يدس آلة نحيلة حادة ، يدفع القضيب الى الخلف ، يبرز جلد الغلفة مفرغا بينما يشرع الموسى .

أدهش ، أتعجب ، اذ أننى ختنت أيضا فى خلقى الأول ، أيعرفون هذه العادة أيضا ؟ عرفت اننى لم أنظر الى نفسى حتى وقت تدوينى هذا ، حتى حسبتنى كهؤلاء المحاربين الذين كنا نأسرهم ونكتشف متعجبين أنهم ليسوا بمختونين ، لم أر الا انفراج ساق أصلى ، ومشيى متباعد الساقين ، والربط ، الطبى مبللا بالأحمر والأصفر ، ورائحة المطهر القوية . أدقق النظر لأطلع أكثر ، لكننى المح دفوفا وبيارق وجموعا ترتدى البياض وعمامات خضراء ، ورجلا طويل الشعر يدور بسرعة ناشرا حوله رداءه المستدير ، وحصانا يتهادى على مهل ، راكبه شيخ مهيب يحتضن طفلا صغيرا أجهله ، أرى من يمشى على رجلين ، ومن يمشى على بطنه ومن يمشى على أربع .. أرى رجلا نحيلا جدا يحمل بتوازن عجيب على طرف أنفه عصا ملونة تنتهى بثقل فى حجم طربوش كبير مصمت تتدلى منه شراشيب ملونة . فما أغرب ذلك عندى !

أرى الأسطى سيد الحلاق ، إنه هرم ، نحيل ، مكتوم أمام محله فوق مقعد بدون مسند ، ياقة قميصه مسودة ، فى عينيه قذى ، أين ستارة الخرز الملونة ؟ ..

أين صندوق الأدوية والأربطة والمطهرات ؟ ، المرآة صدئة ، شققت صفاءها خيوط متعرجة ، لماذا لاتدور مروحة السقف ؟ كيف يطوف بها الذباب ؟ أين بلاطات القيشانى المنتزعة تاركة فراغا كئيبا نسج فيه العنكبوت ؟ .

الرجل مطأطىء ، يمر به أصلى ، يتمهل أمامه ، لايبدو عليه أنه لحظه ، أنه موجود لكنه راحل ، قريب غير أنه بعيد ، هذا حاله منذ أن صعقت الكهرباء وحيده، فيا عبئا رزيا ثقيلا خفف الوطأ ، خلق الانسان ضعيفا ، والفجر وليال عشر والشفع والوتر ، والليل اذا يسر ، إن أسى رقراقا يفد علىّ ، ترونه هينا وأراه بغيضا، فلما نال منى الاسى هب على عبق مشروب أدمنته وكذا هام به أصلى ولم يقتنع بغيره ، وكان هذا الهبوب بلا لريقى وتطرية لأحزان قلبى .

بجوار الأسطى سيد محل تخصص فيه ، رخام واجهته قديم ، يفيض بعبير الخروب ، برائحة ماء الورد . وقد بغضت ماء الورد لسبب سيرد ذكره فى حال الوداع ، مشروب غامق اللون ، سلسبيلى ، فى سطل من نحاس مختوم بخاتم دائرى من قصدير ، الى الروح يسعى ، جمع فأوفى ، ومن عبيره السكرى تنبعث لحظات مارقات كان الأمل فى تذكرها أو استعادتها نائيا قصيا ، أقسم بخالقى القادر على كل شىء ، أنه لولا الخشية والملامة وتقوّل الناس علّى لأفردت له فصلا ، أحاول فيه النفاذ الى جوهر الشراب . وماسببه لهواى ، وماقلبّه فى بالى ، غير أننى أكتفى بالتصريح عن عشقى له . وسعيى اليه مادمت حيا ، وإن كان الفيض الذى يأتينى من هذا الدكان لامثيل له ولاتكرار ، والأمر ليس مصادفة ، اذ أحببته فى زمنى العتيق بما يماثل تعلقى به فى خلقى الثانى .

أيمكننى التوقف والنظر الى هذا المحل قليلا ، فلن يدوم أمره طويلا ؟؟

يجيئنى الإذن من دليلى ، مما أوجب الامتنان والتحية ، أعرف أنه مثلى من المحبين لهذا الشراب ، ألم أقل أن الأمر ليس مصادفة ؟، بل إنى مطلعكم على ماهو أكثر ، فجمال بن عبد الناصر ، من ناصر الأب حيا ، ومن ناصره الوالد راحلا ، غائبا ، توقف مرارا عند الموضع عينه ، لفترة غير قصيرة أقام فى حارة خميس

العدس ، ناحية الخرنفش ، القريب من ضريح الحبيب ، نزل عند عمه خليل ، طابت له الإقامة فى البعد اثر رحيل الكاملة امه . وزواج أبيه ، فى هذا الموضع أمضى لياليه ، غالب السهاد ليستوعب مايدرس ، وكان قاسيا على ذاته ، اذا أوشك النوم على التمكن منه قام الى الماء البارد ليغمر وجهه ، أو نزل الى الشارع يمشى قليلا أو كثيرا ثم يرجع يقظان نشطا . وهكذا قد يصل يومين ببعضهمالايعرف نوما .

فوق هذه الأرض مشى ، فى نفس الأسواق سعى ، وعلى جدران المبانى وقعت عيناه ، أحب الناحية ومافيها حبا جما ، وبعد تمام الأمر له لم يركع لصلاة العيدين الا فى الضريح القاهرى . هذا سبب لم أعلمه من قبل ، رآه أصلى عفيا يركب عربة مكشوفة بعد آداة الصلاة على مقربة من ضريح الحبيب ، رآه يخرج صباح عيد والنهار معتم بعد فلابد أنه شتاء ، المصابيح ماتزال مضاءة ، والحراس كثيرون ، لمح هامته المكتمل شيبها ، ومن الجمع صاح رجل يرتدى جلبابا وطاقية «اعطونا سلاحا» .

وثق أصلى أن النداء وصل الى أذنى ابن عبد الناصر ، من أطلق الصيحة ؟ هذا مالن يعرفه أبدا ، كما أنه لن يطلع على ماهدهد ابن عبد الناصر وجعله يمضى القهقرى الى زمن ناء قبل سماعه صيحة الرجل ، استعاد للحظة مارقة رحلته القديمة من خميس العدس الى هذا الميدان ، زمان !. يخرج من الحارة ، يرتدى الحلة والطربوش ، باسق القامة ، اذ يسرع الخطى يميل الى الأمام قليلا ، يعبر قبو قرمز الممتد تحت مسجد الأمير متقال ، قبو كان أصلى وأطفال الحارة يرهبون المرور فيه نهارا ، سمع من أبيه يوما أن شخصا مذبوحا اعترضه فى عز الظهيرة ، ينزف دما ، عدا خلفه محاولا نيله ، وعندما اجتاز الأب ظلمة القبو التفت فرآه خاليا ، لاأثر لأحد ، ولادماء حتى ، قال أن مانجاه، أنه ذكر اسم الله وتلا فاتحه الكتاب ، لولا ذلك لجرى ماجرى .

ابن عبد الناصر يتم عبور القبو ، ثم ميدان بيت القاضى ، تلك الموجودات رسخت عنده لكثرة ماانطبعت فى وعيه ، شجرة خضراء مباركة تتوسط الميدان

حتى وقت تدوينى هذا ، وحوض للماء مستطيل تشرب منه البغال والحمير والخيول والدواب على الدوام ، مبنى الشرطة ، مقعد القاضى ماماى ، مدخل حارة الصالحية ، مدخل مدرسة خان جعفر ، السبيل الرقيق المواجه الذى لم يعد يقدم للعابرين مايروى ظمأ المشتاق ، ومدخل فندق الكلوب العصرى ، وبائع للحمة الرأس ، ومحلات متجاورة تعرض لوازم الحلاقين ، ثم سبح متدلية ، وطواقٍ مزركشة وشيلان حريرية ، وعصى خيزرانية ، ونراجيل ، وحقائب مختلفة أحجامها وأشكالها ، وزجاجات صغيرة للعطور البلدية ، وعلب دقيقة تحتوى على العنبر .

يتوقف أمام محل الخروب ، رائحته تلون الظلال الرطبة فتجعل المكان وارفا ، فى المواجهة ثلاجة خشبية ، الجدران مبطنة بالواح من معدن ، بجوار المنضدة الرخامية القديمة التى امتلأ سطحها بحفر صغيرة لكثرة ماسال فوقها من ماء يوجد مستقر الخروب ومستودعه ، يقف أمام الدكان ، تلامس قدماه مواضع وطئها أصلى وأبوه واخوته فيما بعد .

الأرض هى هى ، لاتتغير ولاتتبدل ، لاتزيد أو تنقص ، إنها الموجود الوحيد الذى لايبلى من المواد الى مدى بعينه ، لاترحل ولاتنتقل فى الظاهر ، أما سعيها فخفى ، غير مدرك بالحواس ، كل شىء يتقلب ، يتبدل يتغير ، عداه هو ، الذى يبدل هذا كله ويغير هذا كله .

يقف رجل يرتدى جلبابا فوقه سترة من جوخ أخضر ، لأيرى الا على هذه الهيئة ، مطرق الرأس بملامحه جدية واعتزاز شأن من يدرك قيمة مايفعل ، وهذا تعبير رآه أصلى على وجه الخضرى الحلوانى ، الذى عرفة القوم واقفا يبيع البسبوسة فى صينية أمام حمام النحاسين بشارع المعز ، حتى اشتهر أمره ، وتيسر ، فاتخذ له محلا قرب الجامع الأزهر ، ثم توسع فكسا الجدران رخاما ، وأضاء الواجهة بالأحمر والأزرق ، وأصبح لايرتدى الا جلبابا أبيض ، نظيفا ، ولايظهر الا لماما ، لينظر برضا الى صوانى الكنافة والبقلاوة والروانى ، ثم يومىء لهذا أو ذاك ويختفى عن العيون .

التعبير عينه كان يرى فى عينى مصطفى النقاش ، ينحنى على صينية النحاس يحفر الخطوط المتشعبة المتعرجة ، المتلاقية ، المتفرقة ، يدق مطرقته النحيلة ، وقد يطول انحناءه ساعة أو ساعتين ثم يرفع رأسه والرضا ملء عينيه يتأمل ماأبدع ، يدير الصينية يمن ويسرة ، هكذا ينظر بائع الخروب الى مشروبة وقد يرفع السطل فى الهواء قليلا قبل أن يقدمه ، يضع الزبون نصف القرش فوق الرخام ، أرقب رشفات ابن عبد الناصر ، طلبة من الأزهر ، شيوخ كمل ، منهم فاقد البصر ، والنحيل الهزيل ، وعظيم البطن ، منهم من يرفع الرأس الى أعلى ، منهم من يرشف بصوت مرتفع ، وآخر يحسو فى صمت ، واذ يفرغ يدعو لصاحب المحل ، يرجو له الستر ودوام الفتح فى الطريق ، عرفت حب ابن عبد الناصر لهذا المشروب ، وعرف عنه القوم تفضيلة للجبن الأبيض ، حتى أنه كان يصحبه اينما ولى وجهه ، لم يستهوه أبدا فاخر الطعام ، شأن كبار القوم من أصحاب السفر ، اذ كان أشد مايخشاه اتباع الهوى ، وهذا درس عظيم ، راق ، وعاه أصلى وتمثله . فالانسان ساع فى هذه الحياة الدنيا ، التى يعرفها مثلى ، ومن هم على شاكلتى بأنها طريق ، أوله اقلاع وشروع ، وآخره هجرة عظمى وختم حقبة ، والمسافر يجب عليه التزود بأقل الزاد ، فاذا ركن الى دعة بعض الوقت وجاءه طيب الطعام أكله وشكر خالقه ، واذ يستأنف رحيله فلا ينتظر مثيلا لما أطعم فى نقطة تالية، لو تحقق ذلك صار الأمر عادة ، والعادة عبودية ، وهذا ملمح أعجبنى ورضيت عنه اذ لقيته عند أصلى ، أمضى رحلته حتى اسرائه من فاس المباركة يأكل مايلقاه أمامه ، لاينفر ، لايتأفف ، سواء فى حال عسره أو يسره ، خشى الارتباط بعادة ، لأن مايتوافر له ساعة ، قد يفتقده ساعة أخرى ، عندئذ يحمل نفسه مالاطاقة له به ، وهذا لب سلوك أكابر القوم المسافرين ، المغتربين أبدا ، ولنا فى سيرهم اسوة حسنة .

قال الشيخ الأكبر محيى الدين : إنا قوم سفر نقطع المناهل بالأنفاس رحلة الشتاء والصيف لنطعم من جوع ونأمن من خوف ، لأنه مازاد على وقايتك فما هو لك ، ومالیس لك لاتحمل ثقله فتتعب ، وهذا ماكان عليه جمال بن عبد

الناصر كان بعض المقربين يحاولون تعريفه بنفيس الزاد ، فيذكرون أطعمة بعينها، فيصدهم صدا لينا حازما ، وأحيانا صارما ، رادعا .

حدث ان جاءه أحدهم يوما بتفاح، وتلك ثمرة ديارها بعيدة عن مصر ، أبدى ضيقا وغضبا ، ومما جرى على لسانه : كيف أطعم مالا يأكله عامة ناسى ، قال ذلك عند مرحلة من الطريق كان فيها اذا اشار لأحد لبى ، واذا طلب استجيب له .

أين ذلك من خليفة السوء الذى كان يطعم فيتمطى ، ويلقى الى الكلاب ماعز على القوم ، ويرسل فى طلب اللذائذ من كل فج ، ويسعى الى المتعة فى المتعة ، هذا ياصحبى عين العبودية ، فالحرية الحقة ألا يكون بقلب الانسان رق لشيىء من الأعراض البادية لاعاجل دنيا ولاحاصل هوى ولاسؤال ولاقصد ولاإرب ولاحظ ، كذا لايجرى عليه سلطان المكونات .

لم يتعلق أصلى ولا والده ولا جمال بن عبد الناصر بشيىء ، أحبوا شراب الخروب ، نعم ، الشاى المعطر بالنعناع ، نعم ، لكن اذا انقضت أيام طوال بدون توافر شيىء من هذا أو ذاك لايتبدل الأمر عندهم أو يتغير ، اذا حان وقت الطعام لايسألون ولايردون ماقدم اليهم ، ان أعجبهم تذوقوا ، وان نفروا لم يردوه ، لم يمتنعوا الا عما قضت به الضرورة ، وهذا من أجل خصائص السفر والشيم الواجبة للصبر على مشاق الطريق ، وهذه أمور لايعلمها الا قلة .

دليلى يومىء الى ، اذن .. أطلت الوقفة ، أعزم أمرى ، أقطع المسافة من محل الخروب الى الدكان المجاور ، جدارهما واحد ، لكن هذا اقتضى منى مشقة ، خطوة مكانية ... هذا صحيح ، لكننى أسافر بقلبى ، والسفر نوعان ، الأول حسى ، بالبدن ، وهو الانتقال من بقعة الى بقعة ، ومن لحظة الى لحظة ، وسفر بالقلب ، وهو الارتقاء من صفة الى صفة .

قال لى دليلى :

«اجتهد أن تكون دائما راحلا بين منزلتين ..»

وقد لبيت قبل أن أنادى ، فما أنا الا راحل أبدا ، ضعيف ، أسير زمن ، طاوى حشا ، خائف من سوء المنقلب ، لاأتقيد بحدود فى سفرى هذا ، قد أعبر المحيط الأعظم قبل أن يرتد طرفى اليّ ، أو اختراق الجبل بدون حاجة الى الدوران حوله ، وربما ألقى العسر فى الانتقال من موضع الى موضع مجاور ، هذا عين حالى عندما دنوت من محل الحاج الهوارى ، إنه كان تاجرا للأثاث غامضا ، اذا تكلم فانه يهمهم ، واذا نظر فانه يبدو مسدل الجفنين ، أراه كما تبقى فى وعى أصلى ، رب قوم عاشرناهم ، دنونا منهم ودنوا منا ، وكان لنا معهم وقفات ومعاملات ، اذ تباعد السنون مابيننا وبينهم ، واذا نستعيدهم فلا نرى منهم الا وضعا معينا أو تعبيرا خاصا ، لذلك لا أرى الحاج الهوارى واقفا الا عند مدخل ، يرتدى معطفا كاكى اللون ، تحته جلباب ، يغطى رأسه بطربوش أحمر ، متطلعا دائما الى مثوى سيد الشهداء ، نظرة يامدد الأحبة . الدكان داخله معتم ، اذ يمتد تحت ثلاثة مبان ، ينحنى الى الداخل ، لايمكن رؤية آخر ، الأثاث منكّل ، مرايا تحتويها أطر مزخرفة من نحاس ، وآخر من حديد .

للحاج أبناء ثلاثة ، أكبرهم لايبدى ودا ، عنده سن ذهبية ، الثانى زامل أصلى فى الدراسة زمنا ، أما الثالث فلا ألمح منه الا ظلا ، لاأتمكن من ملامحه أبدا ، ثلاثتهم لايلفظون الا همهمة ، أبوهم يبيع الوالد الكريم سريرا من الحديد أسود الطلاء ، السرير الذى رأيت الأب ينصبه ، أول سرير ينام فوقه كذا أمى ، لكنهما أفرداه لأصلى وشقيقه اسماعيل ، ولمن رحل طفلا ــ محمد ــ له الرحمة وطيب المثوى الى جانب شقيقة خلف وكال ، فوق الأرض تجاورا وأغمضا عيونهما .

هذا السرير رقد فوقه أصلى مريضا ، بعد أن أدركته الحصبة ألبسته الأم ثيابا حمراء ، وحاشت عنه الزيارة ، لذكرى هذا المرض تنميل ورعشات ، وقلق أمومى فى العينين الحانيتين ، وحزن أبوى مكتتم وتساؤل وجل قديم لم ينطق به اللسان أبدا هل يلحق جمال بخلف وكال ؟، كلا .. وربى هذا كثير ، ثقيل .

للحبيب ، الأمير ، الشهيد ، الحسين ، نذرت الأم الفول النابت ، وأضمر الأب النية لإطعام مساكين ، يخاف ولايبدى اشارة ، بعد العودة من جهينة ، بعد بدء مرض محمد ، بعد أن قال الشيخ عطية أن نجمه يهوى ، وأن شمس الجمعة اذا طلعت عليه سيعمر طويلا ، بعد منتصف الجمعة . أغمض محمد الصغير عينيه ، بدا جسده مرتجفا ، صار أمره الى حشرجة عاتية ، ناغته الأم كأنه يتأهب لنوم ، نوم طويل ، لاتعقبه صحوة . نادته بالكلم المرقق ، قالت له أن الملائكة والصديقين يحفون بك الآن ويطوفون ، غير أن ضعفها فاض وطغى ، فقالت متوسلة ، راجية ، آملة ، دانية ، «رب .. لاتعذبه» ، ثم قالت ، «رب .. سبه لى» . ودمعت عيناها مع أن البكاء بحضرة مريض عندها شؤم ونذير .

عند هذه اللحظة رأيت مالم تره هى ، مالم تحط به خبرا ، مالم يعه أصلى ، رأيت أنا والدها ، الشيخ على باشا المداح ، الذى خرج من جهينة منذ سنوات بعيدة ملبيا نداء الجمّال الغريب ، ولج نافذة الغرفة المغلقة كان يرتدى اللباس الأبيض ذاته الذى خرج به من داره ، اقترب منها ، تطلع اليها ، فاض حنوه ، غير أنها لم تره ، دنا من السرير ، فتح محمد الصغير عينيه ، تطلع ناحية جده ، وعلى وجهه لاحت بشارة ابتسامة ، ظنت الأم أنه الفرج بعد الضيق ، غير أنه تعلق بصره بجده الذى جاء يساعده ساعة احتضاره ، ليعجل بخاتمة النزع حتى لايطول الأمد ، مد يده فمسح جبينه وحتى أطراف قدميه ، عندئذ فارق محمد محمدا ، غاب الجد واتضح الحد ، أى الفرق بين ماكان ومايكون فسبحان من كشف بعض السر لقوم وأخفاه عن آخرين .

أدركت الأم أن الساق التفت بالساق وأنه الفراق ، فهوى رأسها مستندا الى ذراعها ، اهتز جسدها هزات متعاقبة ، فلما رأيت ظهرها المنحنى ، رأيت انحناءة ابنتها نوال عندما ستقعى بجوار السرير يوما فى مكان بعيد عن هذا تخفى وجهها باكية ، بالضبط هكذا ، تماما كما أرى ، أصابعها تتشبث بجسد الوالدة ، رافضة فراقه والنأى عنه ، فما أعجب اللحظة اذ تقترن باللحظة ، غير أن نوال لم

تكن ملمة بنهر الأسى والأحزان الذى تدفق عبر كينونة أمها قبل أن تولى وجهها شطر الأبدية .. صوب العدم !

لكن مالى أتعجل ؟ هذا له أوانه ، وتأثيره عندى ، فصبرا . كرهت الأم السرير الحديدى الأسود ، فارقته الى الأرض ، أبت أن ينام فوقه جمال أو اسماعيل بعد خلو البيت من محمد ، محمد هذا الذى التقيته فى مقام الضنا ولكن فى خلقه الآخر ، فمن شاء الاستزادة فعليه مطالعة ماأثبتناه هناك ! .

ألحت الوالدة ، كما أبدت تشاؤمها من الهوارى ، فسعى الأب الى تاجر أثاث آخر لكنه ليس من أهل الناحية الجنوبية ، إنه الحاج فؤاد ، اختار للأب سريرا من خشب ، أعيد تجديده باتقان ، حدث وقتئذ أن وصل ايجار الأرض المتأخر كما زاد راتبه خمسة قروش ، فعزم وتوكل ..

إصطحب الأم وابنيه الى الحاج فؤاد ، اختارا صوانا خشبيا تتوسطه مرآة بلجيكية الأصل ، هاهى ذى الأم تفرد ثيابها فى القسم الأوسط ، إنها فرحة ، آن لجلابيبها وقمصانها الداخلية وفستانها الأسود الوحيد وبقية ملابسها أن تفرد ، أن تفارق القفة والحقيبة ، غير أن نظرها يشرد ، فى عز فرحتها بالصوان . تنظر الى جلاليب ولديها . لو أن محمد لم يرحل ، لصار له ركن هنا وشغلت هدومه حيزا ، لصار عنده الآن خمسة أعوام ، هذا نصيبه من الدنيا ، لو أن خلف وكال .. تستدير الى النافذة فلا أدرى وجهة عينيها ، أجهل المدى الذى سافرت اليه بنظراتها .

أطيل النظر الى الجهة الجنوبية ، أرى محل الهوارى مغلقا ، ومحل الخروب ، جف منه العبير وفارقه الطل ، هذا زمن متقدم ، فلأتمهل ، خاصة أن محل الصاوى الخياط عند الجهة الجنوبية ، وقد ورد ذكره فى المواقف ، كان مقرا لخلف بلك بعد صلاة الجمعة ، كيف بدا الأمر ، كيف نشأت العلاقة ؟ هذا مالم يتح لى الوقوف عليه .

إنه يقعد عند الطرف القصى للمصطبة الأمامية ، أمامه منضدة قصيرة

القوائم ، فوقها الأقمشة والخيوط والابر ، أصبعه مغطاة بالكستبان ، ساق ممدودة وساق مثنية ، وعند طرف أنفه يرتكز المنظار المعدنى . وحركة يده الممسكة بالإبرة ذات الفتلة لاتتوقف . أما القماش فمبسوط على ركبتيه ، يصغى الأب اليه بعد انصراف البك ، يتحدث دائما عن أيامه التى قضاها فى استامبول ، عندما استدعوه ليقص قفاطين السلطان ، دخل القصر الكبير وخصصوا له غرفة وخدما ، رأى السلطان عبد المجيذ بعينيه ، صافحه ، سأله عن أحوال مصر ، أجابه بما يليق . دار حوله ، لامس جسده ، حفظ مقاساته ، لم يكن فى حاجة الى تدوين مما أدهش المحيطين به ، أكرموه للغاية ، الافطار اليومى لم يخل من القشدة وعسل النحل المصفى والفطائر تنز سمنا ، أما الغذاء ففيه كل ماتشتهيه الأنفس ، وفى العصر لابد من نزهة بحرية فى القرن الذهبى ، ثم صلاة العشاء فى مسجد السلطان أحمدْ ، يوجه كلامه بداية الى الأب ، وسرعان مايتجاوزه بنظراته ، فيحدق الى جهات مجهولة يذكر شيئا ما عن دخان نرجيلة عطرى ، ومآذن نحيلة ، وقباب ، والخليج المغطى بقوارب وسفن شتى ، ومرتفعات ، وأشجار متعانقة أغصانها ، ونساء جميلات يرتدين الحرير الشفاف ، تبدو قعدته السكونية مشحونة بالرغبة فى الاقلاع ، أما ارتفاع كتفيه ونفور عروق رقبته فيومئان الى ضجيج الجسد المجهض ورغباته التى لم تلب ، وخلال هذا كله لاتكف أصابعه عن غرز الإبرة وشد الخيط ، بعد حين يقول عند الوصول والعودة الى محدثه .

«رفضت البقاء قرب السلطان ، وعدت لأجاور ابن بنت رسولنا الكريم ..» يرفع الأب يديه :

«الفاتحة لإمامنا وسيدنا ..»

يبسط يديه ، يتلو فاتحة الكتاب ، يمسح الوجه ، وموضع القلب .

يقول الصاوى بصوت خافت :

«الخيرة فيما اختاره الله ، بعد عودتى خلعوا السلطان»

يقف الأب ، يقول إن الأوان حان لذهابه ، يقول الصاوى إنه لو بقى لفتكوا به يقول الأب إنه لابد من ذهابه الى فندق الكلوب ليلحق ببعض أبناء البلدة ، يطلب الصاوى بقاءه قليلا ، يتناول من تحت الطاولة قصيرة القوائم علبة معدنية فى حجم عقلة الأصبع ، إنه متخصص فى تركيبة للسعوط لايتقنها الا هو ، لخلف بك علبة أسبوعية يمضى بها الأب اليه ، يعود الصاوى ليثبت فيه النظر ، «اقعد ياأحمد» ، لكن الوالد يكون قد مضى وغاب عنه ، غير أنه يستمر فى وصف بيوت استامبول والقباب المتجاورة ، والموسيقى الشجية التى تسمع من بعيد ، وآذان الفجر الحزين ينبعث من المآذن النحيلة المشرفة على البوسفور الجميل .

تلك بوابة الفندق ، فسيحة ، تؤدى الى ساحة مستطيلة تطل عليها نوافذ المبنى وشرفاته ، فى ليالى الصيف ، فى نهارات الشتاء المشمسة تصطف المناضد ، الى الجانب الغربى شرفة متسعة تؤدى اليها ثلاث درجات قيل على مسمع من أصلى ، لايعرف من القائل أو متى ؟ ان هذه الشرفة شهدت أول عرض سينمائى فى مصر عام ألف وتسعمائة وعشرة ميلادية ، كان رواده من عمد البلاد ومشايخها واثرياء الريف ، وأجانب قادمين من أصقاع شتى ، جل القوم من الأحبة المريدين الذين قصدوا الاقامة على مقربة من الضريح القاهرى ، ولحرص بعضهم على صلاة الفروض الخمسة حاضرة ، واصغاء الى أدعية الفجر التى تتردد عبر صمت الليل النهائى ، بناء الفندق الى يمين الداخل ، أربعة طوابق ، شرفات الغرف مسورة بحديد مزخرف ، فى نهاية الفناء المكشوف يقوم بناء مطبعة الحلبى العتيقة التى تمت الى القرن الماضى .

فندق عتيق ، اذا سددت اليه البصر الحسى أو العقلى أو القلبى فلا أراه الا ساعة ظهيرة ، ويوم الجمعة ، وبالتحديد بعد صلاة الجمعة ، بعد أن يتفرق الجمع الذى انتظم صفا ، صفا ، بعد انصراف جلهم ، وتفرق آخرين فى المقاهى والدكاكين والمتاجر والوكالات المحيطة بالمرقد . يمضى بعضهم الى الفندق ، يقصده الأب بعد جلسة دكان الصاوى ، بعد انصراف خلف بك . هنا يلتقى بأبناء

جهينة القادمين الى المدينة ، أراه مقبلا ، أصلى الى يمينه واسماعيل الى يساره ، محب لصحبتهما ، يقول للأم دائما : «حتى يروا الناس ويشوفوا الدنيا» .

الحاج عبده النوبى مدير الفندق ، جاد الملامح ، لباسه جلباب صيفا فوقه معطف شتاء ، وطربوش لايميل ، لم أره مبتسما أبدا ، يميل الى الأمام وكأنه على وشك أن يهمس ، محدق ، مزموم الشفتين تتشابك أصابع يديه . إنه مهتم جدا بحرب مستعرة فى بلد اسمه كوريا ، بجواره راديو ضخم الحجم ، تتوسط واجهته لمبة صغيرة تضىء لونا أخضر اذا اتضح الأمر ، يعرف مواعيد نشرات الأخبار ، وأصوات المذيعين ، كذلك الألحان المميزة .

ظهر الجمعة يخبر القوم بأهم ماأصغى اليه طوال أسبوع ولى ، يقص ماسمع من أنباء ، يحدثهم عن مسار الحرب ، يذكر أسماء المواضع والبلاد ، والقادة ، يقول إن جمعا من المحاربين قصدوا الهجوم على القوات الأمريكية ، اعترضهم مجرى مائى متدفق التيار ، كانوا بحاجة الى جسر يعبرون عليه ، فما كان من الجماعة الا أنهم ألقوا أنفسهم فى النهر ، تكدسوا فوق بعضهم البعض حتى وصلوا الضفتين بجسر من الجثث وعبر من تبقى ، يصغى الأب ، أصلى يستمع منبهرا ، مجهدا نفسه فى تخيل هذا البلد النائى .

عبد المقصود أفندى ، عمر الخادم النحيل جدا ، الطويل جدا ، يتوقف عن خدمة الزبائن ، الكل يستمعون ، يقول الحاج عبده إن القائد الأمريكى لو تدخل بالطيران لحسم الموقف ، لكنه لم يفعل ، ثم يقول مؤكدا أنه عندما أصغى الى عنوان النبأ استنتج مقدما ماأقدم عليه قائد الكوريين ، ولحظة اصغائه الى التفاصيل صحت توقعاته ، قال الأب للأم أن الحاج عبده كان يتابع معارك الحرب العالمية ويعرف أدق التفاصيل ، وكذلك حرب فلسطين ، وأنه يقضى أياما متتالية متكدرا حزينا لأن النتائج لم تتطابق مع توقعاته وما أشار به ، وكثيرا ماشوهد غضبان آسفا لأن الوسيلة معدومة فى توصيل نصائحه الى القادة ، خاصة حرب فلسطين يردد الحاج عبده أنه معجب بالكوريين ، أنه اختار الانحياز اليهم فخواطره

معهم ، لانهم يحاربون فى بلدهم ، يكرر مرات هجوم حشودهم غير عابئين بالنيران والهلاك ، ثم يردد :

«لن نهزم اسرائيل الا بهذه الطريقة ..»
يومىء عمر مؤمنا ، ينطق بعد طول صمت :
«صحيح .. مضبوط ..»

إنه نوبى أيضا ، يشترى الطعام للنزلاء ، والصحف ، ويقضى الحاجات ، جبهته مستطيلة تؤدى الى رأس أصلع تماما تنفر منه عروق خضر ، على جانبيه بقايا وشم جاء به من البلدة ، لكن بعد عمله فى الفندق ، وتندر الزملاء به ، عالجه بماء النار عند الأسطى سيد ، احتمل جلدا ، حتى اذا انتهى الأمر أبدى الأسطى دهشة وتعجبا ، اذ أن عتاة الرجال وجبابرتهم يصرخون لحظة ملامسة الحمض جلودهم ، غير أن عمر لم يلفظ آهة ، لم يعض شفته العليا أو السفلى ، لم تتلقص ملامحه ، لم يغمض عينيه ، إنما حملق فى المرآة كأنه يرقب شخصا آخر لاعلاقة له به .

اذ يبدأ الحاج عبده حديثه عن الحرب ، يترك عمر مايشغله ، يجيىء ليحدق ويصغى ، واذا تصادف عودته من مطعم حاملا صينية عليها أطباق ساخنة يقف ولايتحرك ، وعندما يصغى يزداد اتساع عينيه ، يلدوى فيهما بريقهما الغريب ، ربما يهز رأسه مرة أو مرتين أو يعلق بكلمة «صحيح» أو «تمام» ، أحيانا اذ يفتقد الحاج عبده زبائنه يدعو عمر الى الاقتراب منه ، لايجلس فى حضرته ابدا ، يبقى واقفا ، مصغيا مما يضطر الحاج الى رفع رأسه وعينيه ، يستمع الى المواقع التى احتلت وتلك التى يجب تدميرها ، وأخرى كان من الممكن اجتياحها ولم يتم ذلك ، الى خطط كان يجب تنفيذها ولم توضع أصلا .

عمر من أحباب الإمام الحسين ، يؤدى الفروض فى مواقيتها داخل المسجد ، أنه يمسح الميضأة ، ودورة المياة مرتين فى الأسبوع ، نذر قديم قطعه على نفسه ، يشهد المصلين والزوار أن الميضأة تبدو أنظف صباحى الثلاثاء

والجمعة ، يفعل هذا راضيا ، وبرغم صمته الذى يستغرق أسابيع ، وهدوئه وصبره على الشدائد والأعمال الصعبة ، فانه يشتعل كحريق وتتوتر عروقه وتتصلب يداه ، يقذف بأى شيء فى متناوله اذا سب شخص أمه مهما كان مركزه أو وضعه .

بعض خبثاء الناحية يثيرونه من بعيد ، يزعقون بسبها ثم يعدون جريا ، عندئذ يزعق زعيقا هائلا يهلع منه المارة بقربه ، يبدو خروج هذا الصوت غريبا من جسده النحيل ، حتى اذا عجز عن اللحاق بخصومه يقعى جالسا فوق الرصيف ، يغمض عينيه ، يرفع وجهه متألما فتبرز حنجرته ككرة صغيرة داخل حلقومه ، يضرب صدره بقبضتيه ، مطلقا جعيرا يخشاه الكبير قبل الصغير ، ولم يعرف سبب ذلك !

أراه فى جلبابه الأبيض النظيف ، يمشى حاملا طبقا من الفول ، يعبر ميدان بيت القاضى ، يتحدث الى الأب ، واضح جلى أنه يكن له الود ، لكن عن أى أمر يتحدثان ؟ عن أى أمر ، لم أصغ ، لم يوضح هذا لى ، حتى حركة الشفاه لم أرها ، لم يتحدث أصلى الى عمر غير مرة ، التقى به فى شارع المشهد الحسينى ، كان ذلك بعد مرور سنين ، بعد طى السجل للكتب ، بعد شقاق وقع ، إثره هجر الأب البيت غاضبا ، لم يدر له أحد مستقرا أو مقاما ، هاهوذا عمر يجىء من ناحية الميدان ، يحمل دورقا مليئا باللبن ، رأسه مرفوع ، يميل الى الخلف ..

«صباح الخير ياعم عمر ..»
ينظر اليه ، لايتكلم ..
«ألم تر أبى ، ألم يجىء الى الفندق ؟»
تنفرج شفتاه ، لثته حمراء كالدم ، أسنانه ناصعة ، غاضب ، عدائى اللهجة .
«امش»
يرتبك أصلى ، يهدد عمر ، يستنكر ، يلوم ..
«تغضبون أباكم الطيب ..»

يولى ظهره ، صار أصلى يتجنبه خشية ، اذا راه حاد عن طريقه ، فيما بعد كثيرا مااستعاد يوم جمعة لاينسى ، بعد أن خطب نصير المستضعفين فوق منبر الأزهر ، ورج صوته قلوب الخلق عندما أعلن الجهاد ، «سنقاتل .. سنقاتل .. سنقاتل» . أنبأ القوم أنه باق بينهم ، كذا أولاده ، وصحبه ، وأنه سيلقي مايلقونه ، ضج القوم ، ودمع بعضهم ، وهتف آخرون ، وانبثق حضور المسجد العتيق ، فتلك لحظات لن تنسى الى أمد طويل .

بعد انصرافه ، بعد اظهار البيعة له ، عاد أصلى الى ميدان المشهد الحسينى وبيده صحيفة «الأخبار» ، طواها على عنوان أحمر يقول : إن بورسعيد دفعت ضريبة الدم، رأى الميدان غاصا بقوم من كل فج ، يرتدون ثيابهم المدنية ، جلاليب وطواقى ومعاطف وشباب مُعدّ ، متأهب للموت ، كل يمسك بندقية ، ينشدون «الله أكبر» قبل انطلاقهم الى جهة ما ، وعلى مقربة عربات نقل عسكرية ضخمة ، غمامات فى فضاء الميدان ، يوم خريفى .

يقف أصلى ، دماؤه متدفقة ، حارة ، رغبة ، قصوى فى المشاركة ، ألا يكون غيره قريبا وهو بعيد . انه يلمح فى نهاية أحد الصفوف عمر النوبى ، طويلا ، فارها ، نحيلا ، يقبض بيده ماسورة بندقية «لى انفيلد» ، طلاؤها بنى ، ماسورتها سوداء ، عيناه متجهتان الى أمام ، طويل ، أطول من أى مرة رآه فيها هذه لحظات بقيت معه ، استعادها فى نواح شتى ، وظروف مختلفة ، وأوقات متباعدة ، وفى الأعم ، الأغلب ، بدون ترتيب .

لم ير عمر بعد ذلك ، غاب تماما ، وقيل إنه ذهب الى الجبهة وهناك فُقد ، وقيل إنه قتل فى غارة ، ولأنه لاأهل له ، ولايعلم أحد شيئا عن اقربائه أو من يمتون اليه بصلة ، دفن فى مقابر الشهداء بالاسماعيلية بلا علامة تدل عليه ، قيل غير ذلك ، إنه شوهد فى بور سعيد يمشى بجوار امرأة بيضاء وطفلين ، لكن لم يثبت صحة ذلك ، أما المقطوع به ، فعدم رؤية أصلى له حتى اسرائه من فاس المباركة ، وفى السنوات العشر الأخيرة السابقة على قدومى الى هذا الكون وحلولى محله لم يذكر عمر النوبى كثيرا ، يجهل البواعث التى تبعث به الى ذاكرته ، ولكن اذ يبرق

اسمه ، يتذكر وقفته أثناء حديث الحاج عبده ، ونظرته لحظة إمساكه بالبندقية ، وسرعان ماينساه ، يغيب عنه ، كذلك نسى عبد المقصود أفندى ، أنه كان كاتبا للفندق ، وحافظا لأوراقه ، استعاده دائما فى وضعين لاثالث لهما ، إما جالسا فى مقصوره جدرانها نصف خشبية نصف زجاجية ، أو منحنى الى الأمام يتحدث الى واقف أمام المقصورة من خلال فتحة مستطيلة ، ضيقة ، بجواره لوحة تليفونات الفندق ، صندوق بنى الألوان ، يبرز منه مفاتيح ، وسماعة معلقة خلف خزانة حديدية ضخمة ، مقبضها دائرى ، محفور عليها كتابة بارزة بحروف لاتينية ، لفتحها صرير ، فيها النقود والايصالات وأمانات النزلاء وأوراق قديمة وبقايا ثمينة نسيها النزلاء محفوظة حتى لحظة قد تجيء يسأل فيها صاحب حاجة عن حاجته ، فى الخزانة أيضا أسرار منسية وأخرى لايعلمها الا هو ، أنه يحول المكالمات الى الغرف ، كما يحسب ويدون الطلبات التى ترسل من مقهى الفندق ، الشاى ، القهوة ، المياه الغازية ، كما يسجل الطعام الذى يجيء به عمر من المطاعم القريبة ، يكتب الأرقام فى دفاتر مقمسة الى جداول وخانات ، انه يستلم الخطابات من والى الفندق ، ومفاتيح الغرف عند انصراف النزلاء ، كما أنه يراقب الصاعدين ..فالسلم يبدأ عند نهاية المقصورة كما يرد على تساؤلات الأغراب.. إنه بدين ، يرتدى حلة كاملة صيفا وشتاء يبرز تحت السترة الخارجية صديرى أفرنجى تتدلى منه سلسلة ساعة ، ينام فى حجرة صغيرة بابها قصير مجاور للمكتب مباشرة .

أرى الأب يقترب منه يوما ، مامن أحد يقف قريبا أو يمكنه الاصغاء ، ينحنى الأب انحناء من ينوى السؤال ، وللسؤال ذلة أيا كان موقف السائل ، إنه يطلب خمسة قروش ، هذا يوم من أيام الضنك ، لاأدرى موقعه أو علامة تحدده ، عبد المقصود أقرضه مرات ، يدعو له «ربنا يقويك ياأحمد ويقدرك على تربية الأولاد» ، يعود الى صمته ، الى مراقبة السلم ، لم يره أصلى الا جالسا ، لحظة انتقاله الى غرفة النوم الضيقة لم يشهدها أبدا ، كما أنه لم يره خارج الفندق أبدا ، وكان يثق بشكل ما ولسبب ما أن الرجل ينام مرتديا حلته كاملة .

أرى الفندق من جهات شتى ، المبنى من الخارج ، شرفاته ، نوافذه المستطيلة أراه من الداخل ، أمشى فى ممر طويل على جانبيه غرف ، هاهوذا أصلى يصحب أباه لزيارة شيخ من البلدة ، جاء الى هنا بعد عملية جراحية فى قصر العينى ليتبرك بقرب الحبيب وليتم الشفاء ، المح مدخل المطبعة ، رجلا قصيرا أكرت الشعر يدخلها ، أرى صناديق مليئة بزجاجات المياة الغازية الفارغة ، المواسير السوداء ملتصقة بخلفية المبنى .

أرى الأسرة كلها مصطفة كأن الجدران التى تفصلها قد زالت ، يتعاقب القوم عليها ، كل من أغفى ، أو نام ، أو دهمه كابوس مروع ، كل من حملق الى السقف المرتفع المطلى بالقدم ، كل من نكح أو نكحت أو نكح داخل هذه الغرف،الطلاء يتجدد ، يغمق ، يتسخ ، يتقشر ، يتساقط ، الشروخ تتسع يوما بعد الآخر .

أرى التبدل ، التغير عبر سنوات شتى ، أما جلسة عبد الرسول الهندى فلازمت الموضع عينه ، حتى قدماه لم تطأ الا المواضع التى اعتاد وَطْأَهَا عند مشيه ، إنه أسمر ، ناعم الشعر ، يميل الى بدانة ، مستدير الوجه ، بارز الوجنتين ، صديرى أفرنجى فوق قميص ، بنطلون بنى ، صندل غريب يبدو أنه من جلد حيوان مجهول غير مألوف فى هذه البلاد ، نظارة معدنية الاطار ، على وجهه طيف ابتسامة لايغيب أبدا أثناء حديثه أو صمته ، إنه نزيل قديم ، لايدرى أحد مقدار المدة التى قضاها فى الفندق ، لم يبدل غرفته ، وعندما أجروا اصلاحات منذ سنوات وتقرر اغلاق المبنى والتوقف عن استقبال النزلاء لمدة أسبوعين ، رجا الحاج عبده أن يأوى مع عمر فى الطابق الأول ، استجاب الحاج له ولم يناقش الأمر ، ماعرف عنه انتماؤه لطائفه تعيش فى الهند ، يعتبر أفرادها أنفسهم من سلالة السيدة فاطمة والدة الحسن والحسين عليهما السلام ، يحولون اليه مبالغ على فترات متباعدة يعرف الجميع موعد وصول الحوالة عند ذهابه باتجاه الموسكى حيث فرع البنك ، لايدرى أحد مايقوم به ، أو سر بقائه ، لكنه يقضى وقته كله على مرأى من الجميع ، جالسا فوق مقعد من الحديد قرب مدخل

الفندق ، يقرأ كتبا باللغة الأردية ، يتحدث العربية بلغة تثير فضول أصلى ، أحيانا يقعد بين الزبائن ، يحتدم الحوار ، لايتوجه اليه انسان بكلمة ، ينسى وجوده تماما ، لايدرى به انسان ، حضوره كالظل العابر ، اذ ينصرف أو يتململ أو يبدل وضع جلسته لايلحظ أحد ، غير أنه أحيانا يصمت المتناقشون ، أو تبدأ هذه اللحظات التى تتخلل الحوارات ، عندئذ ينتبه الكل اليه . يبرز حضوره فجأة مدببا ، ثقيلا ، فيتوجسون منه خيفة ، يبدأ انصرافهم .

أرى الأب يجلس الى جوار عبد الرسول عند مدخل الفندق ، يتحاوران ، يتهامسان أحيانا ، تتعاقب التعبيرات على وجه أبى ، يبسط يده أحيانا ، أو يشير بأصبعه الى الجهات ، ينظر اليه عبد الرسول بود ، مرات عديدة صاح الحاج عبده مداعبا : ماذا يقول لك وماذا تقول له ياأحمد ؟. يضحك أبى ضحكة خاصة مؤداها ومعناها أنه لن يفضى ولن يجيب ، «حقا .. ماذا يقولان ؟» .

أهم بالاقتراب لكنهما يوليان متراجعان أو ابتعد أنا ، أوقن أن مابينهما جللا ، غير أنه مامن علامة تشفى الغليل ، وهذا بين أمور شتى حيرتنى حتى زمن تقييدى هذا .

رأيت فى باحة الفندق ممن لاحصر لهم ، لم أدقق ملامحهم جيدا ، لم أعن بالاستفسار ، لم أضمر سؤال دليلى عنهم ، وجوه عديدة ذهبت عن حفظى .. إلا عبد الرسول هذا بقى فى ذكرى ، ربما يرجع هذا الى جلسته ، الى صمته ، الى حيرتى تجاه مادار بينه وبين الأب ، لكن وددت أن أسطر عنه ماأعرف ، غير أنى بلغت هذا الموضع من الكتاب ومابى طرف عنه ولا معى ذهن . ذلك أنى أجهله .

أراه فى صمته يوم قدوم هذا الفتى الجميل ، على وجنتيه وفوق شفتيه يرى فى الضوء زغب أشقر ، يقعد فى الصالون الداخلى يحدق فيه الحاج عبده ، وعمر ، وجلوس آخرين ، أما عبد الرسول فيتطلع اليه حانيا ، ودودا ، وطيف ابتسامة مشرف من بعيد ، جاء الفتى الليلة الماضية بصحبة شاب يكبره سنا ،

هيئة الشاب ومنظره لم تطمئن عبد المقصود أفندى ، يبدو أن الغريب لم تكن عنده احاطة بتقاليد الفندق القديم ، استفسر عبد المقصود أفندى عن الفتى ، عن درجة قرابته ، أهو شقيقه ؟ ابن اخته أو اخوه ؟ أى قرابة تربطهما ؟، لما أبدى اضطرابا نظر عبد المقصود الى الفتى ، أمره أن يجلس فى الصالون الداخلى ، أن ينتظر .. أطاع الولد ، مضى الى الأريكة الرئيسية .

عندما رآه عبد الرسول يقترب منه وقع أمر محير ، اذ اضطرب حاله فجأة ، وصار وجهه فى لون الليمونة الجافة ، ثم تداخلت أعضاؤه ، وبقى قابعا ينظر ولم يدر أحد سبب ذلك ، أما الشاب فبدا مرتبكا ، حريصا على تخليص نفسه أكثر من حرصه الدفاع عن الفتى ، زعق عبد المقصود لاعنا أولئك الذين يريدون تلويث الفندق حسن السمعة ، القريب من الضريح الطاهر ، فليقل لهم من يعلم أن هذا المبنى كان مقر الوجهاء ، ومشايخ البلاد وفرسانها ، وأن التاجر الذى كان يريد أن يعلن عن متانة أحواله كان يقول بفم مليان ، أنا أنزل بالكلوب ، وأن العروس التى يتباهى بها أهلها كانوا يشترطون على عريسها أن يقضى شهر العسل أو جزءا منه فى الكلوب ، ماذا جرى ؟ أى زمن أغبر هذا ؟ من أى مصيبة جاء مثل هؤلاء ؟، أمثالهم لاينفع معهم الا البوليس . استدار الى لوحة التليفونات ، لكنه عندما عاد لينظر الى الشاب لم يجده أمامه ، اختفى .

أسمع الحاج عبده يقول إن الفتى هارب من اسرته ، وأنه جاء من الجنوب ، وأن الشاب اصطاده وغواه ، وكان سيفسده لولا أن عبد المقصود أفندى تدارك الأمر ، أرقب العيون المحدقة ، يتخيلون ماكان سيصير اليه الولد الآن لو أنه صعد الى الغرفة ، ربما اشتهاه أحدهم سرا ، أما عبد الرسول فانسحب مضطربا ، لم يره أحد عند انصرافه الأخير ، عبد المقصود طمأن الحاج عبده أن حسابه مدفوع حتى نهاية العام ، وأنه لم يستدن من أحد ، أما حاجاته فمحفوظة فى الخزانة الحديدية حتى يعود أو يظهر من يمت له بصلة ، لماذا اختفى عبد الرسول بعد ظهور الفتى ؟ لم يعرف أحد ، لماذا غافلهم الفتى واختفى ؟ ، أسمع الأب يقول : إنه غافل الناس ومضى ، ثم يقول محدثا الأم : الولد يبدو فاسدا بطبعه ، تقول أمى : ربنا يستر على أولادنا وأولاد الناس الطيبين .

تلك الوجوه عديدة ، تتابع ، بعضها يتمهل ، بعضها يمرق ، تختلط الملامح ، تذوب فى غسق خريفى ، تتبدل وجوه أخرى ، تطوف الضريح القاهرى للحسين الشهيد ، رجل ينحنى مقبلا العتبة الرخامية المؤدية ، آخر يلثم نحاس المقصورة المتشابك ، عجوز ترجو طلة من الحبيب ، أخرى تنوح بالنظر الصامت ، طفل يروم شم العبير الخفى ، ونشال يسعى فى الزحام الى مايمتلكه الخلق ، تطوف الدنيا بمن فيها حول الضريح والمثوى ، فانصف ياسيد شباب أهل الجنة ، ياخير الأدلة .

نخرج من الباب الجنوبى ، عقود الخرز الملون ، الطواقى ملونة ، والبخور بنى اللون ، عليه المستكة واللبان الجاوى والعصى المعلقة ، والطارات والطبول والشارات ، ومجذوب يلوح بسيف خشبى مرسلا الاشارات المبهمة ، ربما معبرا عن قصد ، أو مفصحا عن نوايا ، أو منبئا بأمور لم تلح طلائعها بعد ، أو مستغيثا من دواه لايرى ندرها الا هو ، أما الباب الأخضر فقابع تحت قاعدة المئذنة الأصلية ، مظلل ، عبق ، شق الجدار غمق لونه ، صار ملمسه صخريا ، ردت الأحجار الى حالتها الأولى ، إنه الموضع الذى حطت فيه رأس الحبيب الشهيد بعد أن طارت أربعين يوما من الموضع الذى اجتزت فيه الى مصر المحروسة . وهذه واقعة شغلت أصلى زمنا .

أجهد الخيال فى تصور أم الغلام الفقيرة التى افتدت الرأس الشريف برأس ابنها ، وقد أشار الى هذه الواقعة فى قصة عنوانها «أيام الرعب» تضمنها كتابه الأول «أوراق شاب عاش منذ ألف عام» . فمن أراد الاستزادة عليه مطالعتها هناك ، فخطتنا هنا الاختصار فى التقييد قدر الطاقة .

أرى أصلى يمر بصحبة أمه وابيه وأخيه أمام الماريشال على ، معروف ، أمره ذائع فى الناحية ، تناقل أخباره الناس ، بادله أصلى التحية مرارا ، تلك دكة مرتفعة مفروشة بسجادة من بخارى، لونها أحمر ياقوتى ، يرتدى حلة عسكرية تمت الى جيش مجهول ، على جانبى كتفيه رمانتان حريريتان ، أما صديريته فمثقلة بالأوسمة والنياشين وأغطية زجاجات مياه غازية وخمور ، يتدلى من حزامه سيف فى غمد

جلدى محلى بنقوش عربية من جانب ، أما الجانب الآخر فكتب عليه «سيف الله الغالب ، على بن أبى طالب» . حذاؤه جلدى طويل ، يبرز منه مهمازان من حديد ، ينتفض واقفا ، مشدودا ، يرد التحية بأحسن منها ، يغطى رأسه بطاقية من فرو عليها شارات وعلامات .. قيل إنها تخص قائدا كبيرا بالجيش الأفغانى القديم .

فيما بعد أصغى جمال الى من يقارن بين الماريشال على ويشبه الجلف الجافى ـــ لعنه الله ـــ به ، غير أنه استنكر ذلك واستكبر ، عارض القائلين ، جمال رأى الجلف عن قرب ، فى احتفالات عديدة ، فى المراحل الأخيرة لمناورات الجند ، اذ رافق المقاتلين سنين عددا من عمره ، ودون أخبار ذلك فى صفحات شتى ، ولهذا موضعه الآتى لكن فى غير هذا السفر .

أقول إن الجلف كان مغرما بتزيين حلته العسكرية ، وأضاف الى نفسه مالايحق له ، فارتدى وشاح القضاء الأخضر ، علق الأنواط والأوسمة أبدى التكلف ، تصنع الهيبة ، سخر الخلق منه ، تندروا عليه ، لم يقتنع أحدا أبدا ، مع أنه قصد بث الهيبة وترسيخ المكانة .

قال جمال ـــ أصلى ـــ أن الماريشال كان من مباهج صبانا ، أما الجلف فلم يكن الا كابوسا .. مدعيا .. كاذبا .. جلابا لكل سوء . ربما كان لدى الماريشال أمور جمة لم يفصح عنها ، حسبى ذلك وكفى .

انى عائد الى حارة الوطاويط ، أتجاوز المنحنى ، أرى الرجل الضرير ، مدكوك البدن ، يرتدى جلبابا تحته جلباب ، لايبدل .. لايغير فى الصيف ، رقبته قصيرة ، رأسه مستدير ، شعره قصير أما عيناه فمظلمتان ، متجهتان دائما الى أعلى ، يداه تريان ، تتفحصان ، تحددان المعالم ، لم يدل مخلوق باسمه ، لم يتناول طعامه أبدا على مرأى من أحد .

الشيخ دياب الصعيدى تاجر الورق أخبر عنه فقال : إنه كان مقيما فى بلد قصى بالريف ، عندما جاءه الهاتف يوما ، أمره بالنهوض لتوه .. بالمضى الى

سيدنا الحسين ، ألا يعمل الا بصناعة المفاتيح ، فلما حاروا اضطرب وردد بينه وبين نفسه ، خلقتهم مبصرين ، وخلقتنى ضريرا ، كرر الهاتف أمره فقام من ساعته قاصدا الضريح ، ولزم هذه الحارة الهادئة ، حيث لاتمر عجلات أو دواب ، ولاتنأى عن المثوى والمرقد ، بجواره صندوق من حديد ، حوله سلاسل تنتظم بها عشرات المفاتيح ، مفاتيح حقائب صغيرة ، أبواب ، مفاتيح ضخمة لأقفال لم يعد لها وجود ، أخرى تمت الى عصور بعيدة ، مفاتيح دقيقة ، صغيرة لعلب حلى أو ماشابه ، إنه غليظ اليدين حتى ليظن الرائى أن بهما ورما ، يمسك المفتاح المطلوب صنع مثيل له ، يتحسس انحناءاته ، استداراته ، أسنان المفتاح تذكره بالمفاتيح المنتظمة حول الحلقة ، فاذا تضمنت ماشابه أمسك الحلقة ، هزها مرتين ويسحب المفتاح المماثل بدون عناء أو حيرة . أما اذا لم يكن لدية فتبدأ يداه العمل ، لايغير من وضعه ، لايغير اتجاه عينيه الى أعلى ، يصف أمامه مبارد شتى ، مبرد نحيل ، آخر عريض ، ثالث كالابرة ، يتناول كلا بترتيب ، فى دقائق يفرغ ! .

قال الشيخ دياب إنه معمر ، أدرك هوجة عرابى وأن منظره لايوحى أبدا بحقيقة عمره ، يحفظ القرآن ، ويتقن القراءات السبع ، صوته يسمع عند باب النصر اذا رتل القرآن عند الفجر ، وتلك مسافة نائية ، لكن لأمر غير معروف كف ، لايبتسم ، غير أنه رئى مرتين يبكى ، ينهمر الدمع من فجوتى عينيه الخربتين ، وكان ذلك اثر زيارتين لرجل هندى يقيم فى فندق الكلوب ، ولم يعرف أحد ماجرى بينهما .

يتجلى دليلى هنا .

«ولن تعرف أنت ..»

أقول :

«لماذا يامن تغيب عنى ..»؟

يخبرنى :

«ليس كل مايراه المرء يدركه ..»

ثم يقول :

«اعلم أن الجهة الجنوبية عزيزة ، غالية ، فيها ولد أصلك ، واليها رحل لكن لاتظن أنك باق فيها أبدا ..»

يأمرنى :

«إمض الى الجهة الشرقية»

أرجوه :

«انى مصغ ، مطيع ، لكن اسمح لى بطلة .. وتدوين قصير ..»

يقول :

«إذن .. إسرع وأوجز ..»

أبدأ بالطلة ، فأقول ان هذه الجهة عندى هى المؤدية ، فلكى يخرج الأب الى عمله يتجه اليها ، ولكى يتم الذهاب من الضيق أى الحارة الى السعة حيث الميدان فلابد من سلوكها ، إنها جهة الذهاب ، منها يكون الرواح ، المجىء منها أيضا ، لكنها ارتبطت عند أصلى بالسعى ، بالشروع ، بالاقلاع .

أرى ظلال أبى فى شارع المشهد الحسينى ، عند سفره ، عند عودته مصطحبا جدتى أو خالى بعد وصولهما من البلدة ، عند خروجه لتدبير قروش قليلة ليتم بها القوت ، أرى ظلال خروج الأم ، تصحب الأب لزيارة ضريح الحبيب أو تتوجه الى مثوى شقيقته السيدة زينب ، أو السيدة نفيسة ، سيدى زين العابدين ، ذلك هو الوقت الذى تبدل فيه واقعها اليومى وتشم الهواء ، وتعطر أنفها وروحها بعبق الأولياء وآل البيت الكرام ، أراها عند خروجها لزيارة أقارب يسكنون قرب القلعة أو مصر القديمة ، أرى ظلالها ، تسعى بمفردها بعد أن عرفت المسالك والدروب ، وانتفت عنها الخشية ، تعبر الميدان فشارع الأزهر حتى مدخل الباطنية لتشترى من جزار يبيع اللحم بسعر أقل ، أما الخضر فتأتى بها من بائعة جنوبية تقعد فى حارة أم الغلام ، تتعاطف معها وتحن عليها لسبب غامض ، ربما قرب الشبه بينها وبين والدتها النائية عنها .

أرى ظلال عودتها عبر هذه الجهة ، لسعيها جوهر عابر خلف آثار لايمكن للرائى إدراكها أبعد خلو كون المحسوسات منها ، بعد تمامها مضت شقيقتى نوال بصحبة على أخى لزيارة الحسين ، ثم شقا هذه الجهة ، من ضريح الحبيب ، وحتى ميدان باب الشعرية ، كل موضع هنا له عندهما معنى وترجيح ، عادت نوال لتقول : كل من عرفناهم مازالوا يعيشون ، فلماذا أبى وأمى ؟! ، أصغيت ولم أقدر على رد الجواب أو التعليق ، كما أنى لم أستطع الادلاء بشىء عن هذه الظلال الساعية المتبقية ، فما من ظل الا وله صدى ، لكنها أمور الى الادراك الخفى أقرب ، فلا حواس تطالها ، وفوق كل ذى علم عليم .

أرى صدى عودتها بعد زيارة الطبيب وأصلى بصحبتها ، تمشى هادئة ، مصغية غير جزعة الى ماجرت به المقادير ، أما أصلى فمهموم مرتجف خوفا من احتمال ثبوت الداء الخبيث .

هاهوذا يعود مبتهجا ، على وجهه علامات البشرى ، أرى ظلال سعيها وجهادها ، الى عيادات الأطباء تصحب عليا الأصغر ، الى المثوى الطاهر لترفع دعاء بفك أسر جمال بعد بدء سجنه وتقييد حريته ، لعن الله الظالمين .

هذه فترة مغايرة ، خروجه من المدرسة ، فسحة مقدارها نصف ساعة ، كان الميدان أقصى حدود العالم عنده ، ثم امتد حتى أرصفة الأزهر ، وعبر الكتب القديمة تمدد كونه ، توالدت مجراته ، واتسعت الأصقاع ، يمسك كتابا لاغلاف له فيقرأ ، رواية يجهل مؤلفها ، يلتهم الصفحة اثر الصفحة ، خرج بمفرده أكثر مما ينبغى ، فالأخطار محدقة ، بلا حصر .

تلك ظلاله عند عبوره الميدان الى الترام ، الى العباسية ، ثلاث سنوات يدرس المنمنمات وفن نسج الأبسطة ، كم زمنا استغرقه عبوره تلك الجهات مرارا ، كم عدد الخطى ، كم تنوع الخواطر والصور ، كل خطوة فى عمره ترددت أصداؤها عنده أثناء عبوره تلك الجهة ، انتقاله من مهنة الى مهنة ، من طور الى طور ، اكتسابه المعرفة ، عودته بالنبأ اليقين ، بالشك .. كم تغير حاله لرؤية محبوبة ، وكم

انتشى لمواتاة فكرة ، وكم توهجت اشراقة، مباغته ، مفاجئة ، كذا كل من ارتبط به ، من ذوى قرابة أو صحبة .

فيا تلك الجهة التى منك البدء .. وياهذا الطريق الذى انطبعت موجوداتك ، مايحف بجانبيك ، ومايسعى فوقك ، فى أحداق الأحبة وياهذه الأرض التى لم تتغير ؟ ولم تتبدل .. أين راحت هذه الظلال الكوائف ؟ ومن يدرك سعى الأحبة وخواطرهم ، تلك التى ولت وانمحت ، وتلك التى توارت ، وتلك التى أقامت .

يأمرنى دليلى :

«عجل فالوقت محدود ..»
أبدأ على الفور تدوينى ، وأن لم أرتو من الطلعة ..

«تلك وجوه رأيتها ، وبعضها رآنى ، كل منها أودع عندى أثرا ، بعضها أدركت أصحابها وعرفتهم ، والآخر أجهله ، ولما كان الانسان نسخة جامعة ، لذا كان عندى منها مقدار ونسبة ، فاذا قدر لى رؤية كل منها متفردة ، فسأقول : أنا معك بكليتى ، ليس عندى غيرك ، وانى لصادق ، فان من أثر فيك ومر بك فانه يعطيك من الأسرار والخواص بعضا مما عنده ، لذا كان اهتمامى ، وهذا يسرى على من جرى لقاؤهم صدفة ، فما البال بمن عايشناهم وكانوا الينا أقرب من حبل الوريد ؟»

الجهة الشرقية

«ولكل وجهة هو مولّيها»

قرآن كريم

.. الشرق مطلق ، والغرب مطلق ، أما الجنوب والشمال فنسبيان . نقول الشرق لطلوع الشمس منه ، كذا الغرب لغيابها عنده ، أما ماهو جنوبى عندى قد يكون شماليا عند غيرى .

للشرق الطلوع ، ومسرى الدفء ، والانتظار ، تلد الشمس منها والى دنيانا تجيء كل يوم ، عندها يلوح الطريق الى الأدنى ، والطريق الى الأعلى ، الى المكانة الزلفى ، الى المستوى الأزهى ، الى الذروة الأسمى ، الى حيث الأشياء التى لاتقال ، ولا يصرح بادراكها بشر ، اليها وليت وجهى .

هكذا أدرت ظهرى لفراغ السطح ، واستقبلت الأفق الممتد حيث تلوح تلال المقطم ، والمآذن مجهولة الهوية عندى ، والقباب المتباعدة وأبراج الحمام ، والسطح المجاور ، الحق انهما سطحان : الأول منخفض ، والآخر فى نفس المستوى ، المنخفض بيت محمود اللبان ، أسرة كل أبنائها بيض البشرة ، مستديرو الوجوه ثقيلو الأوزان ، أطوالهم متساوية ، أشهرهم فتى أخرس ، كان يطل من نافذة البيت المفتوحة ، المطلة على حارة الطبلاوى ويطلق زعقات غير مفهومة ، النساء يتطلعن اليه عابثات ، ملوحات بأيديهن ، ولأنه لايمكنه النزول الى الحارة .. فمدخل البيت من ناحية قصر الشوق ، لذا تجرأ عليه الصبية ، نادوه بقبيح الألفاظ ، لوحوا له بفاحش الحركات ، جاوبهم بمثلها وبصرخات متتابعة تتزايد حتى تشبه العواء ، عندئذ يدرك الصغار خوفا غامضا فيختبئون بعيدا ، ثم ينقطع حسهم من الطريق .

يعود الى صمته ، تبقى اطلالته الثقيلة مهيمنة ، غامضة . ان الليل يعقب النهار ، والعتمة تذيب ملامح الجهة الشرقية ، غير أننى أبصر فأرى ، هؤلاء رجال

سمر الوجوه ، كلوبات ضخمة للاضاءة ، أوعية نحاسية ، ينشطون ، يقطعون كميات كبيرة من البصل ، ذبائح كاملة ، مرق حمرته داكنة تصل رائحته الى أنفى ، أصابع كفته ضخمة وحلوى مستديرة ، بيضاء تترجرج عند حملها ، تقول الأم : الماظية ، تلتفت الى ، تطلب منى الدخول ، شفقة علىّ من رؤية طعام لاقبل لنا به ، إنه عرس ، عرس من ؟ لاأدرى ، لكنه من الأفراح التى تحدث الناس عنها زمنا طويلا ، هذا ماقاله الأب ، غير أنه قال أين هذا من الفرح الذى أقامته عائلة صبح منذ خمسة عشر عاما ، غنى عبد الوهاب ثلاث ليال ، وبقيت الموائد منصوبة أسبوعا تقدم الطعام لكل عابر أو غريب أو زائر .

أرى فتاة سمراء ، طويلة ، واسعة العينين ، ترتدى جلبابا منقوشا بورود كبيرة ، لم يكن أصلى على ثقة من اسمها ، لكنه لسبب ماايقن أنها فاطمة ، غير أنه كان يرهب مظهرها ، كان يخشاها ، وكلما ظهرت فوق السطح المجاور تراجع حتى يختفى عن نظرها ، سمع الأم تقول مرة ــ واياها تعنى ــ مسكينة .. حظها وحش ، تزوجت عبده الساعاتى لكنها طلقت بعد أيام ثلاثة ، تقول الأم : يبدو أنه ليس رجلا !! لماذا كان يخاف فاطمة ؟، لايدرى ، وان حاولت من جانبى أن أعلل ، هذا السطح كان من النادر ظهور انسان فوقه ، كان بلا سور يحيطه أو يحدده ، الحركة فوقه خطر ، وزمان قيل أن لصا مشى فوقة ليلا فسقط عند الحافة ، كان جاهلا به ، ربما عد ظهور فاطمة خرقا للعادة .

مرة واحدة أرى الأم تتخطى سور السطح ، تعبر الى هذا البيت لتزور امرأة كانت تخيط لها جلبابا ، امرأة لها علاقة بفاطمة هذه ، هل عبرت الأم أم لا ؟، مامن شىء يقينى ، فالرؤى غائمة ، والذاكرة التى ورثتها وانتقلت محتوياتها عندى مثقلة ، مرهقة بما هو كثير ، ماأثق منه أن أبو غزالة جاء من هذا السطح .. تخطى السور ، وقف يتحدث الى الأب ، راح أصلى يرقبه من مسافة ، نحيل ، طويل ، رأسه مستطيل ، شفتاه غليظتان ، السفلى تبدو كأنها مقلوبة الى الخارج ، الى أسفل ، عيناه مستطيلتان أيضا، أصلع ، أضفى ذلك عليه حضورا غريبا ، لاشك أنه أثار رهبة أصلى .

جاء أبو غزالة وتحدث الى الأب حول تركيب مصباح كهربائى فى الغرفة ، وقتئذ كان متخصصا فى سرقة التيار الكهربائى من مصادره الحكومية ومن وسائل أخرى لم يفصح عنها ، يمد سلكا يجتهد فى اخفائه حتى لاتقع عليه العيون ، ينتهى فى المكان المتفق على اضاءته أو مد التيار اليه ، كانت الأم تضىء مع اقتراب الليل مصباحا غازيا ، نوره ضعيف ، مجهد للعيون ، غير أن الأب وأبو غزالة لم يتفقا ، لم يتوصلا الى سعر يرضى الطرفين ، سعر لتركيب المصباح ، وآخر لضمان استمراره يتقاضاه أول كل شهر .

عبر أبو غزالة السور عائدا من حيث أتى ، لم يظهر فوق السطح ، غير أن أصلى رآه مرات شتى عبر السنوات التالية ، رآه يعبر شارع الجمالية حاملا فوق كتفه أجولة قديمة، فارغة من الخيش ، يسعى من جهة الى جهة ، مرة أخرى رآه صباح عيد الأضحى يجول الحارات ممسكا سكينا وسيخا حديديا قصيرا ، كان ينادى معلنا استعداده لذبح الأضحية مقابل الحصول على فرائها ، ثم رآه عصر يوم يقعد مهموما عند المدخل الشمالى لضريح الإمام الشهيد ، وفى كل هذه المرات كان يتجاوز الحاضر الى هذه اللحظة المنقضية ، المندثرة ، لحظة وقوفه فوق السطح ، حواره مع الأب ، مهنته الغريبة وقتئذ ، بعد آن رآه فى التليفزيون لم تقع عيناه عليه أبدا .

حدث أن مضى أصلى للفرجة على أول قصة كتبها عند تحويلها الى تمثيلية، وكان عنوانها «أيام الرعب» وعند جلوسه للراحة فوجىء بأبى غزالة يمر أمامه ، كان يظهر لمدة ثانية أو أقل ، يعبر طريقا صغيرا ، ضيقا ، لايغير من تعابير وجهه أو نظرة عينيه ، تثير هيئته الغامضة تلك الخوف فى قلب شاب مطارد ، بعد التصوير فوجىء أصلى به يقترب منه ، يقول متوددا ، ألست أنت فلان ابن فلان ؟ فيومىء أصلى ، عندئذ رجاه أبو غزالة أن يتحدث الى المخرج حتى يستعين به فى تمثيليات أخرى ، قال شاكيا : تصور ياجمال بك أننى أجىء مرة واحدة فى الشهر مقابل جنيهين ..، ثم صمت ، واستدار مبتعدا ، لم يره بعد ذلك أبدا ، لافى حوارى الجمالية أو غيرها .

الى الشرق يقوم بيت أحمر الطلاء ، ثلاثة طوابق ، أنه بيت الدواياتى الحانوتى ، قال الأب يوما أنه من يجهز موتى قصر الشوق والكفر ، للموت خشية ، اذ تقع عيناه على البيت يحيد نظره بسرعة ، يظن أن الدواياتى يحتفظ بالموتى فى بيته ، لو كشف هذا الجدار لرأى أكداسا مخيفة ، مفزعة ، كثيرا مااستلقى الأب على ظهره فى ساعات صفوه ، يقص القصص ، يذكر النوادر والأخبار ، مما قاله عصر يوم مجهول ، إن ملاك الموت عزرائيل كان يجىء ظاهرا لمن سيقبض روحه ، وأن ظهوره يثير فزعة ورجفة ، وظل الحال على ماهو عليه حتى أسرى بأشرف الخلف أجمعين ، فرجا الخالق ـــ بين مارجا ـــ ألا يظهر ملاك الموت عزرائيل الا لمن دنا أجله لاغير ، ألا يراه المحيطون به ، فاستجاب البارى لحبيبه وصفيه . قال الأب إن عزرائيل يمر بكل بيت أو مكان فيه بشر خمس مرات يوميا ، يراجع المصائر .

أرى عروق الخشب التى تسند الأسقف فى بيت الدواياتى بارزة نهاياتها من خلال الجدران ، لذا أمكن تحديد الطوابق ، أين تبدأ ؟ أين تنتهى ؟، على الرغم من خلو الجدار الخلفى من النوافذ ، أولى وجهى بسرعة ، إننى لاأولى وجهى الا حيثما مد أصلى النظر . غير أن ماأثار حنينى من حيث أنى أصل وصورة معا ، وقفة الأم عند هذه الجهة ، اذ تفرغ من قضاء حاجة البيت ، تفرغ الى وقتها وتلج صمتها ، تنفرد بعنصر وحدتها ، تمشى بجوار السور ، يدها تلامسه أثناء الحركة ، تغطى رأسها بطرحة بيضاء ، فى الموضع عينه تتوقف ، تنظر الى الشرق البعيد ، الى الأفق الذى تجهل مافيه ، تعرف أن اتجاه قبلة الصلاة قريب من اتجاه جهينة فتحددت مشاعرها بالحنين الى البلدة ، الى أمها ، الى شقيقها الوحيد ، الى الموضع الذى غاب منه أبوها ، أما التطلع الى الجهة الشرقية فيحرك عندها أحاسيس كامنة لايمكنها تحديدها أو تعيينها .

تنظر الى البيوت المنخفضة .. الى غسيل منشور ، الى امرأة تخرج من غرفة فوق سطح ، الى طفل يومىء ، الى أطراف شجرة بازغة بين البيوت ، الى غيات الحمام . هذه الجهة مزروعة بغيات الحمام ، إنها تعرف كل غية وماتحوى

من كثافة الأسراب المنطلقة منها ، إنها تركز على غية بعينها ، قائمة على أربعة أعمدة نحيلة جدا كما تبدو من هنا .

فى لحظات معينة يحول ضوء النهار دون رؤية ملامحها ، تبدو الغية كصندوق ضخم معلق فى الفراغ ، فى العصر ترى سلما خشبيا يسند ، يبدأ شاب فى صعوده متمهلا بطيئا ، تتخلله نقلات حادة ، مع توالى الأيام تدرك أنه قعيد ، مشلول الساق ، ترق لحاله ، واذ يستوى جالسا داخل الغية يبدأ التلويح براياته الحمراء ، ان صفيرو منغم ، خص به سربه فاعتاد عليه الحمام يلبيه حتى لو نأى وابتعد ، تتابع ارتفاعه الذى يبدو لانهائيا حتى نقطة قصية ، ثم ارتداده السريع ، دوراته المفاجئة ، اقترابه من أسطح البيوت ، اختفاؤه خلف مبنى مرتفع ناحية الجبل ، يمد الشاب الراية الحمراء ملوحا ، يتصل صفيرة مناديا ، يظهر السرب مرة أخرى ، إنها ترقب اقتراب الأسراب من بعضها ، تتلامس حمامات هذا بذاك ، اذا انتقل بعضها من سرب الى سرب حق ذلك لصاحب الغية ، لاحرج ولا شكوى ، أو عتب ، تدعو الأم الا ينقص طائر واحد من طيور هذا الشاب المقعد الذى تشفق عليه عبر الفراغات الفاصلة ، ترق لحاله من بعيد ، اذ يقترب المغيب وينزل رداء رقيق من ضوء رمادى مضفيا على زرقة السماء فراغا غير مرئى ولا نهائية موحشة تنبىء بالليل القادم ، هنا يدركها شجى ، تفتقد الأسراب المحومة ، تهمس :

«مع السلامة ياحمام الغيّة ، أشوفك تانى ..»

تتداعى اليها يمامة الظهيرة التى تجيئها عند انفرادها بحالها ، وهذه حمامة ادركها أصلى ، وأثارت عنده الكوامن ، وقد جرى ذلك فى مقام الحزن ، ودون بلسان أصلى ، له الرجعى ، ولى العودة الى ماكنت عليه ، فالزمن ليس زمنى ، والموجودات لاتخصنى ، والصحب غير صحبى ، الغربة محيطة والوحدة جاثمة ، الا أنى لاأخفى ميلا بدأ عندى ، ميل يخصنى تجاه أم أصلى كذا أبيه ، يمكننى تحديد لحظة بدئه ، تجاه الأب ، إنها لحظة من لحظات عودته الى البيت ، يحمل قرطاسا

فيه طعام ، وأرغفة خبز ، رأيت فى خطوه ، ملامحه ، حدود هيئته ، الأب ، الأب الذى يسعى ، أما ميلى تجاه الأم فبدأ مع وقفتها هذه متطلعة الى الجهة الشرقية .

تمكن منى فيض عينيها من حنين وتوق وقدرة على مغالبة الظروف ومعان لايسعنى الافصاح عنها لأنها من المجردات لذا .. لاتقال ، لو قيلت لدخلت فى المواد كما سبق ان صرحت .

فيامن تنظر أو تتطلع أو تولى وجهك الى جهة مشرق الشمس ، حد الطلوع ومنبته ، يامن يقدر لك الوقوف عند هذه النقطة المادية التى مصيرها الى زوال ، ليتك تدرك معنى وديمومة وعمق ورقة وحنو هذه الطلات الأمومية التى حركت عندى الميل ، وأينعت أحاسيس البنوة لهذه الأم ، وأن لم تبدد غربتى ، ليتك .. غيرك أيها الناظر لن تقف أبدا على هذا المعنى الحنون من تلك الحدقتين السمحتين الانسانيتين ، لم تفيضا بكراهية مخلوق ، أقول هذا عن ثقة تملأ قلبى .

هاتان عينان ولتا الى مجهول ، انطفأتا ، انقضتا ، قفلت صاحبتهما عن الحياة الدنيا ، موقن أنا أنه لن يعرفها أحد ، أن مصيرها الى محو أتم عند من خرجوا من رحمها ، فالأحفاد أنى لهم أن يدركوا هذه الطلة الغروبية وماحوت أو تلك الخفقة القلبية لحظة ظهور يمام الظهيرة ، أو هذه القعدة التى أفضت عندها .

الحق أن أم أصلى هذه كانت بداية صلحى مع العالم الأرضى الذى جئته غصبا ، محكوما بقدر مسبق لن أتعجل ، يقول الخالق البارىء : «ولاتقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله» أما الآن فاننى أمعن النظر الى الشرق ، أرى مطلع الشمس ، وظلال القبور عند سفح الجبل ، وأضرحة قايتباى وبرقوق وبرسباى والخلفاء ، فسبحان من جمع بين الموت والميلاد فى جهة واحدة .

صحراء قايتباى عند أصلى فى سنينه الأولى تعنى الأبدية ، حافة المعمور ، الرمال ، الوحشة ، قبور الراحلين وخلايا الدراويش ، لكم حملق الى المئذنة النحيلة

الرشيقة كأنثى ، الضاربة فى الفراغ بهلال يعلو جوسقا دائريا ، يتساءل : ماذا هناك ؟ ماذا فى قايتباى ؟ .

عصر يوم بعيد صحب الأب جمال وشقيقه اسماعيل ، إنه احتفال رسمى بالمولد النبوى ، فى صحراء الدراسة تقيم كل وزارة سرادقا كبيرا ، مهيبا ، إنه سرادق وزارة الزراعة ، مقاعد مذهبة ، مقاعد من الخيزران ، مقاعد مرتفعة تتصدر الواجهة ، مذهبة ، مكسوة بقطيفة خضراء .

عند المدخل أوعية ضخمة من نحاس ، حولها طاسات ، رجال سود يرتدون قفاطين بيضاء ، حول خصورهم أحزمة عريضة خضراء ، يقدمون عصير الليمون للوافدين ، نصغى الى التلاوة خاشعين ، نتطلع مبهورين الى عربة مطهمة تجرها خيول ستة ، لقد وصل عظيم ، أرى دخانا يتصاعد عصر كل يوم ، كثيفا ، سائلا ، يبقى لحظات عالقا ثم يتبدد . أرى طائرة منخفضة تجىء من الشرق الى الغرب ، عند حد معين فوق صحراء العباسية تزرع خلفها على خط مستقيم نتفا صغيرة ، تنتفخ أثناء نزولها حتى يكتمل تفتحها ، تغيب بعد لحظات ، استفسر أصلى ، ممن ؟ لاأدرى ، لكنه علم أنهم جنود مظلات .

هنا تجلى لى ابن عبد الناصر ، كان مبتسما ، ودودا ، شرعت فى عناقه غير أنى أحجمت ، نظر الىّ ، عرفت أن هذه اللحظة بالذات شهدها هو ، رأيتها أنا من فوق السطح ، ورآها هو من فوق منصة خشبية أرضية ، إنها الدفعة الأولى من جنود جدد ، قوة جديدة قدر لأصلى بعد سنوات عديدة أن يصحب فصيلا منهم ، أن يطير معهم صوب منطقة من سماء الصحراء الغربية ، ان يرى لحظة فتح الباب الخلفى للطائرة ، واختفاء الجند واحدا اثر الآخر فى الفراغ المعتم ، مما أدهشنى أن هذه اللحظة لم ترد على ذهن أصلى عند صعوده الطائرة مع الرجال أو عند بدء تحليقها ، فما أعجب ذلك ! .

حدث صاحبه الشهيد يوما فقال : بعد قفزى بالمظلة أول مرة ، واثر نزولى الى شوارع المدينة مشيت واثقا ، وعندى رغبة المجاهرة بما قمت به ، وعندى ثقة

لاحد لها ، أرى صدر الشهيد سليما لم يمسه أذى ، أتته الشظية من خلف ، نفذت الى القلب عبر الضلوع من الظهر ، أمضى ، أطوى مسافات متداخلة ، يلوح لى هذا الملعب ، وتلك المناسبة ، افتتاح نادى الجمالية الرياضى ، ساحة مفروشة بالرمال ، خطوط بالجير تحدد وتؤطر ، مدرجات تزدحم بالخلق ، بالونات مثبتة الى الأرض ، منصة بعيدة عن موضعنا ، محاطة بقماش السرادقات ، لافتات معلقة لايمكننى قراءة العبارات ، المدى بعيد غير أنى أرى ضباطا يصلون فيدوى تصفيقى ، وترتفع هتافات ، ابن عبد الناصر يتوسط الداخلين ، يقول أحد الجالسين بجوارى :

«سيزرعون تلال الدراسة أشجارا ..»

أستعيد وقفة روحية جارتنا اذ تتابع طائرات محلقة ظهر الثالث والعشرين من يوليو ، تقول :

«الجيش سيرخص الأسعار ، ويجعل ركوب الترام بالمجان ! ..»

يعدو الفرسان من أول الملعب الى آخره ، يميلون بأجسادهم حتى أظن أنهم على وشك السقوط ، يفرقعون البالونات المثبتة الى الأرض ، يقف ابن عبد الناصر ، يعلو صوته ، انه طويل ، باسق ، أسمعه يتحدث لكن من زمن آخر ، ليس من هذه المناسبة ، إنما من لحظات شتى ، متباعدة ، متفرقة ، الوقفة فى مكان ، والصوت آت من زمان مغاير ، فصل لى بين مالاينفصل ، فما أجل ذلك ، يغمرنى انفعال وتأخذنى رعدات ، أين دليلى ومرشدى ، إنما أنا فى حاجة الى شرح وتفصيل ، أين ابن عبد الناصر الذى تجلى لى منذ لحظات هينة ، لم يجبنى مرشدى ، إنما بدأ تردد واهن بعيد يتلو فى مسامعى شعرا نظمه ابن جاهين الشاعر ، فأصغيت :

وقف الشريط فى وضع ثابت
دلوقت نقدر نفحص المنظر
مفـــيش ولاتفصيلـــة غابت

وكل شىء بيقـول ويـعبر
من غير كلام ولا صوت
أول ماضغـط الموت
بخفة وجبروت فى يوم ؟
على زر فى الملكـوت
وقف الشريط فى وضع ثابت

★ ★ ★

دلوقت نقدر نفحص الصورة
أنظر تلاقى الرايـة منشورة
متمزعـة لكـن مازالت فوق
بتصارع الريح اللى مسعورة
وانظـر تلاقى جمال
رافعهـا باستـبسال
ونزيف عرق سيال على القورة
وف عنفوان الـنضال
وقف الشريط فى وضع ثابت

★ ★ ★

لم أرتو ، لم أهدأ ، فزادنى ..

وحشتنا نظرة عيونك للبلد ياجمال
والحزم والعزم فيها وحبها المكنون
وحشتنا عبسة جبينك وانت بتفكر
ونبرتك وانت بتعلمنا وتـفسر
بسمة الود لما تواجه الملايين
وقبضة اليد لما تدق ع المنبر

★ ★ ★

قبضتى أنا تدق ، يدى تلوح ، إنه يتكلم محتدا ، بينما ملامحى أنا هى التى تعبر ، تصفيق يقاطعه بين حين وحين ، ورجل يرتدى جلبابا أبيض وطاقية بيضاء يقف قريبا ، لأأسمع مايقول ، فنظرى محدق بلحظة مغايرة حط عندها رحله ، أتزود بمعارف شتى ، تلك مكتبة ضخمة ، جدرانها مرتفعة مغطاة بالكتب ، مجلدات مختلفة أشكالها وأحجامها ، أصلى يقف فى القاعة الفسيحة وحيدا ، يقلب صحفا عتيقة ، يتوقف عند عنوان رئيسى مأخوذ عن خطاب ألقاه ابن عبد الناصر فى افتتاح نادى الجمالية الرياضى ، إنه يتمعن ، يدقق ، يحاول استعادة الملامح والمعانى ، يحدق فى صور الاحتفال ، المدرجات المزدحمة ، لاتبدو الملامح فيها ، سمتى هنا ، ملامح الوالد واسماعيل منبثة ، غير أنها مندغمة ، تائهة فى المنظر .

عند هذا الحد شعرت بظلى على مقربة منى ، تجاه الحد الشرقى ، تلاشت جدران المكتبة وتبددت المجلدات ، هاهوذا ابن عبد الناصر ، اتطلع اليه وأنا مليم ، كمن اشتاق زمنا لرؤية من أحب ، حتى اذا لقيه أمامه فجأة بدون تمهيد ، لزم السكينة ، نزل عليه صمت ، أخفى أثار الشوق .

تعلم أصلى من أمه ألا يظهر عواطفه ، ألا يبوح بها سهلة ، كلما بعدت البذرة فى عمق التربة ، ازدادت متانة الجذع ، وندرت الثمرة ، غير أننى لم أسكت عن شجى وتأثر ، إنما لعتاب أيضا أضمرته فى قرارتى ، ألم يسجن أصلى فى زمنه ؟، ألم يوقع قرار فصله بنفسه ، ولم يكن وقتئذ الا موظفا صغيرا ، وعندما أطلع الوالد الكريم على امضائه غشى عليه ، أيقن أن جرم ولده شنيع ، ثم .. من أين له بتوقيع مماثل يعيده الى مصدر رزقه ؟.

أتطلع اليه :

«أنظر .. من ذرف الدمع عليك ، انظر .. من حفظ عهدك ؟» .

يقول متأسيا :

«لم تخل النية من فتق ، وكان الرتق عين الفتق ..»
لايكف :
«من بددت شملهم ، عانوا من أجلك ماعانوا بعدك ..»
يقول :
«الرضا بالحال عين الموت»

لاح عنده غم ، لم أعبأ ، إنما تأهبت كى أواصل بينما يميل بوجهه الى ، تلك فترة طالما استعادها أصلى بعد غيبته ، وهنا ، فى هذه اللحظة التى يصعب تعيينها أوتيت من حيث لاأدرى بكتاب قيل لى أن الراحل ابن عبد الناصر ألفه فى البرزخ الأبدى بعد غيابه النهائى عن العيون ، وأن فى هذا الكتاب شرحا وتفصيلا ووصية ، وتفسيرا لأمور جمة طال غموضها ، وتمادى ابهامها ، أما لغته ورموزه ومعانيه فلا يدركها الا من قطع مسافة شاسعة فى الطريق .

قيل لى : فض الكتاب واقرأه بعد فراغك مما أنت فيه ، ولاتصرح بمضمونه الا بعد إذن ، لاتسرف .. لاتفرط ، لاتبدل القول . قيل لى ، أيها النائى ، المغترب ، لاتنس ذاتك ، انتبه الى غيك ، اذ كدت تتطاول على من تعلق به أبوك وأمثاله من المستضعفين ، فى محاورتك معه غلظة ، هل تجرأت على من تجلى لك من السادة المجاهدين مثلما تجرأت عليه ؟ هل خاطبتهم بمثل ماخاطبته ؟ انتبه ولاتغفل .

قيل لى : لاتزعم انك فى الأسفار والمواقف والمقامات كنت شخصا وأنت الآن فى الأحوال شخص آخر .

قيل لى : ماأنت الا واحد . واصغ الى هذه المروية ..

قيل لى : ان رجلا حلف الايمان المغلظة ان العارف بالله الطشطوشى بات عنده ليلة كذا ، فحلف صاحب له أنه بات عنده نفس الليلة فاختلفا ، فاحتكما الى صديق ثالث ، قال لهما ، الشيخ لم يبت عندك أو عنده ، لكنه بات عندى فى هذه الليلة ، وأقسم ، فأرسلوا الى الشيخ الطشطوشى ليعرفوا

الحقيقة منه ، وليعلموا من حنث فى يمينه ؟ فقال :

«لو أن أربعة قالوا أننى بت عندهم لصدقوا كلهم ..» فما حنث واحد منهم قط» .

قيل لى : كن حشما ، اغمض ..
قيل لى : اعمل الصحبة الجميلة ، واظهر الود ..
قيل لى : الطريق وعر ، والمغارة موحشة ..
قيل لى : ماتجزع منه اليوم ، قد تأنس به غدا ..
قلت : انى معه بقلبى ، ولكن للمحاسبة أوان ..
قلت : كيف أصبر على ماأمرّ أصلى وأرسى كدوراته ..؟
قلت : من يعيد مسلوبات أصلى ، من صور وكراسات وأيام محاطة ؟.
قلت : من وأد الأحلام الكبرى ؟

قيل لى : لاتكن جهولا ، تعلم ان الظرف غلب ، وأن الأمر نفد ، وأنه واجه مالاطاقة له به ..

قلت : لو أن البنية سليمة .
قيل لى : لو أن .. تفتح عمل المساوىء فانتبه .
قيل لى : إن زمنك محيط بك ، ومن أحاط بك فقد أطبق عليك ..
قيل لى : ليس لك منفذ مع وجود الاحاطة ..

قيل لى : لاتنس أن الانسان حيثما كان مايزال صاحب فوت ، لأن الأمر لايتناهى وماتذكره عن خلقك الأول فى الفائت المستأنف ، والفائت فى الماضى ، فانه لايرجع ، اذ لو رجع لتكرر .. ومافى الوجود تكرار أصلا ، وأنت لايستعاد لك ماانقضى ، إنما تسرى سريان الماء فى الماء ، واللون فى المتلون ، فاطلع على ماأنت كائن ..

قيل لى : اعلم أنه لابد لكل مجتمع من افتراق ، ولكل دان من تناء .

قيل لى : أنت واصلك شيء واحد ، والشيء لايضاف الى نفسه ، لأن الاضافة لاتكون الا بين مضاف ومضاف اليه ، فمالك تضيق ؟، مالك تتململ ؟

قيل لى : إن العالم مربوط ببعضه البعض ، فلم تنبت سنبلة الا عن زارع وأرض ومطر . عند هذا الحد ، أشهرت المجادلة ، أبطلت الانصياع ، أبطلت المطاوعة ، فنشأ خطر ، اذ تهدد مضيى واستمرارى ، والكف سكون ، والسكون موت ، وهنا أطل على فى سماء رحيلى ، نجم هذا الوجود وسر أنسه ، بهى الطلعة ، سيد شباب الأولى والآخرة ، من أغتيل بعد ظمأ ، صاحب الولاية علىّ بحق وجودى القديم ، وبؤرة وجودى المحدث ، أطل فأملت خيرا ، وحدق عندى ففهمت أمورا جمة ليست مباحة ولاينبغى تدوينها ، مصانة فى المحظورات ، المحجوبات ، يكف فلا أكف ، يبطل الالقاء فلا أنه التلقى ، يرد على سؤاله بدون نطق :

«الى متى التوقف والرحيل مستمر ..»

أقول :

«يانور الأحبة ، يامن ظننت أن عهدى انقطع به ، ياحسينى ، من يرحل تمشى به السفينة وهو قاعد ..»

يبتسم ، يترقرق مابخاطرى وهو جليل ، يقول لى :

جهاتك أصلك ، فارحل ..»

أشير الى مطلع الشمس ، أقول :

«لم أتم بعد ..».

يهز رأسه يمينا وشمالا ، أقول :

«سمعا وطاعة ..»

أمضى مستعيذا بالله من الضلال ، أسأله الحياطة ، واطابة أخبارى !.

الجهة الشمالية

.. جئتها وأنا حيى ، خجل ، مع أن ظهور الحبيب ندانى ، غير أننى استكثرته علىّ ، والمعروف أنه لاعذاب على النفوس أعظم من الحياء حتى يود صاحبه أن لم يكن شيئا ، كما قالت الكاملة ، المكملة «ياليتنى مت قبل هذا ، وكنت نسيا منسيا» .

قال من بيده أمرى «ولكن أكثر الناس لايعلمون» ، وأننى لأحمده وأسبح بفضله اذ جعلنى من أدنى القليلين الذين يعلمون .. هذا فى قديمى ، وأبدى العذر اذ أقول : أننى حتى لحظة استقبالى هذه الجهة لم أتوحد ، لم أصبح أنا هو . فجمال الذى جئت بديلا له عنده خلجات أجهلها وأحاسيس لم تراودنى أبدا ، وتجهم فى غير محله أنا فى غنى عنه ، ورضا زائد عن الحد استنكره ، وخطايا لاذنب لى فى تحمل تبعاتها ، واختيارات لم أشرع فى التوجه اليها ، ومعارك لاأرغب فى خوضها .

صحيح أن ميلا هفا علىّ الى الأم مبعثه انسانية حضورها ، وشفافية وجودها ، وغربتها فى هذا الكون ، وتحملها المقادير بجلد ، كذا حنين الأب الى جهاده القديم والمحدث ، لكننى لست ابنهما ، ما أنا الا قائم بأمره ، أنا لست هو ، لست على نفسى بمسيطر . أما الصحبة والرفقة فليست خياراتى ، من شرط الصحبة الموافقة ، وأنا لست على وفاق ، قيل لى ، الرضا بالحال عين الموت ، وانى ياسادة ، ياأياما لم أعشها وينبغى لى أن أشهدها ، ياليالى قدر لى أن أستظل بنجومها ، ياأفلاكا قدر لى أن أدور وتدور بى ، ياأفقا أضنانى الوقوف عند حده أو على مرأى منه ، أنى غير قانع ، غير مقتنع ، أقول هذا وحبك ياحسينى أدثره ولو عندى خصاصة ..

أتطلع الى الجهة الشمالية حيث تلوح طرق شتى ، من جهات أدنى الى جهات أعلى ، من مكانة زلفى الى مستوى أزهى ، الى حيث مالايقال ، لم أر فى البداية شيئا ، لم تلح لى شذرة ، ثم أدركت الأمر ، فثمة ماتبقى لى رؤيته من الجهة

الشرقية ، لكننى لن أراه كما ينبغى لى رؤيته ، فالأعالى سأراها أسافل، والأول آخرا ، هذا فناء خرب ، قام فوقه قديما بيت جميل وسط حديقة فيها بئر عذبة لذة للشاربين ، نوافذه من دقيق الخشب المشغول المبطن بزجاج ملون ، أقام به شيخ جليل من مشايخ الأزهر ، تبرك به أهالى قصر الشوق وتيمنوا ، تحدث الأب عنه ، عن بلدته فى أقصى الصعيد ، عن وقفاته ومما روى عنه أنه قدم للمحاكمة إثر انكسار هوجة عرابى وخمود حركته ونفيه غريبا عن موطنه ، قدم الشيخ الى المحاكمة ، وعندما دخل على قضائه بسط هيبته حتى على آسريه الانجليز ، ولما سأله القاضى البريطانى :

«هل وقعت عريضة تطالب فيها بعزل الخديو ؟» .

تطلع اليه القوم ، ماالذى يمكن أن يجيب به شيخ هرم عجوز ، خاصة بعد تساقط من هم أشد منه بعد انكسار عرابى تلك الكسرة المهولة . نزل صمت مهيب ، قال الشيخ :

«لا .. لم أوقع ..»

اجابة منتظرة من المتطلعين ، المحملقين ، غير أنه لم يكن قد أتم كلامه .. قال مواصلا مابدأه :

«لكننى لو أحضرتم الآن عريضة تطالب بخلعه ماترددت . سأوقعها فورا ..»

نزل على القاعة بهت . كان الأب يردد عبارة الشيخ الأخيرة بطرق شتى حتى أنه كان يعتدل لينطقها اذا كان متمددا ، أو يقف منتصبا ، ليقولها اذا كان قاعدا . أحيانا وأثناء مشيه يتوقف فجأة ، يمد يده ، يلفظ العبارة بصوت منغم مرتفع ، هذا من طبعه ، أصغى اليه جمال مرارا ، يصف خروج الشيخ منفيا الى الصعيد ، وداع أبناء الناحية له ، لم يدخل بيته مرة ثانية ، بقى فى إقليم المنيا حتى وافته منيته ، خرب البيت ، نبت الهيش والأذى فى حدائقه ، مالت جدرانه ،

هبط سقفه ، وفى زمن أصلى لم يكن قد تبقى منه الا بقايا أعمدة رخامية مصفوفة ، وشجرة عتيقة قرب فوهة البئر التى ردمت ، غير أنه بعدما يقرب من مائة عام على وقفته تلك ، حصل تدبير وتم نقل جثمانه .. أعيد دفنه عند الناحية الشرقية من ضريح مولانا الحسين ، صار بنى الأكرمين لايذكرون اسمه الا مقرونا بسيدى ، أدرك الأب ذلك ، وتزود منه ، طاف بالمثوى ، ناجى سيدى حسن العدوى برقيق اللفظ ، لطالما أطل على بقايا البيت من فوق السطح ، يقول لمن أنجب : هنا عاش عظيم : ثم يردد العبارة ، وكأن الشيخ ينطقها فى ساحة المحكمة . اننى أرى الساحة المسورة مقلوبة ، الباب الى الغرب مع أن موضعه فى الشرق .

هذا عم رضوان السباك ، يتردد هنا بين حين وحين ، يفتح حجرة بنيت من فلق النخيل ، يقضى وقتا ثم ينصرف ، أراه منقلبا رأسه تلامس الأرض ، قدماه تخطوان فى فراغ ، بقدر الخطو يكون السعى لسبب ماسماه الأب «عم أونه» يلفظ الاسم ثم يضحك ، اعتاد تسمية البعض بأسماء من عنده . نطقها غريب ومدلولها عجيب .

أرى «أونة» بوضوح أتم ، كأنه يتطلع عبر فراغ نقى شفاف ، يقول الأب مشيرا اليه ، هو الذى سيصنع لكما الدراجتين ، كثيرا ماتحدث عن عجلتين ينوى شراءهما واحدة لجمال ، وأخرى لاسماعيل ، يسأل أصلى عن عجلته ، كيف هى ؟ ، يقول الأب «كبيرة» يعاود الاستفسار «أكبر من عجلة اسماعيل ..» ، يومىء الأب ولايصرح . يسأل ، مالونها ؟، يقول الأب ، حمراء ، يغضب أصلى ، «وعجلة اسماعيل أيضا حمراء ؟» ، يقول الأب «عجلة اسماعيل زرقاء» ، عندئذ يبكى اسماعيل ، «أريد عجلة حمراء» ، يصر أصلى اصرارا غتيتا لايرضينى «كلا .. زرقاء» ، ثم أراه طفلا بعد فأتغاضى وأتجاوز . يصيح الأب عبر السور ، «ياأونة خلص لنا العجلتين» يرفع الرجل وجهه ، لايبدو غاضبا ، بل باسما ، «العجل ؟ حاضر ..» .

أرى فى الخرابة التى كانت يوما حديقة ومتنزها لأهل البيت ثلاثة رجال يجيئون بفرس حمراء اللون ، وثلاثة آخرين يأتون بحصان أسود فاره الرقبة ، أرى هذا كله مقلوبا ، يقف عم أونة مشرفا وناصحا ، ثمة اشارات وأصوات من الرجال الثلاثة ، الحصان الأسود يلتحم بمؤخرة الفرس . يشب بقائميه الأماميين راسما خطوطا غير مرئية فى الفضاء ، يهتز جسده ، يتلفت ، يعاود الوثبة ، ترتجف قوائمه ، ينفض رأسه يمينا وشمالا ، يتطاير عرف رقبته ، يبدو مزهوا ، مختالا ، مجيدا ، يقترب من الفرس يمسح بطنها برأسه ، ثم يرفع رأسه فى صهيل قوى ، فرح .

يغيب هذا كله ، غير أن هذا الفناء يدع عندى أثرا ، وروائح وأمورا شتى ، أرى وجها بلا ملامح ، أرى عينين سوداوين ، أرى فما تبرز منه أسنان ذهبية فيثير ذلك خوفا غامضا عندى ، من هذا النثار المتباعد يبرز صوت مذيع متحمس ، إنه مذياع الست وجيدة الوحيد فى البيت قبل شراء الست روحية لجهاز آخر فيما بعد ، المذيع يعلن بحماس عن خطاب ، يردد اسما .. سوكارنو ، أصغى الى لغة لاأفهمها ، تصفيق ، غير أنه منبثق من لحظات أخرى ، هذا زمن يمكننى تحديد عمر أصلى عنده ، التاسعة من عمره ، أما الوقت فغروبى ، يتدفق صوت ابن عبد الناصر غاضبا ، تتضح ملامح هرج بعد طلقات الرصاص ، يختلط صياح خلق ..

«كلكم جمال عبد الناصر ..»
«ليثبت كل منكم فى مكانه ..»
«كلكم جمال عبد الناصر ..»
يفارق أصلى السور .
«الحقى ياامى .. الحقى .. ضربوا جمال عبد الناصر ..»
يسأل اسماعيل :
«كيف .. كيف ؟»
«ضربوه بالرصاص ..»

تقول الأم متأسية :

«عيني عليك ياهند .. سيأخذون زوجها الآن ..»

تعني بذلك أحمد الهجرسي ساكن الطابق الثالث ، سبق سجنه عام ألف وتسعمائه وثمانية وأربعين ، قضى شهورا وأفرجوا عنه لكنهم يسعون اليه ، يسجنونه ، كلما وقع اضطراب ، أو اختلت الأمور .

حدث أيها الاخوان عند اجتياز أصلي مدخل المعتقل عام ألف وتسعمائة وستة وستين ، أن نظر الى الممر المؤدى الى الفناء ، رأى عم الهجرسي ، في ثياب تشبه قماش أجوله الطحين ، أومأ الرجل مشجعا ــ محييا ، فكر أصلي «اذا خرج قبلي يمكنه اخبار أمي وأبي بمكاني وبحالي» ، ثم فكر ، «واذا خرجت قبله فسأخبر امرأته وأولاده ..» ، غاب الهجرسي لحظات ، رجع وبيده نصف قطعة جبن مطبوخ قدر الأصبع الصغيرة مغطاة بورق معدني ، رماها ناحيته ، تلقفها أصلي متعجبا ، «ماهذا ؟ ، أيكلف نفسه مشقة من أجل قطعة صغيرة كهذه ؟» . بعد أيام قليلة أدرك أن قطعة كهذه تعد من نفائس الطعام هنا» ماأغرب ذلك ! .

عند هذا الحد بدأت أطوى الجهة الشرقية طيا ، يمر أمامي مايصعب تفسيره من ملغزات ، ومايمكن الاشارة الى قبس من كنهه ، فمن ذلك وقفة بجوار الأب في شارع عريض ، عربات عسكرية تمضى متتابعة ، ضباط يرفعون أيديهم بالتحية ، لمن ؟ لاأدرى ، هاهوذا الأب يمضي وحيدا ، مسرعا ، بمشيته ميل ، عند حدود خلاء فسيح لايصحبه أحد ، لايؤنسه أحد ، تبدو ملامحه متعبة ، كأن مشيه بدأ منذ دهر ، أرق وأشفق ، هذه قمة مئذنة أي مئذنة ؟، الأزهر ؟ المؤيد ؟ القلعة ؟ أم الرفاعي ؟ .

أرى حشدا من الخلق ، وجودهم متميع ، كأنهم قدوا من سائل مجهول الهوية ، عربات يركبها جند مسلحون ثم عربة لونها أحمر ، لايركب مثلها الا الملك ، إنه فاروق ، الملك الذى يتساءل الأطفال عنه في الحارة . أيقضى حاجته كبقية

الناس ؟ أى طعام يتناوله ؟ مامدى قوته ؟ واذا صارع بن جوريون قائد اسرائيل فمن الغالب ؟ فاروق طبعا ، يقول طفل انه ضخم ، قوى ، يمكنه أن يسحق الآخر فى ثوان ، يتساءل آخر ، لماذا هزمنا فى الحرب ؟، يتساءل طفل ، ومن قال انا هزمنا ؟. يقول عجوز يجلس على مقربة من الحاج عبده مدير الكلوب، ان فاروق يشرب صباح كل يوم كوبا من خلاصة مخاصى القرود ، ومامن امرأة تطيقه ، تغيب الأصوات ، تهليل جماعى ، لحظات نشوة فى ذكر دينى ، جمع من الناس ، لغاتهم غامضة .

أرى طريقا ممتدا مدثرا بالظلال فى نهايته مسجد عتيق ، يظهر رجال يتمددون بجوار بعضهم البعض فوق الأرض ، يمسك كل منهم سيفا مشهرا ، حد السيف يلامس الصدور ، عيونهم محملقة ، فيها انتظار واستسلام ، يظهر جواد أبيض ، يمتطيه شيخ مغربى ، عباءته بيضاء ، متوشح بحزام أخضر ، يقترب على مهل شديد ، يدوس أول المستلقين ، لايمضى مسرعا ، إنما بطيئا يتلفت حوله ، رأس الحصان يتبعه اينما نظر ، عندما يتوسط الطابور يبدأ رقصة غريبة ، يتواثب الحصان فوق السيوف المسلولة ، يتتابع صوت يشبه خروج البخار المتتابع من قاطرة تتأهب للانطلاق ، الصوت يخرج من صدور الرجال .

يتبدل الوقت ، هذا جمع من الناس يلوحون ، يرفعون أحدهم فوق الأكتاف ، يده ممتدة ، يقول شيئا يردده الخلق ، الأب يبتعد بولديه ، ينأى بهما ، يقول «هذه مظاهرة» ، أرى حدأة تحوم ، تقترب ، يظهر عدد منها على ارتفاع قصى ، نقط سوداء تسبح متمهلة ، للسماء لمعة وحلة ، هذه ظهيرة نائية . بعيدة جدا ، تنتمى الى ماض سحيق ، تحدق الأم وعصابة رأسها تغطى جبهتها حتى حافة الحاجبين :

«تحوم فوق شيء ميت»

ثم تقول :

«لو أنها ترى كتاكيت طليقة»

يسأل جمال :

«هل ترى من هذا العلو ؟»

تقول :

«إنها ترى سعى النمل ..»

أحيانا تستقر الحدأة فوق هوائى المذياع ، يطيل التحديق الى عينيها الصفراوين ، المنقار المدبب ، تقول الأم :

«إنها مؤذية»

يولى ذلك ، تولى الظهيرة ، انتظارات الأم ، سكوناتها ، اطراقاتها ، تنأى الى الأبد أى فرصة أو إمكانية للاطلاع على قبس مما دار فى ذهنها أو عبر مخيلتها . وحرك تداعياتها ، يستحيل هذا كله الى عدم محض ، أتم ، فسبحان من يحيى العظام وهى رميم .

يولى الصمت وضجيج المدينة المدغم وبقايا الأصوات النائية ، من ذلك صفارة الظهيرة الممطوطة ، الطويلة المنطلقة لحظة انعدام الظل ، يحل اللاشىء فى اللاشيىء ، تتحول حجارة المآذن والمبانى السامقة الى أبخرة نعاسية شفيفة . الآن أدرك أن عهدى بالجهة الشرقية قد انقضى ، وأننى شأن من يركب قطارا بدأ يتحرك متمهلا ، تتراجع مبانى المحطة من أرصفة وحجرات انتظار ومقاعد ومودعين ومقبلين ومتسكعين ، تتزايد السرعة فتتقارب الخطوط وتذوب الفواصل ، تنطمس المعالم ، اذا دقق الراكب أرهق البصر وكلّ النظر فيودع المرء أرضا قد لايبلغها مرة أخرى ، وقوما ربما لن يراهم ، فما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وماتدرى نفس بأى أرض تموت ؟.

أرانى كل يوم فى إنتقاص

ولايبقى مع النقصان شىء

بدأ ولوجى الى هذه الجهة وأنا أرى أصلى طفلا يعى ، كنت محملا ، مثقلا بما أشهدته ، مع أنى لم ألمح الا شظايا مارقة ، ونثار عمر ظن أصلى يوما أنه

مكتمل دائما ، لن يبدأ أبدا ، لم يتصور أنه سيسعى جاهدا يوما ليتلمس بعضا من سر لحظة ، أو استجلاء غوامض موقف عاشه بملء الحس ونفاذ البصيرة ، ثم على مهل عجيب لايرصد ولايلحظ ، نال منه القادر على كل شيء فطمسه ، كأنه تلك العملة المصبوبة من فضة أو نحاس أو حديد ، ومع انتقالها وتداولها وطول حفظها تبهت وتملس ويغيم المعدن ، تتغير ملامحه بدون صهر ، إنما بتأثير ملامسة خفيفة تعقبها أخرى ، لايمكن تحديد اللحظة التى وقع فيها التغير أو التحول ، هل يمكن لمخلوق تحديد اللحظة التى تم فيها مشيب شعرة من رأسه أو لحيته ؟ .

أصلى أدرك جوهر الخفى الذى لايرى ، من يبدلنا دون أن ندرى ، يغير قسماتنا بغير أعلامنا ، أدرك أصلى أنه محيط بنا ، متغلغل فينا كطعم الثمرة فى الثمرة ، كاللون فى المتلون ، كالاسم فى المسمى به ، فاذا توجه النظر فاليه ، وان تم السمع فمنه ، وان اكتمل العقل فعنه ، وان سعى الفكر ففيه . وان هاج الشوق فاليه ، «ان ماتوعدون لواقع» .

هب علىّ نسيم بلل روحى ، لاعجب ، أليست الجهة شمالية ؟ مصدر اللطائف والنسائم الرقيقة ، قصدت التوجه الى هذه الجهة فعبرت عرض السطح ، لاشيء يتخلل السور الشمالى ، لاغرفة أخرى ، ولا دورة مياه ، ولا منور ، مصمت ، غير منقوص ، أتم ، فوقه كان جمال يدفع العربة الصغيرة التى اعتاد الأب شراءها أيام الأعياد . يمشى رافعا يده ممسكا بها ، يديرها ، يحاذر ألا تقع ، وراء السور فراغ يؤدى الى الحارة مباشرة .

مع اقتراب العيدين الأكبر والأصغر يصحب الوالد الكريم ولديه الى الموسكى ، يقفا حائرين ، زائغى البصر ، تغمرهما روائح شتى ، البالونات ، الطلاء الحديث ، صناديق الورق المقوى ، قش توضع فيه الأوعية القابلة للكسر ، الوان اللعب مبهجة براقة ، أثناء العودة لايطيق أصلى صبرا ، يحاول فتح العلبة ، يقول الأب ناصحا «انتظر» ، عربة زرقاء يجلس داخلها سائق صامت أبدا ، يوقن أنه يتحرك ، يفارق السيارة أثناء الليل ، قبل اغفائه ينصت ، ربما يستمع الى

خطاه ، عربة ترام ، من كل نافذة يبرز وجه راكب ، غير أن لون العربة أحمر، أما ترام شارع الأزهر فأصفر ، وقد حيره هذا زمنا ، وشغل من ذهنه وقتا ليس هينا ، اسماعيل يختار لعبة مختلفة ، جمال يتقرب منه ، يتودد اليه يطلب منه مشاركته اللعب ، يقترح المبادلة ، العربة مقابل الدبابة ، يستدير مرة أخرى ، يقترح ضم هذه الى تلك ، يقدمها اسماعيل طائعا ، انه يلبى مايطلبه يقلد مايفعله ، يتشبه به ، حتى اذا تم الأمر وحاز اللعبتين انفرد بهما ، لايعبأ ببكاء أخيه .

هنا أمعنت النظر فى أصلى هذا ، أنه طفل مازال ، ولكن تبدر منه قسوة تجاه شقيقه ، لاأذكر اننى كنت على شيء من هذه القسوة فى خلقى الأول ، بل أننى دفعت الكدورات عن أشقائى ، أما جمال هذا فلكم يبدو مأوى ومجمعا للمتناقضات ، وملتقى للمتباينات ، يتحايل حتى يستأثر بحاجات أخيه ، واذا بكى اسماعيل لايعبأ ، غير أنه عند نزوله الحارة للعب يتذكر شقيقه ، فيود لو عاد اليه مسرعا ، يدركه ندم ، يقول لنفسه ، ليتنى لم أضايقه ، انه صغير ، يرتجف خوفا من احتمال اصطدام اسماعيل بشيء صلب أثناء جريه ، أو تدحرجه فوق درجات السلم ، يعد النفس ألا يضايقه ، أن يترك لعبه ، ألا يحاول الاستئثار بها مرة أخرى ، حتى اذا عاد الى السطح ، ودخل الغرفة ، ورأى اسماعيل ، عاد سيرته الأولى .

منذ البكورة وأصلى دائما فى الفوت ، عنده القسوة ، وعنده المنة ، وأشد مايظهر منه بهذا الخصوص مايبين عند المضاجعة ، لكم يبدو رقيقا ، يمس الشفتين مسا ، ويلامس النظر بالنظر ، ويمر بأطراف الشعر ، وعند لحظة بعينها قد ينشب أظافره فى كتفى المحبوبة فتفلت منها آهة ، أو يتشبث بالشعر فيشده ، أدركت لور ذلك فى خلقه البديل ، قالت له ، «أنت توجعنى» ، ثم قالت فى لحظة الاسترخاء ، «بقدر مافيك من رقة ، بقدر ماعندك من عنف ..» ، يحيرنى أنا من حللت محله ، أى يحير ذاته بذاته ، فما أتعسه مأبأسه .

كدت أعلن الضيق وأجهر بالأسى على ماآل اليه حالى ، غير أننى ذكرت

مولانا الأقدس ، وتجليه لى بعد غياب ، فخجلت وكتمت ، وحدقت البصر الى هذه الجهة ، وقد اختصت بعمارتها بالنساء ، لذلك هى الأرق ، الألطف ، الأرطب .

اعلموا أن هذا السطح هو الأعلى ، ليس فى حارة الطبلاوى ، إنما فى ناحية قصر الشوق أمامى بيتان متلاصقان ، متشابهان ، سبقت الاشارة اليهما ، الأول يعرف ببيت «خضر» ساكن الطابق الأول ، عنده دكان لتصليح مواقد الغاز وفيه مآرب أخرى ، المجاور له يعرف ببيت الفيومى ، نسبة الى عائلة قيل أن أصلهم من ناحية الفيوم ، نوافذهم لم تر مفتوحة الا نادرا ، وعلى أوقات متباعدة ، ثم عرف فيما بعد ببيت الكودية ، بعد أن نزلت به عائلة سودانية تخصص أفرادها فى اقامة واحياء حفلات الزار ، قيل أن بانى المنزلين شخص واحد . ثم بيع أحدهما الى تاجر ، والثانى الى آخر .

قبل امعان النظر لابد من ذكر القوائم الخشبية المثبتة الى السور ، فمن ذلك القائمان النحيلان الخاصان بهوائى مذياع أحمد عمرو ، وقائمان آخران أغلظ وأخشن . الأول فى الزاوية اليمنى ، والثانى فى اليسرى ، قرب منتصف كل منهما عارضة خشبية تثبتهما ، اليها يشد حبل الغسيل ، فوق العارضتين يشب أصلى ، ينظر الى ماوراء السور ، الى الأسطح المجاورة ، يتطلع الى أفق الدنيا ، الى الخيالات النائية ، الى الصور الباهته ، يرمق «صفاء» ، تطلع الى سطح بيت خضر عصرا ، دائما بمفردها ، تسقى الدجاج والبط والأوز فى عشة الصفيح ، أو تلم الغسيل الذى جف ، تبدو مرتدية جلبابها ، بلا أكمام فهى عارية الذراعين ، أحيانا تطل من السور المواجه ، تميل ، ينحسر ثوبها حتى يتعرى باطن الفخذين ، هذا ماثبت منها فى وضع أصلى ، تلك الانحناءة ، امتداد ذراعيها الى الحبل ، هذا أمر لايخص أصلى وحده ، اذ نرى شخصا مدة من الزمن ، فاذا تقدم الرحيل بنا ، ذلك رجع بعيد ، اذا استعاده وعينا الحفيظ ، لاتذكره الا فى وضع معين ، أو بعبارة واحدة تتبقى من كل مالفظه ، لاينطبق هذا على الأغراب وحدهم ، بل يشمل ذلك الأقربين ، تبصرة لما تبقى من الذكرى .

انظروا الىّ مثلا ، اذ عرفت مالم يدركه غيرى ، خلق أول منقض تماما ، وخلق ثان مفروض على ، مكلف به ، واذ أستعيد واحدا ممن عرفت ، أو قريبا ممن أحببت ، فلا أراه الا فى وضع بعينه ، لا أعى من لفظه الا جملة .

انى لمخبركم الآن بواقعة أرجأت تدوينها حتى الآن ، اذ حدث بعد نزولى مباشرة مدينة فاس المباركة ، وبعد مضى وقت يسير على ، مع أول خطوى فى الطريق ، أن تمنيت من سادة الديوان زيارة البيت لأتبرك ولأتمكن ولأستوثق ، فاستجابوا لى ، على أن يلزمنى دليلى ومرشدى ، الفارق بيننا أنه مستتر ، أما أنا فباد ، اذ أن ظهوره بين القوم وفى هذا الحين بالذات سيثير فتنة ولجاجا ، كفاهم ماهم فيه .

أثناء طوافى بالكعبة رأيت رجلا يتخذ وضعا معينا ، اذ كان يقف منحنيا الى الأمام قليلا ، وفى عينيه تساؤل قديم ، لفت نظرى وضعه ، فلما دققت النظر وتحققت تبين لى أنه جد من جدودى الأقدمين ، سمىّ لى نفسه ، سألته عن زمان مدته ، فقال لى ، منذ سبعين ألف سنة ، سألته عن آدم أبو البشر ، فقال لى ، عن أى آدم تسأل ؟ آدم الأقرب أو آدم الأبعد ؟، فقلت : اياك أعنى ، قال لى ، لا أعلم للعالم حدا نقف عنده لأنه مايزال خالقا ، ومايزال دنيا وآخرة ، والآجال فى المخلوق بانتهاء المدد لا فى الخلق ، فالخلق يتجدد مع الأنفاس ، فاستفسرت لماذا يتخذ هذا الوضع ، لم هذه الوقفة ؟ ، يقول لى : لأن هذه الوقفة يذكرنى بها جل أحفادى ، ولو أنك ممن رأونى حيا أسعى لما ذكرتنى الا بها ، لذا أتخذها دوما كلما تجليت لأحدكم ، ثم قال : انى مفارقك الى لقيا لن تتم ، عندئذ اختفى من محيط نظرى ، غاب عن ادراك بصرى ، وبقيت فى الطواف ، لكننى .. لماذا أثقل ، وأذكر لكم الملغزات ؟ انى لمتسائل ..

وهنا رأيت دليلى

«أنت تغرب ..»

أستفسر :

«أليس ذلك عين الطريق ؟»

يأمرنى :
«الزم الخطة ..»
أجادله :
«إنى مدون مايتراءى لى»
يقول :
«ارجىء ذلك ..»
استفسر :
«الى متى ؟»
يقول :
«الى أن يشاء صاحب الأمر كله ..»

أمتثل ، ألزم الجهة الشمالية ، أضمر مانويت ، لم أحد ، التحذير قاس ، وأنا أجهل العاقبة ، أعاود النظر ، هاهى ذى صفاء ، تمشى ، تتوقف ، تضرب الأرض بمقدمة حذائها ، تطوف عند أصلى عواطف مبهمة ورؤى ، يرغب البقاء متابعا ومحققا ، لو تأخر ظهورها يثبت البصر عند مدخل السطح ، تدركه وحشة ، يثقله فقد ، تجىء ، تطل تجاه الناحية الغربية ، تشير بيدها ، فى البدء تلويحاتها خجلى ، حيية ، تحاذر أن يراها أحد ، ترقبنى ، تعرف اننى متطلع ، شاخص ، غير أنها تبتسم ، أو تحيد البصر عنى ، ثم ترجعه تجاهى فجأة ، أخجل ، ثم أتابع النظر ، اشاراتها أكثر جرأة ، الى موضع الساعة حول المعصم ، أصابعها ترسم أرقاما ومعانى ، ترفع باقة أناملها الى فمها ، تقبلها ، تشيع قبلتها عبر الفراغ ، لمن ؟ لايرى أصلى أحدا فى مدى رؤيته ، البيوت فى هذه الجهة منخفضة ، تبدو الحجرات المنعزلة فوق الأسطح ، احداها قريبة ، نافذتها دائرية ، حيره ذلك ، لماذا النافذة دائرية ؟ تمشى صفاء مطرقة .

لايدرى أصلى متى ظهر محمد أبو رأسين ، شاب طويل ، عريض الصدر ، منتفخه ، لذلك يبدو مائلا الى الخلف فى وقوفه أو مشيه ، أخته زكية طويلة

جدا ، الغريب أن أمهما قصيرة ، نحيلة ، أما والدهما فلم يره أحد ولم يعرفة أحد ، يبدو أنه يعيش فى مكان ناء ، إن محمد ضخم الرأس ، ناتىء الجبهة ، عريضها ، عيناه واسعتان ، يقال فى الحارة أنه تراهن على جر عربة بأسنانه ، وقد فعل ، قيل أنه مدرس ، وأنه يرفع الأثقال بنادى الجمالية الجديد ، متى ظهر محمد هذا فوق السطح المجاور لصفاء ، والذى يمكن اعتباره امتدادا لسطحها عدا سور نحيل عرضه طوبة واحدة يفصلهما .

فى البداية كان يقف عند أقصى السور بقامته الفارهة ، موليا وجهه شطر الجهة الشرقية ، موليا صفاء ظهره ، بينما تلملم غسيلها متمهلة ، أو تعلق الملابس الى الحبال ، إيماءة تقابلها إيماءة ، يوما بعد يوم يقتربان ، يعقد يديه أمام صدره ، تضربه بقبضتها ، لايرد ، إنما يبتسم ، مرة تالية يمسك معصمها ، يشدها ، تتلفت حولها ، عبثا تحاول تخليص نفسها ، تشير ناحية البيوت ، الى الفضاء فوقهما ، غير أنه يجذبها على مهل ، أصلى يثنى ركبتيه حتى لايرى ، يدرك أن مايشهد يستوجب اختفاءه ، يتواريان خلف الغسيل ، ينحنى ناحيتهما ، الضوء الرمادى يغمق ، تتحول البيوت الى ظلال ، تتميع الملامح ، تتداخل الفواصل ، يتردد صوت مناديا صفاء . ترد بصوت متخمر ، متخثر ، الأم تنادى على أصلى أيضا وكأن النداء جالب للنداء ، تطلب منه أن يعود الى الغرفة ، الليل مكتمل ، تخشى عليه مما يدب فوق السطح ، مرة قتلت عقربا ، ومرة رأت ثعبانا طوله أكثر من متر ، البيوت عتيقة ، والشقوق عديدة ، والخطر كامن ، يجيب أصلى «حاضر» ، غير أنه يحدق ، عله يفسر الملامح ، مايجرى فى العتمة .

بعد حين .. يسمع أطيط شبشب صفاء تنزل السلم متمهلة ، مودعة الفراغ منها أثرا ، بينما يتردد صفير محمد أبو رأسين ، إنه يتجه الى السور المطل على ساحة عم «أونة» ، لايكف عن صفير مبتهج ، منغم ، يوقن أصلى أن صفاء فارقت ، فيرتد عن السور وبصدره أثر حز لانكفائه زمنا .

عصر يوم آخر ، لم أحدده ، وإن أيقنت أنه خريفى ، هاهى ذى صفاء

على مرأى من أصلى تعانق أبو رأسين ، إنها أقصر ، تقف بين ركبتيه ، انه يجلس فوق السور غير عابىء ، هى لاتعبأ ، لاتبالى ، لاتتلفت حولها خائفة .

هذا مغيب يوم آخر ، أصلى يلعب عند نهاية السطح ، غير إنه مصغ اليهما ، الحارة تتكلم عن صفاء، تقول الأم : «دم يكسر رقبتها .. إنها فاجرة» ، يقول الأب : «أنه ينام معها لكنه يحفظها بكرا» ، ثم يقول «كثير من بنات مصر يفعلن هذا» ، تقول الأم : «ماذا يتبقى بعد أن تتعرى البنت وتشلح سروالها» ، يقول الأب : «تربية ناقصة» ، ثم يقول : «أهلها يحاولون لمها بأية طريقة» ، أتراجع الى الوراء قليلا ، تلك خلوة كلامية يتحدثان فيها ، صوتهما هادىء ، والتوتر ناء ، والهم بعيد ، أما اللحظة فمدثرة بظلال العصر الرمادية ، ورائحة الغسيل المنشور ولم يجف بعد ، أصوات الطريق بعيدة ، وضجة المدينة نائية ، باهتة .

تلك أيام تالية ، السطح يخلو من صفاء ، لاتظهر أبدا ، امرأة عجوز تطلع لتسقى الدجاج وتطعم الأوزة وتقضى الحوايج ، هاهو ذا أصلى فى الحارة ، يرى شابا أحمر الوجه ، أشقر الشعر، شعيرات رموشه خفيفة جدا ، لايقدر على التحديق فى الضوء الطبيعى ، يسمون أمثاله عدو الشمس ، إنه فتحى الكهربائى ، قال قائل من الجيران : « أراد أبوها أن يستر عليها ، زوجها الى فتحى هذا» ، صفاء تعبر الحارة ، إنها منتفخة البطن ، تمشى مطرقة ، نحل جسمها ، تهدل صدرها ، مال بعد نهوض ، كف ثدياها عن النفور الأشد ، إنها فوق السطح ، تقعد فى الشمس ، على حجرها رضيع ، تخرج ثديها الأيمن ، رخوا ، مستطيلا كشمامة ، إنها وحيدة ، تحملق فى الفراغ ، تخط التراب بأصبعها ، قد تتطلع أحيانا الى السطح الآخر ، لكنه تطلع عابر ، غير متأن ، ماذا يعبر خاطرها والسطح خال ؟ .

هذا أصلى يمشى وراء محمد أبو رأسين فى حارة الوطاويط ، إنه بصحبة زميل له لايسمع من حوارهما الا عبارة واحدة .. «مجهد أكثر ..» ، لم يدر أى

شيء مجهد ، ماذا يقصد ، غير أن مايمثل فى وعيه أن هذا الضخم عانق صفاء ، وشدها اليه ، وأقعدها فوق حجره ، أحاط بنهارها ، وعجل بدنو عصرها ، إن صفاء تدخل الحارة الآن تحمل على كتفها طفلا لايمكنه المشى ، تمسك بيدها آخر يمشى ، تلتقى عيناها بنظر أصلى ، تجهله ، ربما لاتتذكر أنها لوحت له .. لم تخرج لسانها يوما له معاتبة ، يمشى أمامها فتحى عدو الشمس ، امرأة البنان تقول عنها : «سبحان من هدها كانت فائرة» .

يدرك جوهر المعنى ، يستعيد حركتها فوق السطح ، مشيها ، استداراتها المفاجئة مفرودة الذراعين ، انحناءها فوق السور ، هذا كله راح أوانه ، لكنه أودع عنده أثرا ، فلم ير صبية ترتدى فستانا ينتمى الى اللون الأصفر ودرجاته الا طفت صفاء الى وعيه ، ولم ير شعرا ذهبيا هفهافا الا استعاد خصلاتها أو استرخاء ضفيرتها الغليظة ولا يسمع نداء أنثويا متأججا متلهفا الا أصغى الى بقايا صوت صفاء النائى اذ ترد على أمها التى تتعجل نزولها ، ولم ير راقصة منتشية مزهوة الا استعاد دورانها فوق السطح وامتداد ذراعيها كأن كل عضو منها يبغى المضى الى الطريق ، أما طيورها التى أطعمتها الحب فقد ذهبت ، خلت عشة السطح منها ، مالت جدرانها وانكشف داخلها ، وعاء مستدير معدنى بقى .

أودع هذا كله عنده حزنا فريدا ، صار جزءا من أحزانه الكامنة التى لازمته أو صاحبته ، حزن شجى كالهواء الذى يعقب المطر ، كعلامات دالة على أنواء قادمة ، وحيث أن النظر أحاط بصفاء ، فانى محدثكم عن الحمراء صحيح أن موقعها بعيد ، غير أننى أعد بالاختصار قدر الطاقة ، ذلك أن الأسرة اعتادت قضاء الصيف فى جهينة ، استمر الحال على ذلك ، حتى عام ألف وتسعمائة وستة وخمسين ، يصحبهم الأب ، يقضى أياما معدودات يطوف خلالها بالأقارب والصحب ، يسلم ويطمئن ويستفسر ، ثم يعود الى مقر عمله ، فى نهاية الصيف يجيء الى جهينة ليصحب الزوجة والأولاد .

كان جمال قد قطع من الطريق ست أو سبع سنوات ، هنا لن يمكننى تحديد مالم يقدر على تعيينه هو ، فالحمراء أول من تعلق بها قلبه ، أول انثى

حركت مشاعر كانت فى هذا الزمن غامضة ، غضة ، الحمراء فتاة من الحد الشمالى لبيت خاله ، تمت اليه بصلة قرابة ، تجيء للسلام ، تقضى وقتا فى البيت تساعد امرأة الخال فى قضاء بعض الشئون ، هى ممشوقة ، فارهة العنق ، حريرية الشعر ، لملامحها صدى فى النفس وترجيع ، ابتسامتها مضيئة يتمنى المرء دوامها ، أما عيناها فكأنهما حفتا بترديد ضوئى غير مرئى ، منها تفوح خميرة الأنثى ، اذ تبدو يتبعها أصلى ، لايحيد بوجهه عن عينيها تداعبه ، يقول لها : تتزوجيننى ياحمراء ؟، تضحك أمه وتضحك جدته نجمة وتضحك الدودة التى تلقته على يديها عند مجيئه الى الدنيا تقول : «كل هذا يطلع منك ياابن الغيطانى ..» تضحك الجارات ، يضحك الوقت ، تقول نجمة : «الحمراء ستتزوج ولد الحويج» ، عندئذ يجعر أصلى ببكاء ، يضرب الأرض بقدميه ، تميل الحمراء عليه ، تغمره رائحتها المخملية ، تقول له ، «لن أتزوج غيرك ياجمال» .

اذ تنصرف من البيت ، يتسع المكان ، يشعر بفراغ .. كأن قبضة لامرئية انتزعت قلبه ، ثم قفلت السنون يجر بعضها بعضا حتى شد أصلى رحله الى جهينة بعد تمام طريق الأب وبدء هجرته العظمى الى الحق .

فى صحن بيت الخال الذى بدا ضيقا قعد فوق الدكة بالمدخل ، جاء جمع للسلام عليه ، ولنطق عبارات العزاء ، كان خاله الذى قارب بصره على الكف يعرفه بهم ، ويذكر الاسم متبوعا بالقرابة ، جاءت امرأة بيضاء ، نحيلة تخفى شعرها بطرحة سوداء ، لم تنصرف ، إنما قعدت فى مواجهة جمال ، تنظر وتبتسم ، ترفع الملامح المثقلة بالغضون وتبتسم ، قالت امرأة الخال : ألا تعرفها ؟ .. إنها الحمراء ؟ لم يبد عليه رد فعل يشى بأنه استعاد ، ملامحه بقيت جامدة ، كررت امرأة الخال : «إنها الحمراء» .

حدق بعينين جامدتين ، عندما قامت الحمراء صافحته ، فوجيء بخشونة يدها ، تقدد جلدها وتشقق ، قالت امرأة الخال : «مسكينة .. بعد انجابها خمسة طلقها زوجها وتزوج أخرى من طهطا» ، لم يجب أصلى ، تذكرها ليلا ،

مابين اليقظة والنوم ، أنتبه مستعيدا هيئتها فى القديم الآفل ، وفى المحدث ، تأسى ، وتعجب ، فتقلقل نومه ، تمنى لو يراها مرة أخرى ، لكنها فى النهار التالى لم تأت ، وكان عليه أن يفارق ليلحق قطار الثالثة ، فسبحان المبدل ، المغير ، مقلب الأحوال واليسر ، من أدرك أصلى كنهه بعد اجتيازه مقام الجوى فحكم عليه بالتذرية فى فضاءات الكون ، فمن يرده الى ميعاد ؟ ذلك رجع بعيد ، صعب ، مستحيل الشروع فيه ، أو الخوض ، لذا أنا محدثكم عن علياء .

هذا صباح ناء ، يقف أصلى فوق أرض عطفة باجنيد ، لهذه الفترة من النهار طابع وملامح ، لاضجة تسمع الاصياح الأطفال ، اذ يجرون ، يتنادون ، نوافذ معظمها مفتوح ، الأغطية معرضة للهواء ، مبسوطة عند الحافات ، وقت التنظيف وترتيب الحاجات ، قد يسمع سقوط آنية ، أو خبطات تنفض التراب عن وسادة أو حشية ، بعد قليل سيبدأ دخول الباعة ولمجيئهم ترتيب ، اقتضته الحاجة فهو غير مقصود فى ذاته ، أول القادمين باعة الخضر ، باعة البصل والثوم والحبوب من فول وقمح وذرة ، أما بائع السمك فلا يجىء الا ظهرا ، باعة البطاطا المشوية وحلاوة زمان والفطائر يهلون عصرا ، الحظ مالم ينتبه اليه أصلى ، إنه لاه ، سادر فى غيه ، حدود دنياه هذه الحارة ، الاحساس بالبعد ، بالنأى عن موطن الألفة ، يبدأ عند فرن الحاج ناصيف الذى يقع على مسيرة ثلاثين خطوة من البيت وعنده تنحنى الحارة ، مع انقضاء الأوقات وسعى الدهر تطول المسافة وتمتد وتعظم حتى تترامى الى أطراف الكوكب الأرضى ، لهذا تفسير ربما أتيت به ، لكن فيما بعد .

هذا صباح بعيد ، أصلى لايعبأ بتحديد الوقت ، ليومه علامات بهتت بعدئذ وتلاشت ضمن ماتبدد من مكنونه الدفين ، من ذلك مجىء النهار وغروبه ، وخروج الوالد الى سعيه كارها ثم عودته ، وفراغ الوالدة من تنظيف البيت وترتيب الفراش ، وبدء قعدتها أمام الغرفة ، كذا وقت النزول الى الحارة للعب ، هاهوذا أصلى يقف مرتديا جلبابه وصندله الجلدى ، لم تسمح له الوالدة بالنزول حافيا قط ، تخشى شظية مدسوسة أو ذنب عقرب ، أن ينتظر من يماثله عمرا ليلعب

معه ، هاهى ذى علياء تقبل ، نحيلة ، سمراء ، طولها يماثل طوله ، كذا نحافتها ، غير أن بشرتها شاحبة ، إنها واسعة العينين ، ناعمة شعر الرأس .

تقول : «تعال نلعب ستات» ، تمسك يده ، يتبعها صامتا ، لعبها مرات ولكن فى جمع ، يجلس كل صبى وصبية فوق بسطة من السلم ، يرصان علب السجائر الفارغة ، وصندوقا أو اثنين من الصفيح ، تصبح هذه العلبة سريرا ، والأخرى صوانا ، أما الابنة أو الابن فعروس محشوة بالقش !

يحدث أن تطلب منه رفيقته زيارة الأقارب ، فلا يكلفهما الأمر بعدا أو مشقة ، ماعليهما الا الصعود بضع درجات أو النزول ، لم يلعب الا جماعة ، أما الآن فهو بمفرده ، شعور غامض يبدأ عنده لحظة اجتياز البوابة ، رائحة تراب مغطى بالظل زمنا طويلا ، رائحة أخرى لايدرك كنهها ، ربما بقايا مبيد حشرى ، أو آثار عطن ، باب الشقة مغلق ، أم علياء تخرج فى هذا الوقت ، يقال أنها تعمل دلالة ، تبيع بضائع فى حوار بعيدة ، منذ زمن توفى والد علياء ، ثم تزوج أحد أقاربه أمها ، هذا رجل لاتقع عليه العين الا نادرا ، يخرج مبكرا ويعود فى غميق الليل ، لم يره أصلى أبدا .

علياء تفترش الأرض تحت السلم الذى يرتفع درجة ، درجة ، مؤديا الى الطابق الثانى حيث يسكن محمد أبو رأسين ، يذكره فيستعيد صفاء وفردها ذراعيه ومشيها فى الأرض مرحة على أطراف أصابعها واقترابها من محمد وعناقهما والدهشة والوجل والنظرة المختلسة ، علياء تدنو منه ، تمسح شعر رأسه يبادلها فعلا بفعل دون أن يفقه قولا ، تميل اليه ، تسند رأسها الى صدره ، تنظر اليه بعينى طفلة صغيرة وتعبير أنثى مستوية مستعار من بعيد .

حرت فيما أطلع عليه .. هل رأت عينى أمها عند المضاجعة ؟ تقبله ، تهمس «تعال نعمل زى ماما وزوجها» ، لاتنتظر رد فعله ، انما تتمدد ، تراب ناعم ، آثار بلاط مخلوع ، طلاء أصفر قديم ، تشلح جلبابها ، تزيح سروالها تباعد ساقيها فيواجه فرجا ، صغيرا ، دقيقا ، أملس ، شقه كخط قصير ، إنه

الأول الذى يراه ، لم ينمح أبدا من مخيلته ، تشده اليها ، «يالله ياحبيبى» يخلع عنه سرواله ، تحتضنه ، تهزه ، ترفعه ، تخفضه، ولأنه جاهل للفعل فانه يهز جسده يمنة ويسرة كأنه يتأرجح ، وهذا مبهم ، ذلك أن رد فعله جاء تلقائيا ، ثمة فكرة مسبقة عنده ، من أين واتته فى هذه السن المبكرة ؟، لم أقف على المصادر ولم أعرفها ، إنما المقصود من وقوفى بهذا المحط أمر واحد لاغير ، اطلاعى على هذا الفرج الأول ، فيما بعد رأى فروجا عديدة .

عند هذا الحد نهيت عن الاستمرار ، فهمت أن الأمر ليس مشابها لما كان فى دهرى الأول ، وان تفصيلى مثل هذه الأمور قد يثير لجاجا ونفورا ، وربما سبب لى نصبا ، فامتنعت ممتعضا ، فقد وددت صادقا أن أفضى اليكم بسيرة كل فرج ولجه أصلى أو لامسه كذا وصفه ، غير أننى أعتذر . لذا أكف مكتفيا بذكرى هذا الفرج الذى صار الى عدم عدا طيف ملامحه التى بقيت عند مخيلة أصلى ، فقد فنى منذ زمن ، كيف جرى ذلك ؟، هذا ماأذكره فى عجالة ، بعد اجتيازها الصبا ، صارت فارغة ، لاتتلفت حولها أثناء مشيها ، يراها ، تلتقى عيناهما ، فكأنها لاتعرفه . يفكر ، تتجاهلنى ، ويوما ما اطلعت على ماتخفيه الآن .

عصر يوم سرت ضجة تنذر بشؤم ، خرج الى الشرفة ، أطلت الأم ، الكل مطل ، منتظر ، يعبر الحارة ضابط وراءه ثلاثة من جنود الشرطة .

ماذا جرى ؟ .
علياء ماتت .
كيف ؟

من قول هنا ، ولفظ هناك ، تجسد المصير وبان المنتهى ، عادت الأم من احدى خرجاتها ، وجدت ابنتها متمددة فوق السرير الحديدى وسلك الكهرباء مقطوع يلامس رأسها ، قال قائل : إنها اغتصبت قبل موتها ، وأكد آخر أن التشريح أثبت أنها امرأة مكتملة وليست عذراء ، وقيل بوجود علاقة بين البنت وزوج أمها ، وأن الأم قتلت ابنتها بهذه الطريقة المتقنة ، رابع قال إن زوج أمها

حاول اغتصابها ولما قاومته خشى الفضيحة فكهربها ، تعددت الأقاويل ، وغزرت الريبة حول الأم ، لم يرق لها أحد ، ولم يشفع لحزنها أحد . ولم يرث لارتدائها السواد أحد ، لم يمر شهر الا رحلت .

عند خروج العربة التى يجرها بغل محملة بأثاث البيت رمت أم زهرة وراءها قلة من فخار تناثرت شظاياها إظهارا لفرحة أهل الحارة بخلاصهم من المرأة التى تسترت على قاتل ابنتها ، أعوذ بالله من الخوض فى سيرة الخلق ، غير أن ثمة مايجب ذكره .. اذ حدث بعد عامين من موت علياء أن روت امرأة دلالة من ناحية بعيدة أثناء زيارتها للحارة ماجرى بعد خروج أم علياء وزوجها ، اذ يبدو أن بعضهم أرسل الى الشرطة أو الى جهة ما مطالبا باعادة الكشف على الميتة ، وقيل أنه أخ لها غير شقيق يقيم فى بلد بعيد ولم يرها أبدا وحدث بالفعل أن أعيد الفحص ، فتبين أن علياء رحلت مقتولة ، قبض على زوج الأم ، واعترف ، ماشغل أهل الحارة ، كيف تتكشف حقيقة كهذه بعد عامين ، وهل يقدر الطب على ذلك ؟، إننى أحدق عبر حجب الجهة الشمالية لعلى أرى ماتبقى من أطياف هذه البنية ، لكننى لم أبصر ، فالحجابات كثيرة ، لذا فارقت متجها الى ذلك اليوم الذى عرف فيه أصلى سناء !.

تلك حافظة سوداء صغيرة ، قفلها معدنى أبيض ، ملقاة أمام عتبة مسجد سيدى مرزوق ، يقف مترددا ، تطل منها أطراف أوراق مالية ، خمسة ، عشرة قروش ، يتلفت حوله ، لاأحد . ينحنى مادا يده الى صندله البنى ، يتظاهر بتعديل رباطه ، تقبض يده الكيس ، يقف ، يدسه فى جيب جلبابه ، يمضى متمهلا ، ابتسم لذلك ، أعجب لحيطته وحذره ، أبتسم لذلك ، يمشى متمهلا حتى دكان محمد بائع الصحف ، الدكان تحت مسجد الأمير الجمالى ، ثلاثة محال متجاورات .. الأول لبائع فحم ، والثانى لتاجر أدوات المقاهى .. نرجيلات ، أكواب زجاجية وفناجين خزفية ، أتعجب لموقعهم تحت المسجد ، لو أنى أحطت علما بالفوت الذى تحولت فيه الخانات الثلاثة الى دكاكين ، لكن هذا ليس

ميسوارا الآن ، انى مقيد فى رحيلى هذا ، هاهوذا يمضى وجلا ، فى جيبه مبلغ من المال لم يمسك بمثله أبدا ، حائر .. لايدرى كيف ينفقه .

منذ لحظات اشترى خمس حبات حلوى على هيئة ثمار الفراولة ، تراها فتحسبها حقيقية انتزعت لتوها من أصلها الذى هو فرع ، أكل اثنتين خلسة واحتفظ بثلاث ، يتمنى أن يبقى لشقيقه واحدة ولأمه أخرى ، لكنها ستسأل : من أين له بالمال ؟ أو .. من قدمها اليه ؟، ستغضب لأن المال حرام ، كان يجب ألا يأخذه ، كما أنها حذرته مرارا من الاستجابة لأى غريب ، أو قبوله شيئا ممن لايعرفه ، أو الأكل عند احدى الجارات اذا دعته الى طعام ، أما تحذيرها اياه من الغرباء فخشيتها الغجر الرّحل ، الذين يجوبون البلاد وأعينهم على الصغار .

فى جهينة اذ يسمعون بقرب الغجر أو الغوازى أو الحلب كما يعرفون ، يغلقون الأبواب ، يمنعون الصغار من الخروج الى الباحات ، تخشى عليه لصوص الأطفال المنتشرين فى المدن ، أنبأتها أم هدهد أنهم يأسرون الأطفال ، يعذبونهم يعلمونهم السرقة والميل ، والغواية تعنى أن يستدرجه ذكر أكبر منه فيتلفه ويفسد كينونته الناموسية الطبيعية ، كانت تلوح له بذلك ولا تصرح ، قبل نزوله الحارة تقول بصوتٍ هادىء ، مبتدئة بمأثورها «جمال ياولدى» ، ثم تذكر فى لين تحذيرها ، مخافة أن يستميله شاذ أو عابث ، تحذره من الانحناء ، وركوب أى طفل صغير أو كبير فوق ظهره أثناء اللعب ، تقول وقد اكتست ملامحها جدية وصرامة ان هذا من أقبح الأفعال ، انه رجل ، والرجل يجب ألا ينحنى أبدا ، تنبه الى ضرورة ابقاء جلبابه مسدلا .

تلقى اليه القول مبدية اللامبالاة أحيانا ، كأنها تحكى أمرا هينا ، غير ذى أهمية ، كثيرا مايكون ذلك فى قعدة الظهيرة بعد فراغها من أمور البيت ، وبدء انتظارها اليومى ، تقول ماتضمر ، بينما معراجها الداخلى على أشده ، «إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر» .

أما تحذيرها له ألا يأكل عند امرأة غريبة ، فلأن الانسان يجب أن تكون

عنده عزة نفس ، فاذا لقى نفسه جائعا والمقام غير مناسب ، ومن غير المناسب الجهل بصاحب الطعام ، يجب أن يكبح جوعه ، وألا يمد يده الا الى صحن يألف صاحبه ، ويكون قادرا على ردّ مقابل لما أكل ، تلك أصول وجذور وعلامات يجب عدم الحيدة عنها ، فنعم عقبى الدار .

يمتثل أصلى ، حتى اذا قرصة الجوع أثناء اللعب ، يهرع الى منتصف السلم مناديا : ماما .. أنا جائع ، إبعتى لى رغيف ، فاذا دعته الى الصعود ليأخذ ماطلب ، عنى ذلك أنها لن تستبقيه وستسمح له بالعودة ، يعرف أنها لاتقول شيئا وتفعل مايغايره ، فاذا دعته الى الصعود ثم العودة للعب صدق ، وأمتثل . اذا أرادت منعه تعلنه فى غير ذى عوج ، أدرك من قديمه أنها لاتموه ولاتستدرج ، لاتلفظ قولا له أصل وظل إنما صورته فى أصله ، هذا حالها ، وقد بقيت عليه وثبتت .

ينادى جمال :

«إبعتى لى رغيف ..»

تلك بارقة ، جملته ، لم يدرك ناطقها أنها ستصير علامة دالة واشارة الى ومتكأً على ..، وأن الفاظا قالها طفل لايعى ، ستقلب دهرا عتيقا وتبعث زمنا آفلا، وتبدد مغارة النسيان ، عبارة مندثرة الآن من عالم الممكنات ، قائلها شب وأمعن المضى فى الطريق ، حتى أن ادراك كنه الصلة بين ماكان عليه وقت نطقها وما أصبح عليه قبل معراجه يحتاج جهدا ومشقة ، عبارة تبدد ناطقها فى فسحات الكون وذرى ، يصعب التنقيب عنها فى منزل الأصوات الباقية ، أمر يحتاج الى جهد جهيد ، أنا هو ، لكننى لم أفه بها ، لهذا كله سأطنب فى البيان اراحة لى قبل الآخرين ، وربما لظمئى قبل رى غيرى ، حق علىّ إفراد فصل بعد التماس الإذن ورجاء الاشارة ..

تفصيل

أقول كما قال القائل :

ديار بأكناف المغيب تلمع
وما أن بها من ساكن وهى بلقع
ينوح عليها الطير من كل جانب
فيصمت أحيانا وحينا يرجع
فخاطبت منها طائرا متفردا
له شجن فى القلب وهو مروع
فقلت على ماذا تلوح وتشتكى
فقال على دهر مضى ليس يرجع

يامن يتلقى عنى ، يامن لم التق به ولن .. يامن لن يدرك جوهرى الأول ، تلك عبارة لاتعنى شيئا عند الجم الأعظم ، ولكن لاتستخف ولا تسخر ، فعند حين مقدر قد يتلخص ماعاشه الانسان فى تموجات عبارة ، أو ايماءة ، أو ظل لون كونى ، هذه العبارة بدأت تلوح فى أفق حنين الأم عند عمر معلوم ، بعد أن شب وسعى مبتدئا حياته بعيدا عنها ، أراها تتحدث الى جارة قريبة لم أتبين ملامحها ، تقول وعلى وجهها ضياء ابتسامة :

«كان جمال يلعب النهار كله فى الحارة ، حتى اذا تعب .. وقف فوق السلم وصاح ...» .

هنا تتغير ملامح الوالدة الكريمة تغيرا طفيفا ، تبدأ محاولة ظاهرها محاكاة صوت من سكن رحمها جنينا قبل أن يسعى ، وباطنها استعادة لحظة مندثرة ، واحياء حقبة غاربة ، إنها تلفظ العبارة وعندها من الدهشة قدر غير يسير ، جمال يسافر بمفرده ليسعى فى بلاد نائية لم ولن تراها ، الدهشة تميد فتتحول الى تأثر ، غير أنها تتقن الاحتفاظ بما تبطن فلا تظهره الا فيما ندر ، وهذا من أقوى وأجل

خصالها ، لكم أخفت ، ولكم كتمت فما صرحت حتى لاتقلق عزيزا ، أو تزعج غاليا بألم قد تشعر به .

هاهى ذى تقف بأحد الأسواق ، تخاطب الحاج فؤاد تاجر الأثاث القديم ، فى عينها نظرة حيرى ، تدرك أنها تبدى التعجب من أمور لاينبغى إظهار الدهشة من تحقق وقوعها ، تقول :

«جمال كبر الآن ياحاج ، الأيام فاتت بسرعة ، والله كأنى أراه البارحة عندما ...»

ثم تذكر الموقف ، وتتلو العبارة ..

تلك قعدتها فى صالة البيت الذى خرجت منه الى الأبد ، المقعد بعينه .. الفراغ الذى تنظر اليه ، تعبره بعينيها ، فيهما أصداء سفر ، وآثار رحلة منهكة ، هى مجهدة ، يثقل دماغها ، تتوالى الأفكار ، تنقلب صورا ولحظات متداخلة بما حوت ، توشك أن تعقو ، تهن رقبتها . تكاد ذقنها أن تلامس صدرها ..

«ياماما .. ابعتى لى رغيف ..»

تنتبه ، يتوالى شهيقها وزفيرها ، ناداها بالحس ، أصغت ، تستعيد واقعها اذ تتم يقظتها ، يستجيب صدرها بتنهيدة خافتة ، مثقلة ، كأنها غمامة ، خفيفة نائية ، مقبلة ، تسوقها رياح ، منذرة بسحب تتبعها مسحة ..

هاهى ذى فى صالة البيت ، بعد نقله الكتب الى بيته الجديد ، بعد فراغ رفوف المكتبة ، تصغى الى صدى صوت الجدة «الدودة» اذ تقول : «مبروك يابخيته جاءك ولد» ، تصغى الى الصرخة الأولى ، كان جمال صامتا لايحب الكبار أن يعاملوه معاملة الصغار ، فى يوم بعيد رجع باكيا لأن الأسطى سيد الحلاق نهره عن قراءة الجريدة خوفا من تمزقها ، يغيم وجهها ، تعلو متجاوزة الفراغ الذى يشغله وجودها المادى ، تتجاوزه ، تحوش ابتسامتها ، دمعتان دنتا من مشارف مقلتيها ، تحاذر البكاء وجمال يستعد ليوم عرسه ، شؤم ينبغى تجنبه ، لاتدرى من قال يوما

على مسمع منها أنه يخشى على أولاده من بعده ثلاثا : جور السلطان ، وغلبة النسيان ، وافتقاد الحنين .

عندما اقترنت بأحمد ، كانت كالعدد الصحيح ، يبتدىء من أقل الكمية ، اثنان ، ثم يتزايد بلا نهاية ، جاء خلف ، وتذكره خالقه ، جاء كمال وأوفى مدته طفلا ، جمال أول من عاش ، جاء اسماعيل ، وجاء محمد الذى لم يتم ، وجاء من تجهل فقد أجهضت حملها ثلاث مرات ، وجاءت نوال ، وجاء على ، وكل منهم واحد ، سيصير اثنين ، وفى عين الوقت الذى سيتزايدون فيه ستنقص هى ، سينأون عنها ، تصبح كأول الكسور ، تبدأ من النصف ثم تمر فى التجزؤ بلا نهاية ، كلاهما من حيث الابتداء ذو نهاية ، ومن حيث الانتهاء غير ذى نهاية ، الأصل واحد لكنه هنا يتكاثر وهنا يتجزأ ، والله يعلم وأنتم لاتعلمون ، هاهى ذى أصابع يديها متشابكة ، مستغرقة فى جلستها الأمومية كأنها على وشك أن تحنو مع عدم وجود المحنى عليه ، فى عينيها دهشة وجلى ، تقف عند تخوم انبهار حزين واستغراب للسهولة التى انقضت بها الأوقات ، لليسر الذى يتم به الفراق ، الى ربك يومئذ المساق ، وهنا أكف عن الإطناب خوف الملال والنفور فأعطف صوب ماكنت عليه !

رجعـــــى

إنه مدخل الدرب ، إنه ضريح سيدى المجاهد مرزوق ، تلميذ سيدى أحمد البدوى ، إنها ظلال المسجد العتيق تلزم مدخل الحارة ، روائح ، شتى مزيج من رائحة الجير المنطفىء ، والأصباغ المنبعثة من دكان عبد الحميد المبيض . هذه رائحة عطر غامض منبعث من نوافذ الضريح المبارك ، رائحة الظلال المستقرة منذ اكتمال البنيان ، رائحة قِدَمْ ، وبلاط مضلع يغطى أرضية الحارة ، وأخرى غامضة يصعب تحديد مصادرها ..

هنا .. تقف سناء ، أكبر منه بعامين أو ثلاثة ، لا أقف على تفاصيل

الملامح ، غير أن مايحف بها من بهاء أسنى لايخطئه نظر ، لاتجيء الى الحارة الا نادرا ، لاتلعب مع الأطفال ، لاتخالط كاميليا ، أو علياء ، أو عزة ، رآها مرتدية أثوابا عديدة ، غير أنها مثلت فى وعيه دائما مرتدية فستانها الأخضر ، ذا الياقة المرتفعة ، تماما كما استقرت لور فى لب حشاشة قلبه مرتدية دائما قميصها الأحمر النبيذى الصوفى ، وبنطلونها الأسود القطيفى المضلع .

إنه يقترب من سناء ، فى جيبه تلك المحفظة ، لم أدر كيف اتصل حوارهما كيف بدأ ؟ رأيتهما يمشيان ، يقفان عند دكان عم حسن تحت المسجد القديم ، عم حسن يرتدى جلبابا ، وطاقية لاتفارق رأسه صيفا أو شتاء ، دكانه منخفض عن الطريق ، جدرانه حجرية ، لايبدو منه الا رأسه وكتفها ، اذ يخاطب الزبائن ويلبى حاجاتهم ، رائحة السجائر قوية ، كذا التبغ والنشوق ، أما الحلوى فمستقرة داخل أوعية زجاجية منتفخة ، غير أن أهم مااشتهر به ، بيعه أوراق اليانانصيب ، وأن الكثيرين يتفاءلون به ، فى ثلاثة أعوام متعاقبة فازت ثلاث ورقات باعها بالجائزة الكبرى فى ياناصيب الاسعاف .

يمد أصلى يده الى جيبه ، لايبرز المحفظة ذاتها ، ربما رآها صاحبها ، تصير فضيحة أمام سناء ، كما أنه يخشى العاقبة ، يبتسم عم حسن فيلوح الفراغ فى مقدمة فمه الخالى من الأسنان ، قطعتا شيكولاته ، تتناول سناء إحداهما ، لاتنظر اليه ، لاتلتفت ، تحتفظ بها دقائق ، قرب حارة الميضأة تبدأ فض الورقة فيبدأ ، يرقبها خلسة ، لن يأكل قبل أن تبدأ هى ، شفتاها ورديتان ، نديتان ، تقضم قطعا صغيرة ، يتوقفان أمام بائع للجيلاتى ، بقدر سروره يكون خجله ، يظن أن عيون الخلق كلها ترقبهما ، مدركة هويتهما .

قبل باب النصر توقفا ، لم يتجاوزاه ، هذا حد لم يبلغه ، كما أن شواهد القبور فوق المرتفع خارجه يمكن رؤيتها من موضعهما ، خشية غامضة تثيرها هذه القبور عنده ، عندما صحب الوالد فى عصار ولت الى هذه الناحية ، وجلسا فوق السور الحجرى الذى يحد الخندق العميق الممتد تحت حائط القاهرة القديم ، كان

يحاذر ألا يقع نظره على الشواهد البادية فوق مرتفع من الأرض ، شعور غامض لم أدر كنهه يغمره، يقبضه اذ يقترب من القبور .

فى مرحلة متقدمة من طريقه غزاه خوف من الموت ، عانى من حدة الادراك ، وخشية المجهول ، والحسرة على فوت كل ماهو بهيج ، فأعان الخالق من بدأ احتضاره فى عز شبابه ، استمر سنين قبل تمام الأجل المقدر ، وبارك ربى البررة الكُمل الذين قطعوا الطريق كله وهم لايهابون ، وأمضوا الوقت كله لاتلهيهم تجارة ، وقد كانت أمى وكان أبى من أهل ذلك فى خلقى الأول ، كذا أمى وأبى فى حلولى هذا ، لم يشطا ، لم ينأيا ، فسبحان من له الخلق والتبديل ، يأخذ ويعطى لامعقب لحكمه وهو على كل شىء قدير .

هذه سناء تجلس أمام أصلى داخل دكان الفطير عند مدخل حارة الرشيدى تنظر الى المارة ؟ ربما ، الى الطريق ؟ ربما ، الى الطبق ، جائز ، غير أنها لاترنو اليه ، تمسك الشوكة فى يد ، والسكينة فى يد ، تمضغ على مهل ، حيره استخدامها الشوكة ، يخشى مجاراتها فيرتبك ، أو يبدو منه مالا يليق ، الفطيرة ساخنة، يبرز منها حشو الكريمة البيضاء ومربى حمراء ، غير أنه لايقربها ، لو أنه بمفرده لتناولها بأصابعه ، لفها وقضمها ، يسأله الرجل : «لماذا لاتأكل ؟» يقول : «نفسى تعبت فجأة» ، يتساءل الرجل : «الفها لك ؟» ، يتطلع الى سناء ، يتمنى لو قال : نعم ، لكنه يخشى أن يبدو ذلك أمرا غير لائق ، يمضى ، هى الى جواره ، لاتخاطبه ولاتجاوره ، فقط تسأله من حين الى آخر ، «كم بقى معك ؟» .

يعبران حارة الدرب الأصفر الى شارع المعز ، قربها يسرى عنده ، فيه لذة ، شربا سوبيا ، أحب المشروب الأبيض السميك ولكن لم يرتق عنده الى مرتبة الخروب . ارتشفه متمهلا ، مضغ اللوز والبندق وأحب ذرات القرفة ، حاذر ألا يصدر عن فمه صوت مفاجىء يبدو منكرا ، خاصة أن حسواتها مقتصدة ، أن وحشة مفاجئة تقسو عليه ، كيف يأكل شيئا لم تتذوقه أمه ! كيف يطعم مالم يوضع أمام أبيه وشقيقه ! .

سناء تمشى الهوينا ، تتقدمه دائما بخطوة أو اثنتين ، كأنه لايصحبها . ولا تصحبه ، مشيا عبر درب قرمز ، وعندما احتواهما برطوبته وظلاله المعتمة ازداد قربا منها فعرف العبير الأنثوى ذا الخصوصية ، وهذا عبير معين يقوى فى إناث دون غيرهن ، وينعدم عند أخريات ، لاعجب ، فمن الزهور ماكان متعة للنظر ، بدون عبق ، ومنها الفواح المسكر، عرفها أصلى فى قلة من إناث ألفهن ، وتمكنت حواسه منهن .

حدث فيما بعد أن صحب حسن صاحبه لزيارة معارف فى ناحية الدرب الأحمر ، عندما فتح الباب ، بدت شابة خمرية ، طويلة الشعر ، معها ضخ البيت كله رائحة الأنوثة تلك فياضة ، طاغية ، جسدها يشب داخل الثوب قلقا ، فائرا كالماء يغلى فى قدر مكتوم ، يود لو أفلت ، لو عبر ، غير أن مالفت انتباهه واستنفر حواسه قاطبة ، رائحتها الأنثوية ، وهذه الرائحة أو ذاك العبير من المسائل الدقيقة ، من الصعب الاحاطة بكنهها أو مصدرها ، أو التعبير عنها بمفردات الكلام ، عرفها فى قلة ، كما صادفها فى امرأة مضمومة ، مدملجة ، حنون ، تبيع الهوى فى بيت قديم ناحية العباسية ، دهش وأدركه عجب ، اذ ظن الرائحة لاتنبعث الا عن كائن خص بوضع مكنون ، مستور ، فمن أين لهذه المرأة بها والرجال يتبدلون عليها فى اليوم الواحد مرات ، خاصة لما عرف عنها من رقة ، وعذوبة مجاوبة ، واحاطة بالموضوع ، ماشده اليها أنها كانت فواحة ، لها حضور ، وحنانها باد ، حتى أننى عاينت منه فى هذه الجهة مالم أره منه الا فى خلقه البديل ، عند مضاجعته لور ، اذ يدفس أنفه فى ثنايا شعرها ، ويمرغ الوجه على النهدين ، ويتمنى التلاشى .

هذه الرائحة الأنثوية عرفها داخل هذا القبو العتيق الممتد كالمهبل ، لم يكن اقترابه من سناء بدافع شهوة تحركت ، إنما بتأثير جذب غامض مبعثه هذه الرائحة ، بعد اجتيازهما القبو يتنفس بعمق ، غير أن رائحة سناء يتبدد بعض منها ، القبو لملمها وصانها .

لما خرجا الى ميدان بيت القاضى التفتت اليه ، تستفسر بصوت حيادى ؛

كم تبقى معك ؟ ، يهز رأسه ، لاشىء ، تقول : هيا بنا ، غير أنى لم أتبعها ، لم التفت الى الجهة التى غربت عندها ، ذلك اننى رأيت لور ، هى بعينها ، بأطيافها ، بحضورها الباسق ، تقف تحت شجرة من بلاد شمالية ، أما الأرض المغروسة فيها فضمن إقليم جنوبى ، وأما فروعها فممنتشرة فى فراغ مدينة تقوم حيث لاجهة يمكن تعيينها ، لور ، ظل الندى ، وصدى الخاطرة ، هذا وقتها الأرق ، وتلك وقفتها الشفيفة ، واطلالتها ذات السهوب .

هنا أكشف عن خبيئى ، ذلك أن لور هذا اسم أمر صاحبى وأصلى بتسميتها به ، اذ أنه كلف بالستر على أمور بعينها ، من بينها اسم هذه البنية ، فكتمته فى هذا التدوين ، أما إسمها الحقيقى فقد توزعت حروفه فى ثنايا مقام الاغتراب ، وجرى التلميح اليه خفية ، فمن رغب التدقيق والتحقيق فليراجع ماتم تدوينه .

لور تقف بين عناصر متباعدة متقاربة ..
فماذا جاء بها الى هذه الجهة ؟.
من أتى بها الى الزمن المبكر ؟.

ظمئت اليها ولم أرتو ، تقت ولم أهتد ، فحننت الى انتظارها قدومى ، وسنا عينيها اذ ترانى ، لم أعد قادرا على تتبع البنت التى صحبت أصلى فى هذا اليوم النائى ، أشرفت لور على الجهة كلها فلم يعد الا هى ، وتبدد ماعداها ، وقد كنت أنوى الحديث عن عزة التى أصبحت راقصة فيما بعد ، وكاميليا التى اجتازت عمرها بدون رفيق ، وثريا الجميلة الراسخة التى مضت الى بلد بعيد ، وعن محاسن التى أنجبت أحد عشر ذكرا واثنيين ، كلهن لزمن هذه الجهة ، غير أن ظهور لور أبدل الخطة ، لم يعد الا هى ، إنها الأصل ، غمرنى ماكان سيمر به أصلى ، ماأذهلنى أن الوقت انقضى ، واننى مختتم مشاهدتى هذه الجهة ، لابد من الاقلاع ، ولأننى راحل ، ماض قسرا ، فقد أنشدت :

أقطع الليل كله باكتئاب
وزفير فما أكاد أنام
نحو قومى اذ فرقت بيننا الدار
وحادت عن قصدها الأحلام

وأنشدت :

كفى حزنا فراقهم وأنى
غريب لا أزار ولا أزور

وهنا سمعت من ينادى :
«الزم ولا تحد .»

أتطلع اليه كابيا ، أدرك أن عهدى بهذه الجهة قد ولى ، واننى ماض الى، آخر الجهات المعلومة ومختتمها ..

★ ★ ★

الجهـــة الغربيـــــة

«والشمس تجرى لمستقر لها ..»

.. جئتها يصحبنى دليلى ، رأيت درجات الشفق ، بدايات الليل ، قرب اكتمال الغروب ، هنا أطلعنى دليلى على عدة كتب تخص والدىّ ، كتاب يحصى أنفاسهما ، يقرن كل نفس بموقفه ، وكتاب يحصى خطواتهما ، ويحدد مواطىء السعى ، وكتاب فيه كافة ماحلما به ، ان فى يقظتهما أو منامهما ، وكتاب يلخص مثيرات أحزانهما ، ملحق به فصل دون بواعث أفراحهما ، وكتاب حوى تفصيل كل ماوقع عليه بصرهما . لم أقرأ الا العناوين ، لم أحط بما دون ، لم أدر سبب اطلاعى على عناوين هذه الكتب دون الوقوف على تفاصيلها ، أو الالمام بما احتوته ، ولىّ فضولى اذ أطلعنى بسرعة على لحظات متباعدة ، متفرقة ، غير أننى أشهدتها متجاورة ، كل منها تعقب الأخرى ، برغم إنتماء هذه إلى حقبة وتلك الى أخرى ، فما أبلغ النفار ، وأعمق التضاد !.

رأيت فى لحظة حرقة أصلى على الفراق حتى ظننته يوشك أن يهلك ، فى لحظة أُخرى يستعيد ماكان ثم ينسى ، فى الثالثة يسعى الى المثوى ، حتى اذا دنا واستوى جالسا تذكر وسعى فبكى ، وفى الرابعة يمشى قاصدا زيارة المثوى غير أن فكره يسعى متطرقا الى أمور شتى ، أدهشنى تفكيره فى مقدار الشقة التى ينوء بها اذ يمضى الى مرقدهما ، تلك لحظة أخرى ، يهب عليه حزن مفاجىء فيطرق حتى يكاد يقعى ، أما هذه اللحظة فتمت الى فجر عيد الأضحى ، إنه يستيقظ مرهقا واذا به يتثاءب ويتمطى ، يقول إن القيظ فى الخارج لشديد ، ذهابه سيكلفه عسرا .

هاهوذا يدخل البيت الذى عاش معهما فيه ، الذى خرجا منه الى الأبدية ، فلا تطوف به صورة ولاترد عليه ذكرى ، هاهوذا يمضى . الأوجاع العتيقة ، والأزمنة التى كانت مألوفة نائية ، يقسم برحمة أمه وأبيه ، القسم الذى تجنبه طويلا ، الذى عاف النطق به وخشى ، صار عنده مألوفا ، يقسم به صدقا وأحيانا كذبا ، فهل عاد كالعرجون القديم ؟

أتساءل :

هل اكتمل الغروب .. هل دنت لحظة يبدو فيها ماكان كأنه لم يكن ؟.

لا اجابة من مرشدى ، إنما يتردد فى سمعى قول قديم للأم ، لم أدر متى قالته أو مناسبة قوله ، حتى أننى ظننت مصدره جهة الغروب ذاتها .

تقول متأسية :

«أصل الانسان نسّاى ياولدى ..»

أستعيد من وجودى القديم ماحيرنى وأثار عندى ماأثار ، ذلك أن طريقى اليومى كان يمر بموضع المقابر خارج المدينة ولسبع سنوات متصلة صباح كل ثلاثاء ، وأمام شاهد محدد ، أرى امرأة شابة وحيدة تجثو ، تذرف دمعا ، تنحنى فى مناجاة صامتة ، لاأدرى مما تقول شيئا ، ولم ينقطع عهدى بها الا بعد نأيى عن هذا الطريق ، فمالأصلى تبهت عنده الأصول ، ولم يتم من الأعوام الا خمسة على رحيل الوالد الكريم .

يقولون إن الدنيا تشغل الانسان حتى عن ذاته !.
انى غير مقتنع ، غير متقبل لما اطلعت عليه .

يجىء مرشدى الى موضع غروب الشمس ، مارآه أصلى من فوق السطح عند تطلعه ، فمن ذلك بؤرة المدينة ، مركزها ومبانيها ، مصدر الأصوات المتداخلة ، المندغمة ، أرى أفقا مشربا بحمرة ، خفيفة وردية ، غامقة ، ثم ياقوتية تتدرج الى سواد ، فى لحظات معينة بعد ميل الشمس يشف الفراغ ويخف ، فتصح الرؤية وتمتد ، يرى الأهرامات الثلاثة كالظلال عند حد الأفق ، لايحول دون بصره حائل ، كثيرا ماتوقف الوالد وحدق ، أمعن البصر ، لاينطق ، لاأدرى فى أى الأمور فكر وتأمل ، ولى هذا تماما ، اندثر ..

يطلعنى دليلى على من جاء الى هذا السطح وعبر ، فهذا رجل من جهينة ، خرج الوالد عند صلاة الفجر فلقيه بجوار ضريح الحبيب الحسين ، بدا متعبا ، ضائعا ، سكته صعبة ، وماله قليل ، فأقسم الأب واصطحبه . الرجل ليس

غريبا ، يمت بقرابة الى الوالدين ، مد الأب حبلا فى وسط الغرفة ، ثبت اليه ملاءة حجبت نصف المساحة ، أقام الرجل ليلتين ، فى الصباح يخرج مع الأب ، يفترقان عند الامام الحسين ، يسعى كل منهما ، وفى المغرب يلتقيان ، ترقبهما الأم أثناء العشاء ، بعد شرب أكواب الشاى الثقيلة ، يتمددان ، تنسحب الى ماوراء الملاءة ، يتمدد أصلى بجوارها ، وصغير لاأتبين ملامحه ، فلا أدرى ، أهو كمال أم اسماعيل .

الغرفة تفيض برائحة الضيف ، العرق الممتزج بنسيج الصوف ، يغيب الرجل ، غير أنه يتردد من حين الى آخر ، شال عمامته أصبح نظيفا ، ملامحه أقل اجهادا ، عنده تجارة ، وشونة غلال ، ومال وخير وفير ، من المدينة تزوج بامرأة أخرى ، قاهرية ، بيضاء شعرها طويل ، مكشوف ، قال إن وجهها ذو فأل حسن عليه ، تباعدت زياراته ، ثم جاء زمن انقطع فيه عن المجىء ، غير أن الوالد لم يكف عن زيارته ، وعندما علم بخبر المقبرة التى بناها قرب ضريح الإمام الشافعى ، قال موصيا اياه : ادفنى هناك . فليس لنا مأوى ، ضحك الرجل قائلا ، ياسلام ياأحمد .. انت ستشيعنا كلنا ، وقد كان !. اذ مشى أبى فى جنازته ، وليلة العزاء وقف بجوار الأولاد يصافح من قدموا وهم كثير ، غير أن المقام لم يطل به ، بعد أربع سنوات أتم طريقه ، وبدأ هجرته الكبرى ورقد على مقربة من الرجل .

أشار دليلى الى رجل بدين أصلع ، قال إن اسمه الطيب ، إنه يجلس فوق حشية أمام باب الحجرة ، أصلى يقعد الى جانبه ، يتلقى درسا ، خشى الأب ألا ينجح فى امتحان نهاية العام ، غير أن جمال رجا الوالد أن يدعه يتم دراسته بدون مساعدة ، لم يجىء الطيب الا مرة واحدة ، إنها التى رأيته فيها ، هل استجاب الوالد لرجاء الابن . أم أنه انقطع لسبب آخر ؟. هذا مالم أقف عليه ، غير أننى علمت متعجبا ، دهشا أن أصلى عاش حتى بدء اسرائه من مدينة فاس يذكر خطوط الرجل فى كراسته . كذا توقيعه ، لايقدر على استعادة وجهه ، أو ملامحه .. فما أعجب ذلك ! .

نبهنى دليلى الى عبد العال ، كان ينادى الوالدة قائلا : ياخالة . وهى ليست شقيقة أمه إنما تمت اليها بقرابة ، فى ملامحه شبه خفى منها ، إنه منتظم الزيارات ، لم ينقطع عن المجىء الى السطح ، أصلى يقعد بجواره ، يصغى مبهورا الى مايرويه عن قوم يعيشون فى الغابة ، يأكلون لحوم البشر بعد طهيهم أحياء ، إنه يشم رائحة عبد العال ، لماذا يوقن أن رائحتهم تشبه رائحته ؟.

بعد رحيل الوالد الكريم ، وذات يوم كان أصلى يهبط الدرج ، رأى عبد العال أمامه ، رأسه منخسف بين كتفيه ، هل صار أقصر ؟ ربما ، قال إنه تردد على العمل مرات ولم يجده ، دعاه الى مكتبه وان بدا متعجلا ، وعندما خاطبه فوجىء به يقول له : ياولد الخالة ، ثم بدأ يقول له ، سيادتك ، حضرتك ، فتحرج أصلى من ذلك ، هو الذى كان يجلس الى جواره طفلا غريرا يصغى الى مروياته ، ومايقصه عليه من أنباء العالم الذى كان فسيحا بقدر وقتئذ ، رجاه عبد العال بحكم الصلة ، والأيام المنقضية ألا يهمل شأنه ، عنده من الأولاد خمسة ، والراتب شحيح ، والظروف معسرة ، لولاحت أى فرصة للعمل ، للسفر .. لعله يعرف أحدا ذا صلة !

يطلعنى مرشدى على ابراهيم أبو الفضل ، إنه من الأقربين ، ممن رافقوا الوالد آجالا ، لم أره فى مقهى الفندق ، أو فى صلاة الجمعة ، أو فى لقائه الأسبوعى بالوالد أو فى بيته بالعباسية عند انجابه الابنة التى شهد أصلى زواجها بعد سنين طوال ، لا أراه عند عبوره ميدان الحسين ، لاأشهده مرتديا جلبابا بلديا ، يمضى فى القرية مرشحا نفسه ، ساعيا الى أصوات الناخبين ، الى جواره دائما الوالد ، إنما أراه عند عبور السطح منصرفا عقب افطار رمضانى ، يجلس أصلى الى جوار الأم وراء الباب ، يقول ابراهيم أبو الفضل : «تسلم يداك ياأم جمال .. الكنافة حلوة جدا ..»

حلوى الأم هذه لها شرح يطول ، اذ أنى ورثت عن أصلى تفضيله لها ، ودقة تذوقه لها ، ولأنى عشت رحيل الأم بدلا منه ، فقد افتقدت مذاقها ، صرت أبحث عنه بدون جدوى ، ولهذا تفصيل قادم ، أما ابراهيم هذا فعرفت برحيله

المفاجىء ، المباغت ، أفضى لى أحد أبناء البلدة بالنبأ ، وعندما جلست الى الأم وكان ذلك أول أيام عيد الفطر ، عندما صحبت امرأة أصلى وولديه الصغيرين ، أنا أبوهما ، رحت أتطلع الى وجه الأم الذى بدا منهكا ، متعبا ، يوشك أن يوفى المدة ، لكن من يدرى ومن يعلم ماذا سيصير غدا ؟. رأيت تعبها بعد صيامها شهر رمضان كله ، فى زمنها هذا كنت أدنو منها ، معها وبها أوشك على مصالحة ذاتى على ذاتى ، كنت أرقب حمرة الغروب ، ولا أعلم ، أرقب دنو الليل واكتماله قلت :

«البقاء فى حياتك ..»
«من ؟» .
«ابراهيم أبو الفضل ..»
«ياه ...»

متأملة بدت ، رجتنى المضى الى أولاده ، ألا أهمل العزاء ، الرجل كان عزيزا على الوالد ، غاليا عنده ، أطرقت ، رأيها كدرة ، ندمت على إخبارى لها ، ماخفف عنى أننى لم أقدم الا على مايطابق جبلة أصلى وجوهره ، هنا أطلعنى مرشدى على كل من وفد الى السطح ، أشار اليهم ، سماهم . أدركت أن أوانا انتهى ، ان مايشبه الشفق يولى ، وأننى أجتاز الحد الذى يبدأ بعده الغسق ، واننى مقدم على طور أعانى فيه ماأعانى ، ليس باعتبارى بديلا لجمال ، أو صورة منه ، أو ظلاله ، ولكننى باعتبارى أنا أنا ، عندئذ يتغير الحال ، وتلوح الحقائق ، فليس من تكلم عن نفسه كمن أخبر عن غيره ، ليست الثكلى كالنائحة المستأجرة ، وليس من شرب ماء بئر واحدة كمن شرب من آبار ، متى ستحقق ذلك ؟ مطلب هذا وعر ، صعب ، ولكن مع تحول الأضواء الى عتمة كابية ، مع قرب اكتمال الغروب ، ومضى الشمس بعيدا ، وحاجتى تتزايد مع مجىء الليل الى الرفقة ، تعمق وحدتى ، أدرك بحس خفى أن ماظننته بعيدا يدنو ، غير أن اكتمال الغروب يجب أن أشهده حتى أقف على بعض مما احتوته هذه الجهة .

أرى صاحب البيت ، قصير القامة ، ممتلئا ، الشيخ حسين ، يقف عند منتصف السطح ، الى جواره رجلان ، أحدهما يرتدى جلبابا ، يشيران ، يقيسان ، وعند لحظة بعينها يخطو الشيخ ليقيس السطح بخطواته بعد أن شمر جبته قليلا ، الأب ، الأم ، مطرقان ، مهمومان ، أمر لم يعدا له العدة ، لايقدران على منعه ، على رده ، شرع صاحب البيت فى بناء ثلاث حجرات من الخشب «البغدادلى» المطلى بالجير والجص ، ستكون دورة المياه للجميع ، هذا مالم يعدا له العدة ، لم يتوقعا حدوثه يوما ، آن لفراغ السطح أن يتبدد ، وقعدة العصر ألا تتكرر ، والإبحار مع النظر عبر السبل المؤدية الى الأفق .

الشيخ حسين صاحب البيت ، متصرف فيه ، شاء بناء السطح وسيفعل ، إنه ليس مستأجرا يمكن منعه من الصعود، إن عهدا ينقضى ، ستقوم جدران ، ستسد الجهة الشمالية ، لن يمكن القعاد فى شمس الشتاء ، أو الوقوف والتحديق الصامت الى تلك الجهات ، سيجىء غرباء ، سيصغى كل منهم الى تقلبه فى فراشه سيسمع تردد أنفاسهم ، دورة المياه لن يلقاها متاحة عند الضرورة ، سيقف رجل غريب ، فضولى ، متخيل ، ينتظر بينما امرأته تقضى حاجتها .

منذ أعوام لم يرض بسكنى حجرة تشترك فى دورة مياه مع حجرات أخرى مع أن الحال كان معسرا ، ضنكا ، هل يقبل الآن وأطفاله أربعة والحال ميسور بعض الشىء ، واقع جثم عليه ، لايمكنه دفعه ، لكن كيف الانتقال الى مسكن آخر ؟ العثور على ايجار زهيد مماثل مستحيل الآن ، أى الأمور تخفيها الأيام ؟، لم يمض وقت طويل حتى ظهر البناءون جاءوا بألواح الخشب ، وأكياس الجير ، وصفوا علبا شتى ، وصناديق ، بعضها صغير ، والبعض كبير ، أوصى امرأته ألا تخرج الى السطح ، غرباء لايعرفهم ، أوقات طويلة انقضت والباب مغلق ، لاتفتح الا عند عودة جمال من المدرسة ، تبقى النافذة مفتوحة ، لولا صحبة العيال ، وانشغالها بهم ، وهذه النافذة المطلة على البيوت ، لتشابهت الأوقات ، يسعى الأب ، لكن أين المأوى المناسب ؟. الأمر يحتاج الى جهد وبذل مال .

أخيرا اكتملت الحجرات ، قامت فوق فراغ السطح ، سدت الجهات الأخرى ، من خلف الباب تصغى الى قدوم المتفرجين ، يدخلون ، يتفقدون دورة المياه ، يسألون عن قاطنى هذه الحجرة فتسمع من يقول لهم ، أناس فى حالهم طيبون .

فى احدى الليالى ترددت فوق السلم خطى ، اتجهت عبر السطح الى جهة الغرف الجديدة ، أطل الأب مستطلعا ، رأى شابا ، إنه أسمر ، غزير الشعر ، ناعمه يحمل حقيبة ، قال إن اسمه عبد الهادى ، كاتب فى فرن أفرنجى ، قال إنه متزوج ، امرأته مقيمة فى قريتهما بمديرية الشرقية وأن والدها اشترط عليه تهيئة مسكن مناسب حتى يسمح لابنته بالذهاب الى مصر .

كان عبد الهادى يستيقظ مبكرا ، يسمع صوت قبقابه عند توجهه الى دورة المياه ، ثم ينصرف ، لايرجع الا بعد العشاء ، الحق أنه فى حاله ، لم يبدر منه مايزعج ، لكن ضيق الأب لم يتبدد ، هذا لايليق ، لو أن الأمر وصل الى البلدة لصارت جرسة ، ولد الغيطانى يسكن بجوار أعزب ، هذا ماسيقولونه ، الناس ألسنتهم طويلة .

فى ليلة طرق الباب ، فتح عبد الهادى بابه ، بدا مدغمس العينين ، يحمل لمبة غاز ، رأى الأب طبقا به بقايا فول ، بجواره كسرة خبز ، واجهه الأب بعينين مزرورتين ، طلب منه أن يقسم أنه متزوج ، فأقسم ، تناول حافظته من جلبابه ، فرد ورقة مؤكدا أنها وثيقه زواجه ، قال إنه يدبر أمره ، بعد أيام سيشترى سريرا ودولابا ، ثم يسافر الى البلدة ليعود بزوجته ، ابتسم وقال : يعنى ياعم أحمد .. هل أنا راض عن حياتى هذه ؟ قال الأب إنه مستعد كى يصحبه الى تاجر أثاث قديم ، يعيد ترميمها وطلاءها ، ويبيعها بثمن بخس .

فى اليوم التالى رجع مبكرا عن موعده ساعتين ، مضى بصحبة الوالد الى الحاج فؤاد بشارع أمير الجيوش ، تم الأمر ، بدت الغرفة ضيقة بعد نصب السرير الخشبى .

مر أسبوع ، أسبوعان ، فى كل عشية يستفسر الأب عن موعد وصول الزوجة ، حتى استيقظ صباح الجمعة ، قابل عبد الهادى خارجا من دورة المياه مبتلا ، نضرا ، قال مبتسما ، غامزا بعينه ، الجماعة وصلوا ياعم أحمد !.

فى اليوم نفسه زارت الأم جارتها الشابة التى وصلت ليلا ، لكم بدت حيية ، هادئة ، إنها جميلة ، شعرها أسود غزير ، لوجهها شفافية كمقل العصافير ، ملامحها متعة للناظرين ، قالت الأم : لو احتجت أى شيء ستجدينه ، اتبعت قولها اقراضها طبقا من الصاج ، لم يكن لديها الا طبق واحد ، ولما لاحظت أنها لاتمتلك طشتا لتغسل وتستحم فيه ، قالت أنها ستعيرها مالديها عندما تطلبه .

فى الليل قالت الأم : البنت هادئة وخجول ، ثم قالت : إنها غريبة ، ثم قالت : وأنا فى مصر غريبة ، عادت الأم الى قعدتها أمام الغرفة ، فى مواجهتها تجلس هدى ، هدى تزور الأم ، تدخل عليها نهارا مرات ، عند اقتراب عودة الأب تدخل كل منهما وتغيب عن نظر الأخرى ، تغيب المنغصات غير أن الأب لم يهدأ إنه يجد حرجا عند الخروج من دورة المياه ، لايمكنه النظر فى خط مستقيم ، كما أنه لم يقترب من عبد الهادى ، كما دنت الأم من هدى ، ثمة ماينفره منه ، يذكره بكثيرين من أبناء المدينة الذين تجنبهم ، ونأى عنهم ، ليت الأمر اقتصر على عبد الهادى !.

بعد زمن غير قصير بقيت فيه الغرفتان الأخريان خاليتين ، سكنتا فى أسبوع واحد ، بل فى يوم واحد ، استأجر الأولى رجل نقاش اسمه عيد ، جاء بزوجته وسبعة أطفال ، أما الأخرى فنزلها رجل عجوز يبيع الروائح العطرية عند ضريح الحبيب ، وأحيانا داخله ، إنه بمفرده ، وقد جاء بعدد من الأجولة ، وصناديق ورق مقوى ، وزجاجات فارغة ضاقت بها الغرفة ، وضع بعضها فى فراغ السطح الضيق .

أصوات عيد وامرأته وعياله تسمع حتى ساعة متأخرة من الليل ، كما أنهم

يشغلون دورة المياه أوقاتا طويلة ، امرأته محبة للشجار ، تحرشت بالأم مرات ، غير أنها تجنبتها ، أما هدى فلم تفلت منها ، علا صوتها مهددة بضرب فرجها وقص شعرها ، وعندما عاد عبد الهادى أول الليل كاد أن يطرح عيد أرضا ، لولا تدخل الأب ودعوته كلا منهما أن يذكر ربه كثيرا ، أن يهدىء حاله .

فوق السلم ، قال الهجرسى للأب :

«لم يعد السطح مناسبا لك ياأحمد ..»

بعض زملائه من السعاة أخبروه عن مساكن مناسبة قرب الوزارة ، أو فى الهرم ، غير أنه أبى ، لن ينأى عن ضريح الحبيب الحسين ، قال إن روحه هناك .

أراه يقف فى شرفة بيت ، ينظر حوله متفحصا ، ويبدو أن الأم بصحبته لكننى لم أتمكن من التدقيق .

مشاهد عديدة تتوالى ، لاأتبين على وجه الدقة ماتحوى ، تتداخل الحدود ، وتذوب الملامح ، أضطر الى تقطيب عينى ، أتبين جاهدا الأم ، تلملم حاجاتها ، الأب انتهى لتوه من فك السرير ، والدولاب ، العربة التى يجرها حمار هزيل تقف تحت فى الحارة ، إنها لحظات الانتقال من طور الى طور ، من حال الى حال .

أعلم أن الأب أقدم على تأجير شقة صغيرة فى عمارة حديثة ، على ناصية الدرب الأصفر القريب الايجار خمسة جنيهات وربع ، أى مايتجاوز نصف راتبه الشهرى بقروش ، غير أنه مضطر ، الأم تستعد لمفارقة السطح ، جزء من عمرها موزع هنا ، فى هذه الغرفة جاءها المخاض ، فأرسلت جمال الى أم حليمة الداية ، جاءت المرأة ، وضعت وعاء الماء فوق الموقد ، هكذا وفدت نوال الى الدنيا ، نوال ابنتها الوحيدة ، مستودع سرها فيما بعد ، وأقرب الخلق منها ، لكن رغبت وتمنت من قبل أن تنجب ابنة ، فالابنة للأم غير الابن ، فى الغرفة أيضا جاء على ، آخر من أنجبت ، بعده أجهضت مرتين ، ختمت بعلى ، عانت فى ولادته وعانى معها ، عندما أطل على الوجود جزعت لمرأى رأسه المستطيل ، فزعت أكثر

لرجفاته المتتابعة ، حتى أنها أبدلت اسمه ثلاث مرات ، من محمود الى ابراهيم الى .. على ، بعد أن سمته عليا زالت الرجفات فرضيت بالأمر ..

هنا فوق السطح ، فى بقعة يقوم فوقها الآن جدران وسقف غرفة عبد الهادى بكت أمها ، سحت دموعها حزنا وألما ، إنها ظهيرة نائية من ذلك العام ، فوجئت برجوع أحمد من عمله مبكرا على غير العادة ، بدا متثاقلا ، مهموما ، إنها تعرفه ، لايمكنه اخفاء نبأ عنها ، وعندما قعد فى هذه البقعة بعينها ، جلست فى مواجهته ، استفسرت ، مالك ؟. قال : لاشىء ، قالت : لكنك على غير عادتك ؟، قال : لا ، بعد صمت لحظات لفظت السؤال الذى خشيت اجابته ، هل هناك مكروه فى البلدة ؟، تطلع اليها ، لايقدر أن يخفى ، أخرج من صديريته خطابا ، قال : أنت مؤمنة ياأم جمال ، صرخت ملتاعة : أمى ؟، مد الخطاب الى أصلى الذى وقف يرقب مايكون ، بدأ يقرأ الخطاب المرسل من خاله ، يخبر عن مرض الجدة عائشة مرضا طويلا ، وأنها طلبت منهم إخفاء ذلك عن ابنتها حتى لاتضطرب ولاتنخض ، حتى اشتد الأمر وطلع لها خراج كبير فى فخذها الأيسر ، فذهبوا بها الى طهطا ، الى أحسن طبيب فى البندر النائى ، قال أن الأوان تأخر ، وأن مرض السكر قديم ولم يعالج منذ بدئه ، عادوا بها الى جهينه ، لم يطل الأمر ، اذ شاء القدير على كل شىء ألا يطيل عذابها .

قبل آذان الفجر استرد صاحب الأمانة وديعته ، فمضت راضية مرضية ، لم تصرخ ، لم تلطم ، انما انقبضت ملامحها ، وضمر وجهها ، قالت بحس مكتوم وقعه أشد وأنكى من الزعيق والصراخ : آه ياأمى ، وبقيت فى بهت الى مابعد العصر ، حتى رجاها الوالد أن تبكى ، أن تلطم ، أن تشق ثيابها حتى ، وردد مايمكن قوله عن قضاء الله ، والموت الحق على كل انسان ، صحيح أن الفراق صعب ، لكنه قدر لاقبل لنا به ، ولا قدرة على رده ، ومن شاء غير ذلك يكون كافرا .

بقيت صامته ، التصق بها أصلى ، أدرك أن أمرا ثقيلا قد وقع ، وأنها المرة الأولى التى يواجه فيها مثل ذلك ، أيقن أنه لن يرى جدته مرة أخرى ، لن يستمع

اليها أبدا ، وكما لزمت أمه الصمت ، سكت هو ، فى الليل بكت الأم ، اهتز جسدها وكان نشيجها خافتا ، مرا ، وفى الصباح بدت عيناها محتقنتان ، مغيومتان ، غير أنها أعدت الشاى ، وأصرت على ذهاب أحمد الى شغله .

فوق هذا السطح ، فى قعدتها وفى عمق وحدتها أغفت ، جاءها والدها فى المنام ، مرتديا البياض ، بدا كما هو ، تماما كيوم خروجه ملبيا نداء الجمال ، لامس ذقنها بأطراف أصابعه ، طمأنها ، قال إن أمها فى أحسن حال ، وأوصاها ألا تبكى فالبكاء يؤلم الميت ، يؤذيه ، ويقلقل مضجعه الأبدى ، ولتقرأ لها فاتحة الكتاب الشريف ترحما عليها مساء كل جمعة ، لتذكرها بالخير أمام أولادها ، ولتذكر أن الدنيا لاتدوم ، قال ماقال ثم اختفى .

فى هذا الموضع قرب الجهة الشرقية كانت تجلس صباح يوم بعيد ترتق ثوبا ، على مقربة منها اسماعيل وجمال يطل الى الجهة الغربية ، عندما طنت حولها ذبابة غريبة ، زرقاء الجناحين كأنهما صيغا من ضوء شفيف ، رفعت أصبعها ملامسة فمها محذرة ، يجب الصمت ، الكف عن النطق ، خشعت ، دارت الذبابة مرات حولها ، حطت على كتفها ، ثم ارتفعت مولية ، بقيت ساكنة تترقب فلما أيقنت من نأيها ، من ذهابها ، قالت : إنها روح جدتكما جاءت لتزورنا ! .

بالضبط كان ذلك فى هذا الموضع ، انها تنزل الدرج ، تحمل حقيبة ، تولى ظهرها لعمر أتم ، لن تصعده مرة أخرى ، فلم تعد الى السطح أبدا ولن تصافح جاراتها ، توغل فى النزول ، منتقلة من طور الى طور ، من زمن الى زمن من مكان الى آخر ، ومنذ هذه اللحظة رضيت ونفرت ابتعدت واقتربت ، تقلبت فى أمور شتى ، تعاقبت عليها مشاعر لاحصر لها ، ونزلت مساكن شتى ، وكل سكن وعاء لزمن ، اكتسبت كافة مامر به أصلى ، وهو غزير ، غريب .

لكم كان بودى أن أطلعكم على المراحل كلها ، أن أقف بكم عند كل محط ومستقر ، لكن مع اكتمال الغروب ضاعت ملامح الجهة الغربية ، ونوديت أن أولى شطر مشارف الهجير الأعظم ، أمر صدر ، وكان على أن أمتثل ، كما أننى

نهيت عن التصريح ، وأن أبقى مادونته تحت عنوان «السرائر والقول» مكتما ، أن أصونه حتى يجيء الإذن ويلوح التصريح ، فأظهره ، وأشهر تفاصيله ، وأنشر ماحواه من أحداث وأحوال متى تلوح البشارة ؟ هذا ماأجهله الآن ، وإن كنت ملما بأن على الانسان أن يعلم الكثير حتى يدرك أنه لايعلم ، أما الآن فانني مأمور بالولوج الى حال الوداع ، يتقدمنى مرشدى الذى نهيت عن التصريح بهويته ، والوداع حال عزيز ، وعر صعب الاقتراب منه كذا الخروج عنه ، قدم لى على ماعداه ، وعندى لاحت لى منه بشائر الهداية ، واقتربت الذات من الذات ، فيه اتضحت نيتى ، وللنية فى الأمور سلطان عظيم ، مثل المسافر الذى يرد مدينة ويبقى مدة ، فانه لايصير مقيما مالم ينو الاقامة ، واذا نوى صار مقيما ، ومع ادراكى هذا عرفت أيضا أن كل ماهو عابر لايبقى ..

* * *

حال الـوداع

﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام ﴾

قرآن كريم

.. صال عليّ زمني ، وكرت أيامي ، فاستدلت الأمور الى أصولها ، ودنت الغصون الأقاصي من جذوعها ، قال الشيخ الأكبر ، ما أن التقى طرفا الدائرة حتى حدث المحيط . إذ يكتمل فانما يدل على نقطة الدائرة التى أوجدها ، فالمحيط يحفظ النقطة علما ، والنقطة تحفظه وجودا ، أمى كانت المحيط ، وأنا بمنزلة النقطة .. الاجابة فرع من السؤال ، والسؤال عويص ، منتهى الدائرة نقطة بدئها ، ينعطف الأول على الآخر ليتلاشى كل منهما ، فما حار أهل الحيرة سدى ، أمر عظيم ، وخطب جسيم ، المشهد عام ، والوجود طام ، الحكم نافذ ، أما اللحظة فحرجة .

هكذا ولجت الحال لحظة خروجى من باب البيت ، يرزؤنى ثقل غير مرئى ، قطعت الطريق الطويل غير مصدق ، عند دنوى تطلعت عبر النافذة الى شرفة صاحبى ، يوسف ، رأيته واقفا ، مرتديا حلته ، أم عياله ترتدى السواد ، ياسواد لباب حظى ، هذا نهار المحنة لم يزل بعد فى بدايته ، وقوفهما علامة ، طاف عندى خاطر ضعيف ، لعلها لم تتم بعد ، لعل النزع قائم ، وجهها مستسلم ، هادىء ، طريح ، أنا الذى لم أعتد رؤيتها هاجعة ، لعل ظلال الأنفاس باقية ، مترددة ، فيتاح تبادل عبارة ، أو مجاوبتها بنظرة، ذاك حسبى !.

يلقانى جار قريب ، أواجهه منحنيا ، مثقلا بما لايدرك ولايرى ، يوصينى بالصبر والشدة ، اذن .. يترسخ اليقين ، أصعد السلم مستندا الى الجدار ، هذه الدرجات نزلتها منذ عشر ساعات ، عندما جئتها مصطحبا عيالى مودعا ، اذ يجب عليّ الرحيل فجر اليوم التالى ، يصل الى مسمعى بكاء مكتوم ، نشيج متصل ، وبرغم اتشاحه بالجوى الملوع أتعرف على نحيب أختى ، تنادى أمنا أن

تقوم ، أن تنهض ، أن ترد عليها كما كانت ترد ، أمنا التى لم تتأخر عنا ، تسعى منا والينا ، ترجوها ألا تطيل رقادها هذا ، لقد طلع النهار ، وهى لم تقابل النهار نائمة أبدا .

باب المسكن مفتوح ، كأنه لم يغلق أبدا ، مباح للموت ، أجتازه ، أعبره الى داخل خلا منها ولم يخل بعد ، هى هنا وليست هنا ، وجود ولاوجود ، وهذا أشق مايواجهه انسان .

من عويل شقيقتى ، من قعدة جارتنا فوق الأريكة داخل الغرفة التى بقيت تخصنى حتى بعد انتقالى الى بيتى الجديد ، تتمدد فى الموضع عينه الذى أشغله كلما جئت ، فوق سريرى ، أتجه الى الشرفة ، أخشى لحظة المواجهة واليقين فأرجئها ، أميل الى الجدار ، يهمس القوم ، تجلد ، أنت الأخ الأكبر ، أخوك مريض ، أما اختك فتوشك أن تنفطر ، انها تقعى بجوار السرير ، تنشب أظافرها فى جلباب أمنا المهاجرة من هذا الكون ، نوال تأبى الحركة قيد أنملة منذ تمام الأمر وانقضاء الأجل، أما اسماعيل فيفصله عنا يباب شاسع ، انه هناك، انقضى على سفره أربعة شهور ، يطلب العلم فى الطرف الآخر من المحيط الأعظم ، باق على عودته ثلاثة شهور ، جئت اليه مودعا ليلة سفره ، لقيته مضطربا ، يشكو وجع المعدة ، رأيت الأم معصوبة بحزن عتيق لايبدو الا فى أوقات الشدة ، انها ضنينه بأوجاعها .

قالت لى : ان اسماعيل مريض ، وأمامه سفر طويل ، تطلعت اليها ، أدركت كم تعانى لتحجب ، والكتمان خصلة قديمة معها ، منذ وحدتها فى جهينة قبل أن يصحبها أبى الى مصر ، فى تتبعها لأحوالنا ، واحتفاظها بأحزانها لفراقنا ونأينا عنها ، وسكوتها عن فعالنا ، عدا ابدائها اللوم من بعيد ، وقعه علىّ أثقل من تصريحها ، قطعت رحلتها ساعية لأرضائنا ، وبث الطمأنينة عندنا ، وذبّ المكاره عنا ، وهنا أمر يطول شرحه ، غير اننى أكتفى بالاشارة ، ليس عن ترفع انما عن عجز .

في ليالى سهرى المنقضية ، المبادة ، أيام تحصيلى الدرس ، أو عند بدء المجاهدة لأعلم مالم أعلم ، لم تكن تغفو أبدا ، تقعد على مقربة ، تشارك بالحضور والصمت ، حتى اذا تمكن منها تعب ، ومال رأسها مثقلا ، مرغما ، فانها تفيق فجأة ، تفتح عينيها دهشة ، تحملق مبتسمة ، تؤكد بلفظ موجز ، دال ، « أنا صاحية » ثم تأوى الى سكون شديد ، على شفتيها نبأ بابتسامة ، فأى الصور ، أى البواعث ، أى الصور والأفكار أى ؟ . ياحرقة السؤال الذى لن يلقى اجابة أبدا .

قالت يوما لأم عيالى : عندما كنت أنده على جمال ولايجيبنى ، أعرف أنه مشغول ، مستغرق ، فلا أكرر النداء ، أما سعيها وكدها زمن العسر والمشقة ، فلا يمكن الإحاطة به ، أمى التى قضت زمنا مددا تجهل الدروب والشوارع وانعطافات النواصى . لاتخرج الا بصحبة أبى ، عرفت الطريق الى عبد الهادى البقال ، الى باعة الخضر ، الى جزار تخصص فى بيع لحم الابل رخيص السعر ، تلتف بملاءتها السوداء ، تتلفت حولها حذرة ، تعبر مسرعة ، ساعية فى الزحام ما أنا الا امتدادها ، فأنا منها ، وهى منى ، ذلك حشر علينا يسير .

حدثتنى الكاملة التى تم سعيها ، التى خلفت آثارا صعب على عيون الغرباء تبينها ، حدثتنى فقالت : « خرج أبوك يوما متعبا ، حاله ضنكا ، خفت عليه وخشيت ، فسعيت وراءه ، أدركته عند عبد المنعم البقال ، رأيته متهدل الأكتاف ، يرجوه أن يعطيه جبنا وبيضا . أن يصبر عليه يومين .. فقط يومان ، يقول له البقال : أبدا لن أبيعك بقرش واحد ، صعب علىّ حال أبيك ، أعلم ياولدى أن أوعر شيء عند المرأة أن ترى رجلها منكسرا ، أو مهانا ، شدّيت يده ، قلت بصوت مرتفع : تعال ياأحمد .. سيبك منه ، ياجمال .. أبوكم تعب ، أبوكم ذاق المر ، يومها قلت له أن يبيع السرير ، يمكننا النوم فوق الأرض ، لكن .. لايمكن أن يقف هذا الموقف أبدا » .

قبل سفر اسماعيل رصدت تشاؤمها ، لمحت وجلها ، حزنها الدفين ، لكم

بذلت من جهد ، أشد ماتخشاه أن تطفر من عينيها عبرة عند سفر ابن ، هذا نذير تتجنبه ، ألم تودع أمها مبتسمة عند خروجها من جهينة الى مصر ، مع أنها أخفت ماأخفت ، فكيف تدع اسماعيل ؟ كيف تتركه يرحل وآخر صورها عنده مبللة بالدمع ؟، سفره أرقها ، أعتم خواطرها ، والقى ظلالا على توقعاتها ، وأعتم زمنها الخاص المستعاد بالمخيلة ، غير أنها لم تبح .

قالت : أخوك مريض ، أنا قلقة عليه ، أمامه سفر طويل ، صحبته الى طبيب ، كشف وفحص وأشار بعلاج يسير ، نصح بالسفر ، انما الأمر اضطراب عصبى وله بالمعدة أعراض ، ودعت اسماعيل ليلة سفره ، وكما يحدث عند الفراق ، يكتشف الانسان انه لم يعرب عن كثير ، لم يفصح عن كنه مشاعره ، ان فرصا عديدة ضاعت ، يتمنى لو تأجل الأمر مقدارا هينا يعوض فيه مافات ، تحل أحزان غامضة ، هذا حالى وأنا الأخ الأكبر ، فما البال بحالها هى ، واسماعيل منها بمنزلة الضياء من العينين ، فهو مؤنسها وصحبها بعد زواجى ، وبعد رحيل الوالد الكريم ، مابال حالها هى المريضة بداء السكر منذ سبعة عشر عاما ، قبل سفره عانت ماعانت ، دارت بها الأرض ، راحت تهوى فى جب سحيق أسود ، حتى أيقنت أنه التفاف الساق بالساق ، وأن الفراق واقع .

كانت وحيدة فى ذلك العصر ، تصادف مجىء الجارة الطيبة ، أم محمد ، بعد افاقتها من غشيتها قصت ماجرى ، وماعن لها من رؤى ، طلبت منها أم محمد أن تتمدد .. عصرت ليمونتين ، قالت لها لابد من ذهابك الى طبيب كبير .

هنا لابد من وقفة . فهذا حذ مسلط علىّ ، ذلك انى دخلت عليها يوما ، زيارة من الزيارات التى كان أصلى يقوم بها ، استقبلتنى صامتة ، لم تقل لى مابها ، كنت آجىء — مثله — بادى التعب ، ماأرجوه أن أراها بخير ، فيسكن قلبى ، ويهدأ بالى لراحتى ، وهذا عين الأنانية ، ولب انفصالى عنها وعن ذاتى ، لكنه طبع جبل عليه أصلى ، ليس منى ، لايمت الى جوهرى العتيق ، وما أنا الا مأمور ، مكلف باتباع ماكان عليه أصلى ، ولو رمت إبدال أمر بأمر عسر ذلك وصعب .

رأيتها ساهمة واجمة ، فلما استفسرت لم تجبنى تصريحا ، لم تبادر بالافصاح ، فمن خصالها كتمان مابها حتى الأوان المواتى ، لاتفاجىء عزيزا ينبأ مزعج حال دخوله عليها ، انما تنتظر ، وشيئا فشيئا تبوح حذرة ، خشية منها وحرصا ، لم يغب عنى يومئذ سكوتها ، وتشقق نظراتها ، اذن .. ثمة أمر تحجبه ، لم يرث أصلى هذا عنها ، لم ينتقل اليه ، اذ كان يبدى ماعنده حال رؤيته لها ، لايبقى على أمر ولو لحظة ، لايلفظه على حاله ، انما يضخمه ، فتبدى الجزع وتصغى ، تعطف وتحنو ، تبذل الجهد الأتم لتخفف وتضمد .

سددت اليها البصر أثناء تناولى طعامى ، لم تنثن الّى ، لم تلتفت، هى التى تنتبه بمجرد تطلعى اليها حتى اذا كانت مولية الوجه والبصر بعيدا عنى ، خفت فتساءلت ، التفتت الىّ ، قالت باختصار :

« ياريت تشوف لى دكتور كويس ياجمال .. »

قالت إن علاج المستشفى لم يعد كافيا ، لاتلقى الاهتمام ، سكتت مقدار لحظة ، قالت :

« والله ، افتكرت نفسى راح أموت يوم الخميس ... »

قصت علىّ ماجرى ، غير أنها خففت الوقع ، انصرفت مهموما ، وعندما ابتعدت عن البيت استعدت عناقها لى ، ضمتها الأمومية ، مضيت الى المقهى ، قلت لواحد من أقرب الخلق الىّ ماأخبرتنى به ، حكيت عن لهجتها المختصرة الدالة ، المشوبة بنذير ، قال منبها ، ناصحا :

« جمال .. لاتهمل أمك .. »

استفسرت عن اسم طبيب كبير ، ذكر كل منهم اسما ، معددا فضائله، بعد أيام ثلاثة جئتها ، لم أكن بعد قد اتصلت بالطبيب ، حال دخولى عليها ، سألت :

« حجزت لى ؟ »

« أين ؟ »
قالت :
« عند طبيب .. »
قلت :
« الليلة سوف ... »
قاطعتنى معاتبة ، وفى الصوت مرارة :
« ألم أقل لك ، ألم أطلب منك ... »

هذا أقصى غضبها ، وأصعب عتابها ، تلك خيبة أملها ، كل فى ذروته ، فى أوجه، وأنا بمنزلة البليد، الصدىء، لماذا لم أفعل ؟ لماذا أجلت ؟ أوَمِثْل ذلك يحتمل الإرجاء ؟

قالت بعد لحظات :
« على أية حال .. اسماعيل ذهب بى الى طبيب فى مصر الجديدة .. »

عندئذ مربى ماكان سيشعر به أصلى ، راحة وانزياح ثقل لأن شقيقه قام بما وجب عليه هو ، وان بقيت خجلا ، أحيد بعينى وأنأى بنظراتى .

فيما بعد قصت علىّ بعضا من أنباء هذا الطبيب ، كيف يلقاها ؟ ترحيبه بها ، ايثاره لها ، أمره بدخولها عليه فور وصولها ، كان يقول لها أنها تذكره بأمه ، ليس فى الهيئة ، لكن فى الجوهر ، قبل سفر اسماعيل قالت لى أن الدوار البغيض فاجأها أثناء تأهبها للصعود الى العيادة ، تميعت أرضها ، واضطربت موجوداتها ، قالت :

« والله ياجمال أنا خائفة .. »

فيما بعد ، فيما تلا اكتمال المحنة ، حدثتنى شقيقتى ، وقد كانت أقربنا الى الكاملة، أختى التى يتردد عويلها الآن فى مسمعى، قالت : رأيت أمنا صباح يوم بعيد ساهمة ، كمدة ، قلت : ماذا بك ؟ لم تفض إلىّ ، انما هونت باشارة من

يدها ، لاشيء ، غير انى الححت ، فأفضت إلىّ بما أعثم وجودها ، قالت إنها رأت المرحومة عائشة ـــ قريبة لها ـــ فى المنام تبتسم وتدعوها أن تجىء ، أن تأتى ، ألا تهاب ، فخطت نحوها ، لامانع يوقفها أو يردها ، قلت لها ، دعك ياأمى من الأحلام انما هى هواجس ، ومادمت قد أفضيت بها ، فهذا يعنى فساد أثرها ، تطلعت إلىّ ، لم تجب ، قالت نوال اختى : كانت نذرا تلوح وبوارق تومض لكننا لم ننتبه !

عندما سافر اسماعيل لم تقل له ان قلبها ينبئها انها لن تراه مرة أخرى ، وأنه سيرجع فلن يلقاها ، انها سترحل قبل عودته ، لم تصرح ، ولم يطلعها انه أدرك جواها ، فسبحان علام الغيوم ، ودعته بقلب منفطر ، وفؤاد ملتاع ، غير انها كتمت فلم تبح ، سلت ابتسامة من أغوارها لتواجهه بها ، يجب أن يتذكرها مبتسمة ، انه ماض الى اغتراب ، ويا .. عالم متى يلتقى الحى بالحى ؟ فأى أرزاء ناء بها قلبها أى ؟ .

ماذا رأت من المرئيات عند خروجه ؟ كيف توالت دقات قلبها ، كيف شجا فؤادها عندما وصل زميله ليصحبه الى مطار الاقلاع ؟ كيف ترددت أنفاسها عندما اختفت السيارة من مجال بصرها ، عندما غاب عنها اسماعيل ، عندما غربت بالنسبة له وهى لم تزل بعد تسعى، عندما انقلبت الى عدم وهى بعد باقية ، كيف ؟ ، هذا مالن أعلمه أبدا ، هذا ماتوارى ، ماانطبقت عليه الغياهب ، بيانه مجهول ، غامض عندى ، مستعصى الكنه علىّ ، وعر الادراك ، ذلك اننى تقاعست ، فلم أودع اسماعيل، تحججت برحيله مبكرا ، ومنزل اقامتى البعيد .

فى اليوم نفسه جئت اليها ، أعرف قسوة نهارها ، فليس أطول ولاأثقل من يوم الفراق ، بادرتنى باللوم على غير عادتها :

« ليه ماجيتش الصبح لتسلم على اسماعيل ؟ »

تعثر نطقى ، قلت شيئا عن بعد المسافة ، وشيئا عن الوقت المبكر ، ثم حدث عن المجرى ، فقلت : لاتحزنى على سفر اسماعيل ، تقبليه بقلب راض سيرى الدنيا ، تعرفين انه تعب ، مرهق ، وأن فرص سفره قليلة ، هذه الشهور ستفرج عنه ، ادعى له بالسلامة . أومأت واجمة ، وعندما حان انصرافى قبلتها مودعا ، اذ كنت على سفر فى اليوم التالى ، سفرى لأيام ، ورحيله لشهور ، سفرى متكرر ، معتاد ، أما غربته فغير مألوفة لها ، ثم أنه هو المقيم بقربها ، خلا عالمها منا ، اسماعيل وأنا ، لايمكننى معرفة كنه الأيام الأولى بعد أن خوى البيت ، بعد أن صار انتظارها عقيما ، لاينتهى بوصول من تحب ، الثالثة ظهرا تدنو ، واسماعيل ناء ، الطريق قفر ، ممتد ، ولاأمل فى ظهوره بين العابرين ، عيناها لن تقعا على من تبغى رؤيته وتتمنى قربه .

حدثتنى اختى بعد أن وقعت الواقعة ، كأنها تكلم نفسها ، انها لمحت الغالية تفتح صوان الملابس يوما ، تقلب هدوم اسماعيل ، تنفض الغبار عنها ، تعدل وضعها ، تقربها من شفتيها ، تتحسس رائحتها بأنفها ، ثم تغمض عينيها ، تلف وجهها بقميصه ، تتنسم رائحته ، فهل كانت تدرى أنها لن تراه ، وانه لن يراها أبدا ؟ وانها عندما ودعته صباح ذلك اليوم البعيد من شهر مارس انها كانت تبدأ وداع الأقربين ؟ قالت نوال إنها كانت تنفض فراشه صباح كل يوم ، تنظف حاجاته ، ترتب كتبه ، وأوراقه ، وعلبه الصغيرة التى تحوى أسلاكا ومفاتيح دقاقا يستعين بها فى عمله ، ومصباحا يدويا ، وزجاجة عطر ، وفرشاة حلاقة ، ومنفضة صغيرة من بلاستيك اعتاد نش الذباب بها ، تنظف اطارات صوره ، كأنه سيرجع فى موعده ، تماما .. فى الثالثة ، أو الثالثة وبضع دقائق ان تأخر .

فى الليل تمر بغرفته تماما .. كما كانت تطمئن عليه بعد نومه واستغراقه أحيانا يعكم الفراغ قلبها فتولى داعية خالقها ، من بيده الأمر ، ألا يحرمها من طلته أبدا ، تتناول طعامها فى الوقت الذى اعتادته فى وجوده حوالى الرابعة بعد أن يكون قد فرغ هو ، وفى مطلع النهار تدلى السلة ليضع البائع الصحف التى اعتاد قراءتها ، أما أقسى أيامها فعطلات أيام الجمع الأسبوعية ، كان يتأخر فى نومه ،

لاتوقظه مبكرا ، كانت تجد الوقت والفرصة لتتحدث اليه ، لتفضى هى وليصغى هو ، فى هذه الأيام التى بدت لها باردة ، جوفاء ، تجلس فى الصالة صامتة ، راحلة بفكرها فى ثباتها ، مطرقة ، واذ يفيض بها الشجن ، وتشتد عليها أنواء الوحشة ترفع رأسها متنهدة متسائلة :

« ياترى .. أنت فين يااسماعيل ياولدى ؟ » .

فأى الصور ؟ أى الأفكار ؟ أى خلجات ؟ أى أحاسيس ؟ أى بواده ؟ أى هواجم ؟ أى شوق ؟ أى توق ؟ أى خوف ؟ أى رجاء ؟ أى مواقف متوالية انبعثت فجأة ثم ولت ؟ أى روائح عتيقة مرقت ؟ أى خواطر لم تلفظ ؟ وكم من حال — أرخى عليه العدم سدوله — فاض به وضج هذا الجثمان الذى سكن ، الذى همد ، الذى بدأ اقلاعه صوب الفناء والأبد ، محتويا رحما كان محل تكوينى ومبعث نشأتى ، أول موطن لى ، لايتقلب ، لايتهدج ، لايملك من أمره شيئا ، موجود وغير موجود ، فما أمر اللحظة ، وماأوعر الخطوة ؟ انى مضطرب ، مثقل .. أقوم ، أنقل خطى بطيئة صعب جرها ، أولى وجهى تجاه الحجرة ، على الأريكة تقعد جارتنا الجنوبية ، الطيبة ، بجوار السرير تقعى نوال ، ربنا لاتحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، أعوذ بك من كآبة المنظر ، وسوء المنقلب ، وعناء السفر ، ربنا لاتحملنا مالا طاقة لنا به .

تقول الجارة :

« نوال تأبى الابتعاد عنها .. هذا حالها منذ الفجر .. »

أدنو ، اقترب ، ألمس كتفها ، تقول الجارة :

« دعوه ينظر اليها .. »

ممددة هى ، مغطاة كلها بملاءة ثقيلة ، المرة الأولى التى أراك فيها نائمة ، اقترب فلا تنتبهين ، أدنو فلا تنهضين وعلى وجهك ابتسامة تخففين بها عنى وزر ازعاجك واقلاق نومك ، ازيح الملاءة ، أتطلع الى العمر الذى تم ، الى أصلى الذى ذوى ، الى جذرى الذى يبس وجف ، الى أول المحط ومنتهاه الى بداية

الدائرة وآخرها ، تغيرت ملامح كان عهدى بها طويلا ، غيّر النزع الشديد القسمات ، هذا عناء ، هذه مجاهدة ، العينان مغلقتان الى أبد آبد ، والفم مزموم بعد أن حاول دفع مالايمكن دفعه ، ونطق مالايمكن نطقه ، اليد منثنية ، والزبد الأبيض لم يجف بعد عند الشفة السفلى ، فأى ألم اجتاح الكيان الذى لم يعش الا ليحنو ، ولم يسع الا ليشفق .

الوشم الباهت يتوسط الذقن ، أما الشعر فرمادى ، معظمه أشيب ، المرة الأولى التى أراه فيها هى آخر مرة ، دائما كانت تغطى الرأس بعصابة ، لم أرها حاسرة قط الا فى هذه اللحظات النهائية ، كنت مأخوذا عنى ، غير أن أشياء كثيرة انحسرت لايسعنى ايرادها بتفاصيلها ، فى هذه اللحظة أدركت تمام الرحلة ، وانقضاء الشوط ، غير أن الأمر لم يكن عبثا ، لم يكن بددا ، انى أقف شاهدا على رقدة مابعد المجاهدة التى أثمرت وأعطت ، وتفرعت فى الكون سبلا شتى .

عند هذه اللحظة تمت المصالحة ، تم الدمج ، تم الحلول فى الحلول ، لم يعد بامكانى القول أنها أم أصلى ، انها أمى أنا ، جمال أنا ، وأنا هو ، لم يعد فى ناحية وأنا فى ناحية ، أمامها تمت المصالحة ، هى التى ولت ، هى التى لم تعد ترى ، ولاتصغى الى صاحب أو قريب حميم ، التقى المسعى بالسعى ، غير أن هذا تم بعد فوات الأوان ، وهنا أمر دقيق ، عسر تفصيله ، صعب بيانه ، ربما أفضت فى شرحه اذا سمح الدهر واذن لى بتدوين السرائر التى لم أفصح عنها والمخاطبات التى سكت عنها عمرا .

على مهل ، بدون قصد ملت على الجبين والوجه الذى تناثرت عليه بقع خضراء ، آثار النزع الوعر ، فماذا جنت ، وأى ذنب أتت حتى يكون تمامها مؤلما ، فظا ، قبلت الجبين الذى همدت حرارته ، وطويت ببصرى الملامح التى انطفأت ، والوجه المكدود ، الذى تقلصت ملامحه ، بين السماء والطارق .

على مهل سحبت الملاءة الثقيلة ، ورأيت العمر الذى ولى كشهاب

ثاقب ، قيظ يوليو يشتد ، والنهار يتقدم وئيدا ، بطيئا خرجت من الحجرة ، هنا فى هذا المكان ، بجوار تلك المنضدة كانت تجلس منذ ساعات ، أو الليل الفائت عندما جئتها لأسلم وأودع قبل سفر كان مقدرا له أن يبدأ بعد ساعات ، ومن عادتى اذا شرعت فى الرحيل ، الى خارج الوطن أو داخله ، أن أجيء فأسلم ، وأودع ، أتم ذلك فى اليوم الذى يسبق سفرى مباشرة ، فانظروا ياصحب الى التدبير المحكم فى الكون ، ذلك اننى قضيت يوم الجمعة بصحبة عيالى وأضمرت العزم والنية على الذهاب الى أمى غداة السبت للسلام ، قبل دنو الأصيل اتصل بى صاحب لى من أرض الحجاز ، قال إنه فى زيارة عابرة وانه ماض من بلد الى بلد ، يود لو رآنى ، حددنا للقائنا موعدا قبل الغروب، توجهت بالسؤال الى امرأتى ، أن تصحبنى مع عيالى ، نمر بالصاحب ، لمن أتأخر بصحبته الا دقائق معدودات ، ثم نمضى الى أمى ، أراها وترانى ، أودعها وتودعنى ، ثم ان ذهابى اليها بصحبة محمد ابنى وماجدة ابنتى أحسن وقعا عندها من ذهابى بمفردى غدا ، فلكم تحب رؤياهم ، وتحرص على ابقائهم .

منذ عشرة أيام ــ وقتئذ لم أكن أدرى أن العمر بقى منه عشرة لاغير ــ كان من المفروض أن أصحبهم اليها ، غير اننى خرجت مبكرا بمفردى الى اجتماع يخص سفرى هذا ، مضيت وحيدا اليها ، ولما دخلت رأيتها تجلس فوق الأرض ، تعد باذنجانا أبيض محشوا يحبه ولدى حبا جما ويطلبه منها عند مجيئه اليها ، تساءلت :

« أمال فين الأولاد ؟ .. »

تضمن صوتها لوما ومرارة رحت أبدى أعذارا شتى ، دخلت الغرفة ، لامست الموضع الذى تتمدد فوقه الآن ، رجف قلبى فجأة ، سؤالها عنهم فيه حدة لم اعتدها منها ، لوحت بيدها غاضبة ، نافثة آهة حزن ، لم تخف ، لم تدار ضيقها ، حتى انها تبعتنى ، ولامتنى ، وأبدت الغضب ، مما دفع بالحرج والحيرة عندى ، فقلت مخاطبا شقيقتى :

« يظهر ان أمي غاضبة عليّ أكثر من أي مرة ، سأنصرف وأرجع بعد أن تهدأ ... »

كنت ألوح بمالن تقبله ، بل أهدد بما أعلم ردة فعلها عليه ، بمالن ترضى به ، وكما توقعت ، عادت اليّ ، اقتربت منى ، وانحنت حتى كاد وجهها يلامس وجهى ..

« ماتزعل منى ياجمال ياولدى .. كان نفسى أشوف ماجدة ومحمد .. أصلهم وحشونى .. »

لماذا تكاسلت ، لماذا تقاعست عن صحبتهما ، لماذا ؟ لماذا حلت بينها وبين أمر بسيط ، كان سيرضيها ، ويهدىء خاطرها ، لماذا ؟ هذا مافات أوان استدراكه ، مالفت نظرى غضبها منى ذاك اليوم ، وان تظهر ماأظهرت فهذا يعنى أن بداخلها أضعافا مضاعفة ، فأى الأمور وارتها ولم تعلنها أبدا ، هذا ماضاع منى الى أبد ! ، وسبحان من ألهمنى صحبة ولدى مغرب هذه الجمعة ، أهو وحى خفى بحكم نشأتى القديمة ، أو بحكم طورى الجديد ؟ ، لم تكن المصالحة قد تمت بعد ، فالى أيهما يمت الخاطر الطيب ، الذى جعلنى أصحب عائلتى ، وأمضى لأسلم وأودع وداعا لم أدر أنه الأخير ، عندما رأيتها تقف بالمدخل كان النظر القصير يكشف لى أن ماتبقى على سفرى ست وثلاثين ساعة ، ولكننى كنت جاهلا بالموضع الذى ستكون فيه مساء الغد ، ليت الانسان يعلم بما ليس يدرى ، أتت بما عندها من مشروب طيب وفاكهة ، ولما أبدت زوجتى رغبتها فى شرب فنجان من القهوة ، أسرعت تعده لها ، لم نتكلم الا قليلا ، طوال الوقت تسند وجنتها الى راحتها ، توزع النظر بيننا ، وأى نظر ؟ أى نظر ؟ كانت بالجانب الغربى وماكنا بالعالمين ، كان يدنو بها العمر ونحن جهال لانعى الاشارة التى تنطوى عليها هذه النظرة ، لم يتوقف الخاطر أمام طبيعتها وكنهها وسرها الدفين ، والنبوءة ، والمعنى الذى يعز فهمه ، وان أثارت عندى رجعا بعيدا وأصداء استعصى عليّ تفسيرها ، أطالت التحديق شأن من يتزود برؤى لن تقع عليها عينيه قط ، أو من توقن باقلاع وشيك لاإياب منه ولاعودة فتسعى الى التزود قدر

الاستطاعة بملامح الأحبة الأقربين ، تقف عند نهاية عمر أشرف على التمام ، غمرها الشوق ، فانبعثت ترنو الى الأم ، حدثتنى امرأتى فيما بعد فقالت : كلما تذكرت سلامها علينا بنظراتها ، وطواف عينيها بنا واحدا ، واحدا ، تدركنى رجفة ، كيف لم ندرك ، كيف لم نفهم ؟ .

عند هذه النظرة وقفة ، واطلالة ، ومحاولة تلمس ، فالمعانى عديدة وليست مفردة ، أدق وأرق من أن تلمح ، مستعصية على الرصد ، غير أنى باذل جل الجهد للمحاولة ، أقول انها حوت الدعة والرقة والسلام الأبدى ، سلام يحل بمن يشعر أنه صار قاب قوسين أو أدنى ، فيها الوعى بالفراغ من أمر هذا الكون المرئى ، فما من تبدل بعد ، مامن تغير ، مامن غضب آت ، أو ضغينة يحملها المرء أو يضمرها له غير مترصد ، سلام أبدى فيه بيان للناس ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر فيها الأسى على مالم يتحقق ، والحسرة لفراق الأحبة ، والقلق الممض على ماينتظرهم وخشية المجهول !

ربما يصح قولى هذا ، وقد لايصح ، غير أن ماأقوله أنا جمال ابنها ووالد حفيديها ، أن تلك النظرة استقرت عندى فى قرار مكين ، اختصرت ماعداها ، دخلت غرفة شقيقى الغائب ، قلت أنى تعب ، قالت : لاتتعب نفسك ياجمال، وهوّن من الأمر، ثم قالت : خد بالك من نفسك ، لم أدر أنها تقول آخر وصاياها، أنّى لى العلم؟ عندما دنا الحين ، قلت أن طريقنا طويل ، والليل يوغل، واننا سنعرج على حسن صاحبى الذى جاء من بلاد نائية حيث يعمل ويقيم ، وأنا على سفر ، سأرجع فلا ألقاه ، مامن فرصة متاحة لرؤيته الا الليلة ، ودعتنا ، صافحت وسلمت وعانقتنا، ضممتها الىّ، حتى نفذت رائحة شعرها الى أنفى، قبلت رأسها ، حتى انها قالت لشقيقتى بعد انصراف : « جمال سلم علىّ واحتضننى بشدة .. أرجعه الله سالما » . لوحت لها من الطريق ، نفس الموضع الذى رأيت منه أبى من قبل ، تلك الجمعة الأخيرة ، عندما دارت العربة مبتعدة ، تذكرت فجأة دواء الضغط، طال بحثى عنه حتى عثرت عليه فى الصيدلية القريبة من عملى ، دواء شحيح فى الأسواق ، قلت لزوجتى ارجعى ، نسيت الدواء

معى ، وقفت تحت الشرفة ، صحت مناديا ، أطلت ، طلبت منها أن تدلى السلة لأضع فيها الدواء ، رأيت يديها مرفوعتين ممسكتين بالسلة ، صحت بعد أن وضعت الدواء :

« ارفعيها ياأمى .. »

جاءنى صوتها ..

« مع السلامة ياجمال .. »

ثم جاءنى مرة ثانية :

« مع السلامة .. »

ثم وصل سمعى لآخر مرة :

« مع السلامة ياجمال .. »

هذا آخر عهدى ، ومنقطعى ، ومختتم سماعى لصوتها .

ركبت العربة ، انىّ لى أن أعرف أن شمس اليوم التالى لن تطلع عليها ، انىّ لى النفاذ الى ماستجىء به الساعات القادمة ؟ . آه .. ليت الجاهل يعلم بما ليس يدرى . أنّى لى ذلك ؟ .

زرت صاحبى ، انصرفنا ، سلكنا الطريق ، تمددت فوق الفراش متعبا ، علىّ أن استيقظ مبكرا ، ثمة أمور يجب أن أقضيها فى الغد ، رحت فى النوم مقدار ساعة ، أو ساعتين ، صحوت على نداء زوجتى ، مابين الاغفاء واليقظة سمعتها تقول ان بنتا اسمها منى تحدثت ، وقالت إن شقيقى على سوف يتصل ، تساءلت ، من منى هذه ؟ من ؟ غير انى توجست ، أدرت قرص الهاتف ، أيقظت يوسف صاحبى ، من قدر له أن يشهد رحيل أبى ، تساءلت : أثمة أمر غير عادى فى البيت ؟ قال إنه لايدرى ، طلب أن أمهله حتى يطل من الشرفة ، اذ يمكنه رؤية النوافذ الخلفية ، عاد ليخبرنى أن النور مضاء ، ثم قال إنه سينزل الى هناك ليستطلع الأمر ، وضعت السماعة وقد بدأ انحنائى ، رن الجرس ، جاءنى صوت شقيقى ، قال ان أمنا تعبة ، وان الطبيب جاء ، وقال إن النبض ضعيف ، قلت : انقلوها الى المستشفى القريب ، وانى لقادم. اذ صمت الليل فى مسمعى ،

قلت لامرأتى : « أمى ماتت » ، ثم قلت « أمى ماتت » ، مامن خبر يقين ، لكن حدسى أكد لى وقوع الواقعة التى ليس لها كاشفة ، نطقت بدون حذر ، لم أتردد فى التصريح بالموت .

فى الطريق والفجر مقترب كنت أميل الى الأمام ، كأنى أحاول تلمس مدى أوسع للرؤية ، ماذا جرى ؟، لماذا يكون موتنا دائما عند الفجر ، لماذا نفارق العالم فجأة ، هكذا رحل أبى ، وهكذا أمى ، عندما تسارعت أنفاسها ، وارتفع الشخير ذو النذير ، راحت تتطلع الى نوال أختى وعلى أخى ، وجاراتنا اللاتى جئن فى هذا الهزيع الليلى ، تبسط يدها ، تصارع قوى غامضة ، لانراها ، لانعرف كنهها ، وعندما برز لسانها قليلا أمكنها التفوه بكلمتين ، « هاتوا لى جمال .. » ، ثم أغمضت العينين وانقلبت متمددة فوق السرير ، وجهها الى الجدار ، منهية الرحلة ، مختتمة السفر ، وانا لمنقلبون كما انقلبت .

هذا أنا أجرجر خطاى، الباب مازال مفتوحا، المقاعد مضطربة، فوق أحدها طرحة أمى ، كل ماوضعته فى مكانه حتى ليلة الأمس باق حتى تلملمه الأيدى وينزوى فلا يراه انسان أبدا ، صعدت السلم الى مسكن الجارة حيث الهاتف ، أدرت القرص ، لابد من الاتصال بأقاربى الذين استضافوا جثمان والدى فى مقبرتهم ، هاتف كبيرهم عوض لايرد ، أدرت رقما آخر لشقيقه الأصغر الذى يسكن بعيدا عنه ، جاءنى صوته مثقلا بالنوم ، قال إن هاتف الحاج عوض معطل ، فاعتذرت ، أدرت قرص صاحب لى من الأقربين ساعيا الى المدد ، لكنه لم يجبنى ، نزلت الدرج .

تنوح شقيقتى ، تؤكد انها نائمة ، وانها سوف تجيبها ، وأن ماجرى كابوس ، ملت عليها ، رجوتها أن تحافظ على أمنا ، أن تساعدنى حتى يكون رحيلها كريما ، أن تدعها هادئة فى رقدتها ، ثم تساءلت : هل تظنين أنها راضية الآن عما تفعلينه ؟ .. لاأظن ! ، بذلت المحاولة حتى فككت يدها عن ثوب أمى ، ساعدتها على الانتقال الى الحجرة الأخرى ، باكية نائحة ، والجارات بصحبتها، أغلقت الباب ، أمى وحيدة الآن ، كما ستكون بمفردها الليلة ، نائية

عنا ، مطوية طى السجل للكتب ، أما مايجب مواصلته الآن فتجهيزها للرحلة ، ومعاونتها على المضى الى المثوى ، فمن سيعيننى ، من سيرعانى ؟ ، وددت كشف وجهها ، ومخاطبتها ، تمنيت أن أقول لها مالم أقله ، ان ابنك ــ الذى هو أصلى ــ رحل منذ زمن بعيد ، وانك عشت أمدا غير قليل ، وأنت ثكلى ، ولاتدرين ، لعلك تعلمين الآن ، لم تبكيه عند رحيله ، جئتك بدلا عنه ، فلم تخاطبى الا صورته ، ولم تحنى الا على بديله ، كنت قريبة منى ، وكنت نائيا عنك .

جال هذا كله بذهنى ، غير انى لم ألفظ كلمة واحدة من مضمون الخاطر ، ذلك أنى أدركت برحيلها مالم أدركه فى سعيها ، اذ صالحت ذاتى على ذاتى ، وحللت فى الموضع الذى لايمكن تحديده ، كى أكون ابنها ، لايعذبنى وعيى اننى لست هو ، ولايضنينى انها أم غريبة عنى ، ولى هذا كله لكن بعد أن أكتمل يتمى ، وانقضى الأوان المقدر ، ذلك هو الفوت الأعظم ، فمن اغتراب الى اغتراب ، ومن فقد الى فقد ، ذاك أمرى ! .

أولى ظهرى للبيت الذى ستخرج منه أمى بعد زمن قصير الى أبد آبد ، يرفقنى صاحبى ، وجار طيب آثر ألا يفارقنى ، سعينا الى الأقارب ، من استضافوا أبى فى رقدته الأخيرة، صباح حار ، والطريق يمر قرب المرقد والمحط الأخير لرحلتها ، بعد قليل ستوارى المجاهدة فى هذه الجهة ولا يكون سعيى اليها من بعد الا لمجابهة الصمت ، والوقوف عند حافة العدم ، فالله العون والعصمة ، فناء لايجرى عليه التبديل ، وبقاء لايقبل التغيير ، فلا الفانى يصير باقيا حتى يكون الوصل ، ولا الباقى يصير فانيا حتى يتم القرب ! .

أطرق الأبواب المغلقة ، لا أعرف بيت الحاج عوض ، أقصد بيت شاب أجهل درجة قرابتى منه ، تفتح الباب امرأته الشابة ، ترتدى ثياب النوم ، مكشوفة الذراعين ، طالة النهدين ، فتية ، عفية ، ملامحها ولهجتها تنبىء انها من البلدة ، كذا لهجتها ، قلت دامعا أن أمى رحلت ، وانني أريد الوصول الى بيت الحاج ، انى أجهل الطريق اليه ، تبدى جزعا ، تطلب منى الدخول حتى توقظ زوجها ، تولى ظهرها لنا ، أعجب وأخجل من تعلق نظرى برد فيها !، ومنطوق

جسدها ، أمازلت منفصلا ؟ غير ان واردا هب عليّ فأدمانى ، اذ ذكرت مجىء أمى من البلدة ، أيامها الأولى فى المدينة ، غير انها بقيت غريبة ، لابيت لها ، ولت هذه الأيام ، قفل عليها ، كذا سعيها فى الأسواق ، ترى .. أى يوم جاءت فيه من البلدة ؟ أهو سبت كيوم رحيلها هذا ؟ أم أحد ، أو اثنين ؟ أى يوم أى ؟ أبى رحل يوم ثلاثاء ، فى أى يوم سيكون مختتمى ؟ لاتدرى نفس ماذا تكسب غدا ، ولاتدرى نفس بأى أرض تموت ، أمي ودعت أبى ، وأنا أعيش وداعها ، فمن سيسعى فى أثرى ؟ من سيشيعنى ، وأى لحظات دامعة سيذكرها ولدى أو ابنتى أو امرأتى اذا لم أقض غريبا ، وشهدوا ذهابى ؟ وعلى أى مشهد سأغمض مقلتى الى الأبد ؟ أى موقف سيبرق من الماضى بينما العتمة تهوى عليّ ؟ .

يجىء الشاب الى الصالة .

« البقية فى حياتك .. »

صيغة العزاء ، أصغى اليها دهشا ، أمى التى كانت تسعى انقلبت الى ماض .

يتساءل :

« هل يمكننا أن نشرب شايا .. »

أومىء شاكرا ، يغيب عنا ، يعود حليق الذقن ، رائحة عطر تنبعث منه ، يصحبنا الى البيت القريب ، نقف عند المدخل ، أواجه ضوء النهار ، أول نهار يخلو من أمى ، أتابع سعى الخلق ، هذا حزنى المتعثر لايدرى أى سبيل يسلك ؟ نشيج ، نواح ، أم عويل ؟ ينزل الحاج عوض ، وعنده شبه عظيم بأبى ، يصافحنى ، يطالبنى بالشدة والجلد ، يقول :

« أدت رسالتها كاملة .. وتركتكم رجالا .. »

أدت رسالتها ؟ كل من يخاطبنى يذكر التتمة والنهاية ، ومع كل ذكر كأنى أفيق على ماجرى ، يجىء الحاج يونس ، أرى أيام قدومه من جهينة ، قبل استقرار أمره وتيسر حاله ، قيام أمى عند الفجر لتعد الشاى ، والافطار قبل خروجه

بصحبة أبى ساعيا فى هذه الدنيا ، يقول جارنا إنه سيمضى الى مقر عمله ليستأذن فى الغياب ، يقول صاحبى انه سيمر بمقر عمله وينبئهم بما جرى حتى يرتبوا أمورهم بدونه فى هذا اليوم ، سيلحق بنا ، انما هى مسافة الطريق لاغير ، أركب العربة ، بجوار الحاج يونس يمصمص شفتيه آسفا ..

« ياسلام على الدنيا ! ».

لماذا قال ماقال ، أى باعث ؟ أولى وجهه صوب الطريق ، ماذا يفعل اسماعيل الآن ومايفصلنا عنه ليل ونهار ، الوقت عنده الآن مابعد منتصف الليل ، رحيلها عندنا فجرا ، وعنده غروب ، كيف يتلقى النبأ ؟ أم أبذل المحاولة لاخفاء الأمر عنه ؟، تقترب السيارة من المرقد/والمثوى ، هنا أبى ، لكم جاءت أمى زائرة ، كانت تقعد فوق الحصيرة ، صامتة ، متطلعة الى مانجهل ، تضع أمامها ماجاءت به فطائر ، وبلح ، وفاكهة تمد يدها الى الصغار المتوافدين عليها ، ماأضيق المسافة ، وما أسرع المدة بين غيابه وغيابها ، لم تكتمل ثلاث سنوات بعد ، فيما جزعى ، بعد كم سألحق بهما ؟ ، هذا عبده ، من حمل أبى ونزل به الدرجات الحجرية ، ومدده ، وفك رباط كفنه ، يميل دانيا من نافذة السيارة ، يعرفنى ، لكم صافحته ، لكم استفسرت منه عما يجرى للجثمان ، يقول الحاج عوض :

« افتح العين الجديدة .. »
يستفسر عبده كأنه يدرى :
ـــ الحريمى ؟

تستدير العربة بطيئة ، الطريق غير ممهدة ، ترابية ، وعرة ، كل حركة تقربنى ، وكل سعى يدنينى من لحظة آتية لاريب فيها ، ماتزال شقيقتى تناديها أن تقوم ، كعادتها التى لم تنقطع منذ مجيئنا الى الدنيا ، أن تضع حدا لهذا الكابوس ، ان تسأل عما نحتاج اليه ؟ أن تسعى ، أن تودع ، أن تنتظر ، أن تلقانا ، أن تجلس ، أن تنظر الينا كما اعتادت ، لكن .. مامن مصغ ، مامن مجيب ..

صرخات حادة ، متقطعة ، تدخل الى الصالة امرأة لاأعرفها تحمل سلة من خوص تحوى قماشا أبيض ، وآخر أخضر ، ترانى فتطلق صرختين ، هذا من لوازم عملها عند حانوتى الناحية ، ظهر شاب فى أعقابها ، يحمل خشبة قوائمها مثنية ، طلب ازاحة المقاعدة من الغرفة التى تتمدد بها أمى ، يختل النظام ، ينتفى الاتساق ، يخرج الشاب من الغرفة ، ينظر الىّ ، يقول :

« هل سنمشى بمجرد الانتهاء ؟ »

يشير الى الغرفة ، أومىء مجيبا .. نعم ، يقول بلهجة فيها حدة :
« يعنى لن تقول لى أن أشخاصا سيجيئون .. ويجب الانتظار .. »

تطلعت اليه صامتا ، غير قادر على المجادلة ، نهره جارنا الذى وصل لتوه ممسكا بشهادة رسمية تثبت وفاة الكريمة ..

« خلاص يا أخينا .. »

فى الغرفة أزيحت الكنبة ، والمقعد ، والبساط العتيق ، وطويت المنضدة ، أما خشبة الحانوتى فنصبت ومدت ، تقول بهية امرأة صاحبى أن المياه لم تنقطع ، ولكن للحيطة ملأت عدة أوعية ، أصغى اليها ، الى أصداء شتى قادمة من بقاع بعيدة وأزمنة مندثرة ، ثقل لسانى ، وعاد الىّ وجومى ، أتحرك كأننى أخطو فى فراغ ، أروح وأجىء ، أصغى الى نواح نوال ، اتخذ بعدا غامضا ، كأنه قادم من بعيد ، أقترب من الغرفة ، بهية وأم محمد جارتنا ، وأستاذة جامعية تسكن فى الطابق الأخير ، والمرأة الحانوتية ، يتهيآن لأداء الواجب الأخير ، وكلهن معرفة السنوات الأخيرة ، واحداهن مجهولة لم ترها أمى أبدا ، ولم تسمع بها ، وفى مثل هذا الوقت من الأمس المنقرض كانت تسعى فى ناحية ، وأمى فى ناحية ، والآن قدرهما أن يلتقيا عند تخوم الأبد ، كشفن الغطاء عن الكريمة ، التى ختم على جهادها ، وصبرها ، وصمتها ، وزهدها ، وتجردها واختفائها الكرب عمن تحب ، وضعها لم يتبدل ولن ، مستسلمة بعد غياب الروح الحساس .

ذهبت اللحظات وبقى المعنى ، غابت الصورة وثبت الظل ، فهل ثمة فارق بين ماهى عليه الآن قبل أن يطويها المثوى ، وبين ماستكون عليه بعد عام أو عامين أو مائة ، أم أن الأمر يستوى منذ اغماضة العينين ، منذ بدء الاحتضار وتمامه ، اذ يشتد الهول ويبدأ الحال الأعظم ، ويرى البصر مالايراه المحيطون ، القائمون ، فالموت نزع ، والموت جهل ، والموت فراق ، وغيبة .

قال شيخى الأكبر الذى طالت غيبته عنى ، الموت فزع للمؤمن لما قدم من اساءة ، وفزع للعارف لحيائه من الخالق عند القدوم عليه ، وندم للكافر لفقد المألوفات، أقول أنه كم كمد لافتراقها القسرى عمن أحبت ورعت ، ومن لم تطمئن عليهم بعد ، الغائب الذى لم يصل ، والصغيرة التى لم تزل بعد وحيدة ، والابن ذو العلة ، الفزع واحد وان اختلفت المسببات .

أقف عند باب الغرفة ، بطنها الذى كان أول موطنى ومحل تكوينى علا ، أكبر حجما مما كان عليه عندما رأيتها أول مرة صباح هذا النهار، الزبد الذى غطى الشفتين انزاح الى أسفل عند الذقن ، تميع قوامه ، وتلاشت فقاعاته ، لايملك الميت لنفسه ضرا ولانفعا ، تلك كينونتها العدمية ، تنأى بالعزل لا بالاعتزال ، تحضر بالعلم لا بالانتقال ، تغيب بالاحتجاب لا بالارتحال ، لاشىء يمكن أن يظلها ، ولاشىء تحتها فيقلها ، ولاشىء أمامها فيحدها ، ولا وراءها فيدركها ، ذاك حسبى ! .

تقترب بهية ، وأم محمد ، تبسطان الأيدى ، لابد من حملها ونقلها وتمديدها فوق الخشبة التى اكتمل نصبها ، وتحتها وضعوا آنية فارغة من نحاس ، تتراجعان ، الحمل ثقيل ، تشير بهية الىّ ..

« تعال ياجمال .. ساعدنا »

لكن !!

بدر منى ماحيرنى ويحيرنى حتى زمن تدوينى هذا ، اذ وليت وجهى ، ونأيت ببصرى ، لم أقدم على حملها هى التى حملتنى مضغة فعلقة فجنينا فطفلا

فكبيرا مستويا، هي من كان صدرها مرعاى، وحجرها فراشى !، أعيانى تفسير ذلك فيما بعد ولمت نفسى مرارا .. هل مبعث ذلك تقزز منها ، من الموت ، من همودها ، أم أنه الخوف والخشية ، ألوذ بأخف تفسير يمكن الرضاء به ، عدم احتمالى الموقف الصعب ، لكن عبثا حاولت أن أهدىء نفسى .

« طيب .. تعال يامحمد .. »

يتقدم صاحبى ، مابين صرير الفراش وصرير الخشبة انتقل الجثمان الهامد من موضع الى موضع ، تقول بهية :

« آخرج يامحمد »

قبل اغلاق الباب ، أشيع البصر عبر فراغ الحجرة ، أمى وجهها ناحيتى هل تبدو ملامحها أكثر هدوءا ؟ هل خفت تقلصاتها ، وهذه الأوردة المختنقة على صفاء الجبين ؟ ربما .. وربما هذا ماخيل الىّ .

عند ركنى عينيها لمحت دمعتين ، من أنفها سالت نقطتين لايمكنها مسحهما أو إخفاؤهما، شأن الطفل اذ يغزر بكاؤه فتسيل أنفه ويتصل دمعه، قيل فيما بعد انها كانت تبكى أثناء غسلها، اذ فارقت وأمنيات شتى لم تتحقق وأحباب كثر لم تنل منهم طلة .

أطلت النظر ، تعلقت بملامحها ، هذه القسمات لن أراها أبدا ، لن تقع عيناى عليها ، ستصبح مجرد مكونات لأخيلتى وذكرياتى المسترجعة ان طال بى العمر ، وقد تبهت فاعجز عن استعادتها وقد يجىء وقت لاتعاودنى حتى فى رؤى منامى ، هذه الملامح أمامى وغير كائنة ، تلك المعالم لن تكون ، انتهى زمنها وبدأ رحيلها ، رحيل لن يوقفه أحد أبدا .

يتساءل أحد الأقارب :

« هل تعرفن الغسل الشرعى ؟ »

أجابته إحداهن ، لكنه راح يشرح كيفية صب الماء ، بأى عضو يجب البدء ، تراجعت عن الباب المغلق ، نواح شقيقتى دام ، رحت وجئت ، وعندما صاحت احداهن تطلب زجاجة ماء الورد ، خرج شقيقى على ممسكا بها ، كان صامتا ، والكتمان هنا خطر لذا خشيت عليه ، غير انه ألقى فجأة بالزجاجة أرضا ، جعر صارخا ، دامعا ، قال لى فيما بعد أنه اشترى قبل رحيل أمنا المجاهدة زجاجتين من ماء الورد عند زيارته لضريح الحبيب الحسين ، كانا نذير شؤم ، لام نفسه ، قلت له ، تشاءون وتشاء الأقدار .

أتوقف بجوار الصوان ، قالت شقيقتى إن زجاجه طرشق فجأة قبل طلوع الصبح ، ألوم نفسى ، لماذا أبدو متعجلا ، لماذا أود مواراتها بسرعة ، أهذا نصيبها عندى ؟ وهنا أصغيت خائفا الى صوت غريب ، لايمت الى أى من الحاضرين :

« ياجمال ، قد ورد أن العجلة من الشيطان الا فى ثلاث ، منها تجهيز الميت ، ومن تجهيزه الاسراع به الى مثواه .. »

على مهل أراه ، يستوى أمامى شيخى الأكبر محيى الدين ، غاب طويلا ، انما جاء فى هذا الوقت بالذات لينوب عن كثيرين ، ليخبر عن أشياء وليومىء ملمحا ، لم يره الا أنا ، ولم يسمعه الاى ، كنت أخاطبه بالنظر ، فيجيبنى لأصغى أنا وحدى ، استفسرت منه عن دليلى ، كيف لايجىء فى لحظة كهذه ..

« منذ الآن انما أنت دليل ذاتك ، فمنذ أن تمت المصالحة لم يعد لك به حاجة .. »

قلت :

« ولكنها مصالحة متأخرة .. »

قال :

« هذا تقدير .. »

ثم أمرنى أن أبقى هوية دليلى سرا ، لاأطلع عليه أحدا ، ولا أصرح به ، ولاأذكره بسوء ، لم أستفسر ، فلابد أن فى الأمر سرا وسببا ، لماذا يلوح بين

خضم أحزانى احساس مبهم اننى لن أرى الشيخ الأكبر ، وان هذا تجليه الأخير عندى ، كأنه أدرك ماأفكر فيه ، هذا مابدا فى عينيه ، لكنه لم يجبنى ، لم يفسر لى ، انما تلى فى وعيى ، « ان ماتوعدون لواقع » ، أمرنى أن أفتح نوافذ البيت كلها ، فامتثلت دون أن استفسر ، أومأت وان لم يلحظنى أحد ، أتطلع الى باب الغرفة المغلق ، غير أن قلبى غير موصد ، والقلوب كما علمنى شيخى ثلاثة ، قلب مثل الجبل لايزيله شيء ، وقلب مثل النخلة أصلها ثابت والريح تميلها ، وقلب كالريشة يميل مع الريح يمينا وشمالا ، وقلبى أنا كالنخلة ، جذعه راسخ لكنه يميل مع كل هبوب ، هينا كان ، أو صرصرا عاتيا .

يتطلع شيخى الأكبر الى الأرض ، يتبع نظره ، الماء يتسرب من تحت باب الغرفة ، كل قطرة منه لامست الكريمة ، هذا الوجه المولى جهتى ، والفم المزموم ، وآثار النزع ، يحيط الماء شيخى من كل جهة ، لكنه لايفارق ، ولايتزحزح ، تمضى اللحظات ، وهن الوقت ، فلا يسرع ولايبطىء ، صمت من ورائه نهار حار ثقيل ، تخرج أم محمد :

« ادخل وسلم على أمك .. »

التفت الى مولاى محيى الدين ، لايدرى أحد الى من أنظر ، ولامن أستشير ، فلم إذن تقدمت ؟، مغطاة تماما ، « لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة » ، ملفوفة فى كفن أخضر وأبيض ، والكفن للميت كاللباس للمصلى مايصلى عليه لافيه ، مايحول بينه وبين الأرض ، تقول المرأة :

« قل سامحتك ياأمى .. »

أنا ، أسامحها أنا ؟، قال أبى قبل رحيله « سامحونى » ، أنحن من نسامح ؟! أم نحن الذين يجب أن نرجو السماح والمغفرة لتقصيرنا ، ولما أتيناه فى حقهما بقصد وبدون قصد ، لم يطاوعنى لسانى ، فكررت المرأة :

« قل سامحتك ياأمى .. »

فلفظ لسانى ماصح عندى ..

« سامحينى ياأمى »

فكأنى الميت ، هممت بالتراجع ، غير أن المرأة كررت :

« قل سامحتك ياأمى .. »

رددت :

« سامحينى ياأمى .. أنا مسامحك .. »

دخلت نوال ، جاء على ، ظهر الحانوتى الشاب المتعجل ، حملوها ، لم أدر ، لم أدقق من ؟، وقفت قريبا من أختى الملتاعة ، وعندما مروا بأمنا أمامها مدت يديها تروم امساكها ، تبغى ايقافهم ، لكن من يحوش ، من يمنع ؟، هذا لاراد له أبدا .

قلت راجيا :

« لانريد لأمنا البهدلة .. »

فجأة ، تهرول أم محمد ، تلطم وجنتيها صارخة :

« مع السلامة ياأميرة .. مع السلامة يامجاهدة .. »

أنزل السلم منحنيا ، وضعوها داخل النعش الذى أسندوه أمام المدخل ، دفعوا به وبها الى جوف العربة ، لم نمش وراءها ، لم تنتظم صفوف ، اكتمل الركب فى هذه السيارة ، ركبت عربة صاحبى .

الظهيرة تدنو ، قيظ يوليو يشتد ، هجير ، والطريق شبه خاوية على غير العادة ، كنا ثمانية من عالم الحس ، وواحد من عالم الغيب ، أما الثمانية فهم أقارب ثلاثة انقطع عهدها بهم منذ أمد بعيد ، وجاران لم تعرف منهما الا الاسم ، وصاحبان لى أعرفهما بقدر ، وأخى ، أمال الذى جاء من حيث لايمكن لى أن أعرف أو أدرى فهو مولاى الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى ، هؤلاء من سعوا خلفها ، من ودعوها عند سفرها الأخير ، من الشرفة انبعثت صرخات أختى ، الشرفة ذاتها التى وقفت فيها وأطلت منها قبل ساعات ، انطوى الليل ، وطلعت الشمس على دنيا خلت منها ، وأسعى الآن فى وداعها ..

قبل ركوبنا ، قال أحد الأقارب :

« هل أوصت بالصلاة عليها فى مسجد بعينه .. »

قلت : لا .

قال الحانوتى الشاب :

« مسجد السيدة عائشة فى طريقنا ، لودخلنا الى مسجد السيدة زينب أو الحسين سنحتاج وقتا .. اليوم سبت والزحام شديد فى البلد .. »

لماذا لم أصر على الصلاة عليها عند ضريح الحبيب ومثواه القاهرى ؟ لماذا لزمت الصمت ؟ أهذا لعجلتى ؟ لماذا فكرت فى السفر الذى كان يجب أن أبدأه بعد ساعات ؟ لماذا ؟ هل انتابنى طيف ضيق وندم لامتناع سفرى ؟ هذا ماأرقنى زمنا ، خاصة اننى قارنت بين حزنى الأشد على رحيل الوالد ، وبين آلامى التى بدأت فجر هذا السبت ، فهل اعتدت الموت وتأهبت له ، أم أن فى الأمر قضية ؟ .

قطعنا طريق صلاح سالم الممتد خارج المدينة ، عند القلعة لمحت بين زحام العربات وتدافعها المركبة التى تحمل جثمانها ، لمحت الشيخ الأكبر يلزمها ، يمشى الى جوارها طاويا المسافة بخطى يشق علىّ تفسيرها . فى هذه العربة نعش .. يحتوى خفوت أمى وهمودها ..

كأنى أدرك ذلك أول مرة ، بدا الأمر مستعصيا على التصديق ، فبدأت بث حزنى ، أندلع نواحى ، ممتدا ، مرا ، وعندما توقفت العربة نزلت سارعت للمشاركة فى حملها ، أقبل مجهولون ، أناس لاأعرفهم ، لم ترهم أمى أبدا ، تناوبوا حملها ، داخل المسجد المدثر بالظلال العتيقة جاء آخرون ، اصطفوا أمام النعش ، مال علىّ شيخى الأكبر ، ولما كنت أجهل صلاة الجناز ، لقننى مايجب أن أعلمه ، قال : لا ركوع ، بل قيام ، وكل وقوف له تكبيرة .

علمنى رفع الأيدى عند كل تكبيرة ، اذ أن رفعهما يؤذن بالافتقار ، يقول المصلى على الميت ، هذه أيدينا قد رفعناها اليك فى كل حال ، ليس فيها شيء ،

ولاتملك شيئا ، علمنى التكتيف اذ أنه شافعى والشافعى سائل ، والسؤال حال ذلة وافتقار فيما يسأل فيه ، سواء كان ذلك السؤال فى حق نفسه أو حق غيره ، فالسائل فى حق الغير ، هو نائب فى سؤاله عن ذلك الغير ، فلابد أن يقف موقف الذلة والحاجة لما هو مفتقر اليه فيه ، علمنى التكتيف ، وهو صفة الضعفاء الذين لايمكنهم تبديل الأمر ، وصفته وضع اليد على الأخرى ، بالقبض على ظهر الكف والرسغ والساعد ، فيشبه أخذ العهد ، فى الجمع بين اليدين ، يد المعاهد والمعاهد ، أى أخذت علينا العهد أن ندعوك ، وأخذنا عليك العهد بكرمك فى أن تجيبنا ، « واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان » .

علمنى قراءة الفاتحة بعد التكبيرة الأولى ، والصلاة على الحبيب المصطفى بعد التكبيرة الثانية ، والدعاء بعد الثالثة ، « اللهم ابدل له دارا خيرا من داره » ، قال لى شيخى : المصلى داع أبدا ، والمصلى عليه ميت أو نائم أبدا ، فمن نام بنفسه فهو ميت ، ومن مات بربه فهو نائم نومة العروس ، والحق ينوب عنه .

هكذا لقننى ، ثم قال لى : لابد من الخير ولو بعد حين ! ، ثم قال لى : ان الميت قد يرى فى الطريق أهوالا عظاما ، لهذا ينبغى أن تكون الشفاعة له ، قال لى : فاذا فرغت فانصب .

أسارع الى حمل النعش مع الحاملين ، أعود الى مقعدى فى العربة ، المثوى قريب ، أقطع الخطى الأخيرة ، يشتد أنينى ، يتعاظم وعيى ، انها النهاية ، الفظ باكيا « ياخرابى » ، الطم وجنتى ، يطالعنى الشيخ الأكبر لائما ، يقول بالصمت ، ألهذا جئتك ؟ ، غير اننى لم أكف ، لم أتوقف ، نزلت مترجلا ، كف نواحى ، رأيت مقاعد مصفوفة ، المدخل المؤدى الى داخل المقبرة مفتوح ، بداية درجات حجرية تغيب بقيتها عن النظر ، لم أدر ماذا يجرى ، لمحت انصراف الحانوتى الشاب ، سمعت محرك العربة عندما أقفلت راجعة ، رجلان يحملانها ، رائحة ماء الورد الذى ضمخت به قوية ، يتقدمان باتجاه الفوهة ، أراها محمولة ، لم أرها الا ساعية ، لم أرها الا ماشية ، فى الطريق المجاور لضريح الحبيب ، بمفردها

تشترى خبزا لنا ، بمفردها تصحب أخى على الى الطبيب ، الى جوارى صامتة ، مستسلمة عندما شك الأطباء أن ورما فى صدرها ، بمفردها الى الحاج فؤاد تفاوضه على تقسيط ثمن أريكة وصوان قديم ، الى جوار أبى عند اعتقالى ، يذهب الى أحد المعارف ، تبقى منتظرة نبأ عن ضناها الغائب ، أراها طفلة تعدو عبر الزمن العتيق ، واقفة ، متطلعة ، منتظرة قدوم أحدنا مازاغ البصر وما طغى .

تروح وتجىء ، فرحة نشطة عند قدومى بصحبة حفيديها ، تلك طلتها ، وهذه نظرتها ، واللحظة الأولى لظهورها ، وذلك سلامها ، أصغيت الى صوت غنائها ، والغناء يعنى ذروة انفرادها ، وتوحدها ، وهجرتها الداخلية الى مالا أعلمه ولن ، أراها فى هيئة لم أعهدها ، لم تمر بى أبدا ، قاعدة ، تمد احدى ساقيها وتثنى الأخرى ، تنظر نظرة جانبية ، مجللة بسواد غريب ، محمرة العينين ، باكية ، متحسرة على فراقنا ، فهذه هيئة مابعد الرحيل ، والنجم اذا هوى ، ماضل صاحبكم وماغوى ، انما هو وحى يوحى ، هاهى ذى تبدأ سعيا أجهل كنهه ، رحلة لا أعرفها ، ألم يقل عز من قائل « الى ربك الرجعى » ، فالرجعى تستلزم السعى ، الرجعى تعنى قطع اللامسافات التى لاأدرى من أمرها شيئا ، « ونحن أقرب اليه منكم ولكن لاتبصرون » .

هذا تاريخ بأكمله يغيب ، يتوارى عنى ، جذرى يأفل ، وأصل كينونتى وأول موطنى ، أقوم على مهل ، محدقا ، محاولا اختراق الحجب ، مجاهدا لمعرفة السبب ، أرقب الحبيبة ، المجاهدة تغيب شيئا فشيئا ، فمن جاء ، ومن رحل ، من أعطى ومن أخذ ، من أقبل ، ومن رجع ؟! .

أشير بسبابتى الى فراغ عقيم ، لاتصلنى منه اشارة ، غير انى مدرك ، موقن ، هو وجود كل شىء ، المقصود فى كل شىء ، المترجم عنه فى كل شىء ، الظاهر عند ظهور كل شىء ، الباطن عند فقد كل شىء ، الأول من كل شىء ، الآخر من كل شىء ، يتدفق جعيرى ، لكن أنىّ لى بايقاف الدهر ، الدهر الذى لاراد له ، من تنعدم عنده الأمكنة والبقاع ، اللحظات والأزمنة ، أنىّ لى بوضع حد لذلك الذى أوجدها ، وغاب بها ، وسيمحو أحزانى عليها .

أنقلب من حيث جئت ، الى نفس مامر به أصلى قبل تبدده وتوزعه بعد أن أفشى ! تتبدل علىّ المشاعر وتتعاقب ، أهوى قابضا على التراب ، ناثرا ذراته فوق رأسى ، يمسك بى الشيخ الأكبر ، يمسك بى الأقارب وصاحبى والقوم ، أقعى جاثيا متطلعا الى شيخى ، يبدو غاضبا ، غير اننى لاأعبأ ، لايوقفنى إيماء ، أو همس ، ولايمنعنى ردع ، أو تلويح بتهديد ، أقول بصوت مرتفع غير عابىء بمن يحيطون بى ، جاهلين من أخاطب ، « لن أكون ذلك الذى وصفته أبدا ، لماذا تناقض ذاتك بذاتك ، ألست القائل ، ألست المتسائل ، من أقهر الناس لنفسه ؟ ألست المجيب على تساؤلك بنفسك ، انه الراضى بالمقدور ، فلماذا تريد منى ذلك الآن ، لماذا ؟ لست أنا ، ولن أكون » .

يرفع يده ، بينما يمد القوم أيديهم ليمسكوا بى ، يحولون بينى وبين التراب ، يختلط جعيرى بنواحى ، فماقلته ذلك الذى لم أقله ، ومالم أقله ذلك الذى قلته ، فأين المفر ، أين المفر ؟ .

عند هذا الحد أضطر الى التوقف ، فلم يكن بوسعى الا الامتثال ، بعد أن بدأت صيرورتى تلقى مالاقبل لى بوصفه أو التعبير عنه ، لذا أنهى هذا السفر على غير رغبة منى ، أما اذا سنحت الفرصة ، وسمحت الوسيلة ، فربما جمعت ماتبدد ، ولملمت ماتشظى ، علىّ أصوغ يوما القول والمخاطبات والسرائر ، فينكشف من السر قدر جلل ، أما الآن ، فأدنوا منى ، وحنوا علىّ ، ففقدانى قريب ، ولاتبخلوا بدموعكم لتكون تأنيسا فى وحشتى ، ورحمة بى فى غربتى التى لاتنتهى الا لتبدأ ، ولاتنقطع الا لتتصل ، فيا حسرتى على القرب بعد بدء البعاد .

كان الفراغ منه ليلة الاثنين الموافق سادس ابريل ، ألف وتسعمائة ستة وثمانين المنقضى على ميلاد السيد المسيح ، السابع والعشرين من رجب ، عام ألف وأربعمائة وستة المنقضى على هجرة من لانت له الأرض ، وظللته الغمامة ، وبكى الغزال بين يديه .

فبـــادروا !

صدر للمؤلف

• أوراق شاب عاش منذ ألف عام (مجموعة قصصية)	طبعة أولى	١٩٦٩
طبعة خاصة عن دار صلاح الدين		
•القدس المحتلة ١٩٧٥	طبعة رابعة	١٩٨٠
• أرض .. أرض (قصص)	طبعة أولى	١٩٧٢
	طبعة ثانية	١٩٨٠
• الزينى بركات (رواية)	طبعة أولى	١٩٧٥
	طبعة ثالثة	١٩٨٥
• الزويـل (قصص)	طبعة أولى	١٩٧٤
	طبعة ثانية	١٩٨٠
• وقائع حارة الزعفرانى (رواية)	طبعة أولى	١٩٧٦
	طبعة ثانية	١٩٨٥
• الحصار من ثلاث جهات (مجموعة قصصية)	طبعة أولى	١٩٧٥
	طبعة ثانية	١٩٨٠
• حكايات الغريب (مجموعة قصصية)	طبعة أولى	١٩٧٦
	طبعة ثانية	١٩٨٠
• ذكر ماجرى (مجموعة قصصية)	طبعة أولى	١٩٧٨
	طبعة ثانية	١٩٨٠
• الرفاعـى (رواية)	طبعة أولى	١٩٧٨
	طبعة ثانية	١٩٨٠
• خطط الغيطانى (رواية)		١٩٨١
• كتاب التجليات ــ السفر الأول ــ صدر عن دار المستقبل العربى بالقاهرة ودار الوحدة بيروت		١٩٨٣
• كتاب التجليات ــ السفر الثانى	صدر عن دار المستقبل العربى	١٩٨٥
• اتحاف الزمان بحكاية جلبى السلطان مجموعة قصصية	صدر عن دار المستقبل العربى	١٩٨٥

• منتصف ليلة الغربة (مختارات قصصية)	مختارات فصول	١٩٨٤
• احراش المدينة (مختارات قصصية)	كتاب اليوم	١٩٨٥

دراسات ومشاهدات :

• المصريون والحرب	صدر عن دار روزاليوسف	١٩٧٤
• حراس البوابة الشرقية	صدر عن دار الطليعة بيروت	
	مكتبة مدبولى القاهرة	١٩٧٥
• نجيب محفوط يتذكر	صدر عن دار المسيرة ـــ بيروت	١٩٨٠
• مصطفى أمين يتذكر	صدر عن مكتبة مدبولى ـــ القاهرة	١٩٨٠
• ملامح القاهرة فى ألف عام	صدر عن كتاب الهلال	١٩٨٣
• اسبلة القاهرة (قاهريات)	صدر عن مكتبة مدبولى	١٩٨٤

أعمال ترجمت الى لغات أجنبية

• **الزينى بركات**

صدرت الترجمة الفرنسية عن دار	EDITION DU SEUIL	إلفرنسية
صدرت الترجمة السويدية عن دار	NORSTEDT & SÖNERS	السويدية
صدرت الترجمة الانجليزية عن دار	PENGUIN	الانجليزية
صدرت الترجمة الهولندية عن دار	UNIEBOEK	الهولندية
صدرت الترجمة النرويجية عن دار	ASCHEHOUG	النرويجية
صدرت الترجمة الروسية عن دار	رادوجا	السوفيتية

صدرت الترجمة البولندية عن دار نشر الدولة

• **وقائع حارة الزعفرانى**

صدرت ترجمتها الانجليزية فى سلسلة الأدب المعاصر ، عن الهيئة العامة للكتاب فى القاهرة

• **قصص قصيرة** ، ترجمت متفرقة الى اللغات ، الفرنسية ، والانجليزية ، والأسبانية ، والايطالية ، والعبرية ، والألمانية ،

- صدرت الأعمال الكاملة حتى عام ١٩٨٠ عن دار المسيرة بيروت

تحت الطبع

- البصائر فى المصائر قصص
- الأخبار الطوال رواية

رقم الايداع : ٨٧/١٥٦١

الترقيم الدولى : ١ — ٠٧٠ — ٤٤٢ — ٩٧٧

* الحق أن بنية التجليات بأسلوبها والعلاقة بين عناصرها ، تُشكل ظاهرة جديدة في أدبنا العربي المعاصر .

محمود أمين العالم

* الغيطانى كاتب جاد يعانى فيما يريد أن يقول ويطرق أشد دروب المعاناة فى محاولة للوعى وللإدراك ثم يعانى بعد ذلك فى الحرفة الفنية .

د . عبد المحسن طه بدر

* أى كتاب هائل هو كتاب التجليات ، هو كتاب يحكى لنا من أسرار الحياة قدرا عظيما ، إنه عمل أدبى خطير يستخدم فيه الكاتب أسلوبا له مذاق خمر جاءت قبل أن تُخلق أشجار الكرْم .

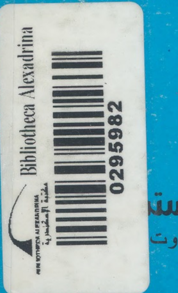
أحمد بهجت

* فى التجليات يسعى الغيطانى إلى تحقيق شكل فنى تجريدى يقوم على أساس تحطيم بنية الشكل التقليدى فى الكتابة والرواية .

قمرى البشير ـــ المغرب

* كتاب التجليات خطوة كبيرة فى الرواية العربية على طريق تحقيق ملامحها الخاصة وخصوصيتها القومية فى آنٍ ، فهى من الأصالة فى موقع الرقص الهندى من أديان الهند وفى موقع التمسك اليابانى بعلم الجمال القومى .

د . نوفل نيوف ـــ دمشق



دار المستـ
٤١ شارع بيروت
ت ٦٦٥٩٠٠